

أَحْسَنُ تَفْسِيرٍ لِلْقُرْآنِ بِفَيْضٍ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ

مَعْنَى الْمَلَائِكَةِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

الجزء السادس والثمانون بعد المائة
الآية ١٧٩ سورة آل عمران

المرجع الديني للمسلمين
الشيخ صالح آل صالح
أساذلفة والأصول والتفسير والأخلاق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله مالك الملك الذي جعل مقاليد الأمور كلها بيده ، وتفضل على عالم الأكوان وجعله منقاداً إلى مشيئته ومستجيباً إلى أمره ، وهذا الإنقياد رحمة بالخلائق ومنها الإنسان الذي شرفه الله عز وجل بالخلافة ، فله الحمد على نعمة الخلافة التي أختص الله بها الإنسان .

وجمع الله بينه وبين الجن في وجوب عبادته تعالى مع أن الجن ليسوا خلفاء في الأرض ، قال تعالى ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾^(١) وفيه زيادة في نعم الله عز وجل على الإنسان ويلزم شكره لله تعالى بالإيمان بربوبيته المطلقة والتصديق بما جاء به الأنبياء وإقام الصلاة وأداء الزكاة والفرائض العبادية الأخرى ، فمن قوانين الحياة الدنيا الملازمة بين الوجود الإنساني والتكليف ، فما أن يصل الإنسان سن البلوغ حتى تتوجه إليه التكاليف العبادية .

لقد ميز الله عز وجل الإنسان بمنزلة الخلافة ، وجاء هذا الجزء وهو السادس والثمانون بعد المائة من تفسيرنا للقرآن في تمييز الله عز وجل بين الطيب والخبيث ، وبين المؤمن والمنافق من الناس ، بعزل المنافق بيان قبح فعله .

لقد كان تمييز الله عز وجل للناس من بين الخلائق بما فيه رفعتهم وسعادتهم في الحياة الدنيا ، وتسخير الأشياء والموجودات لهم لتكون وسيلة وواسطة للعبور على الصراط يوم القيامة ، وجاءت آية البحث لجذب الناس إلى منازل الهدى والإيمان ، والعصمة من الخبث والعادات المذمومة.

الحمد لله الذي جعل كل آية من القرآن مدرسة متجددة للهداية ، وخزينة علوم مفتوحة للناس جميعاً لينهلوا منها ومن غير أن ينقص منه شئ ، وهو من أسرار أداء المسلمين الصلاة خمس مرات في اليوم .

وتتضمن هذه الصلاة قراءة القرآن في كل قيام من كل ركعة من الصلاة ، ليلقي المسلم القرآن في الصباح وعند الزوال والعصر وعند غروب الشمس وفي العشاء ، ويأتي بيانه بقانون (أوان الصلوات الخمس زاجر عن الإرهاب) ^(١).

الحمد لله الذي أنعم النعم العظيمة فضلاً ورحمة منه تعالى ، وسبيل هداية ورشاد للناس ودعوة للشكر له سبحانه فيكون هذا الشكر باباً للأجر والثواب وزيادة في النعم ، وسبباً لتواليها ، وعن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : أول من يدعى إلى الجنة الحمادون الذين يحمدون الله على السراء والضراء .

وأخرج ابن المبارك عن سعيد بن جبير قال : إن أول من يدعى إلى الجنة الذين يحمدون الله على كل حال ^(٢).

الحمد لله الذي أنعم علينا بهذا السفر في علم التفسير والتأويل الذي لم يشهد له تأريخ العلوم الإسلامية مثيلاً وتترى أجزاؤه

(١) انظر الجزء الثاني والثمانين بعد المائة من هذا السفر.

(٢) الدر المنثور ١٧١/٥ .

بلطف ومن من الله وأكتبه بقصد القربة إلى الله ، وأسأله تعالى أن يجعله خالصاً لوجهه ، وقراءة نافعة في مضامين آيات القرآن وصلى الله على البشير النذير محمد وعلى آله وسلم ، ونسأل الله عز وجل أن يجعلنا من الحامدين له سبحانه ، والسائقين في رياض التنزيل .
وعن ابن مسعود يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال تعاهدوا القرآن فإنه أشد تفصيلاً من صدور الرجال من النعم من عقلها بشما لأحدهم أن يقول نسيت آية كيت وكيت بل هو نسي^(١).

أي لم تنس الآيات القرآنية ، ولكن ذات الشخص فرط وترك الحفظ ، ونسي الإلتفات إلى الآيات ، ولم يقم بشرائط تعاهد الحفظ ومنها :

الأول : التلاوة المتجددة في الصلاة وخارجها ، وهو من أسرار تلاوة سورة أو عدة آيات في كل ركعة من الصلاة الى جانب قراءة سورة الفاتحة .

الثاني : التدبر في آيات القرآن.

الثالث : التلاوة المستحبة ، ومنها في ليالي وأيام شهر رمضان .
ومن فضل الله عز وجل أنني أقوم بكتابة أجزاء التفسير وكتبي الفقهية والأصولية ومراجعتها وتصحيحها بمفردي ، بلطف ومدد من الله عز وجل .

الحمد لله الذي أحاط بكل شئ علماً ، وأخبر في آية البحث التي يقع هذا الجزء في تفسيرها ، وهي ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَيْثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ

عَظِيمٌ﴿١﴾، على استثثاره بعلوم الغيب وهو من الشواهد على ربوبيته المطلقة وحاجة الخلائق إليه ، وفيه دلالة على امتناع الشريك ، وعجز الذين كفروا عن الإضرار بملك الله عز وجل .

الحمد لله الذي أخبر المسلمين والناس جميعاً في آية البحث بأنه يعزل الخبيث عن الطيب ، ويجعل المؤمنين أمة تتعاهد الصالحات ، وتمتنع عن فعل الموبقات ويعجز مشركوا قريش عن النفاذ إليهم ، أو بلوغ مرتبة البطانة والوليعة عندهم ، لقد كان النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم يصلي الصلوات الخمس في المسجد النبوي ، ويستطيع أي إنسان الوصول إليه وسؤاله ومحادثته .

فبينت آية البحث رحمة الله بالفصل بين المؤمنين والمنافقين ، وهذا الفصل لا يقدر عليه إلا الله ، وهل يستطيع النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه تحقيق النصر وبأقل الخسائر من المسلمين وأعدائهم ، من دونه ، الجواب لا ، لذا يلزم الشكر لله عز وجل على نعمة فضح المنافقين ، وعزلهم عن المؤمنين وعلى المنافع العظيمة التي ترشحت عن كل من هذا الفضح والعزل ، وهذا الشكر من مصاديق قوله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(١) .

ومن فضل الله عز وجل في هذا السفر المبارك تعدد أبواب تفسير الآية القرآنية الواحدة وقد ورد في هذا الجزء بخصوص آية البحث وهي الآية (١٧٩) من سورة آل عمران كل من :

الأول : الإعراب واللغة .

الثاني : في سياق الآيات .

الثالث : الصلة بين خاتمة الآيتين .

الرابع : إعجاز الآية الذاتي .

- الخامس : إعجاز الآية الغيري .
- السادس : الآية سلاح .
- السابع : إفاضات الآية .
- الثامن : الآية لطف .
- التاسع : الآية بشارة .
- العاشر : الآية إنذار .
- الحادي عشر : الآية موعظة .
- الثاني عشر : الآية رحمة .
- الثالث عشر : الحاجة لآية البحث .
- الرابع عشر : النعم التي تذكرها آية البحث .
- الخامس عشر : مفهوم المخالفة .
- السادس عشر : مفهوم الموافقة .
- السابع عشر : الصلة بين أول وآخر الآية .
- الثامن عشر : من غايات الآية .
- التاسع عشر : أسباب النزول .
- العشرون : التفسير ، وينشطر علم تفسير الآية بحسب كلمات ومواضيع الآية القرآنية.

الحمد لله الذي بعث الرسل رحمة للناس ، وانقطعت النبوة بمغادرة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى الرفيق الأعلى ، ولكن منافع وعلوم وذخائر النبوة والتنزيل باقية إلى يوم القيامة ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(١) ، لبيان قانون من علم الغيب الذي تذكره آية البحث ، وهو مصاحبة أحكام النبوة وآيات التنزيل

الوجود الإنساني في الأرض الى يوم القيامة ، وإذا انعم الله عز وجل على العباد نعمة فانه أكرم من أن يرفعها .

وتضمنت آية البحث الإخبار عن تفضل الله باختيار الرسل من عنده ، ويدل بالدلالة الموضوعية على هداية شطر من الناس للتصديق بهم ونصرتهم .

وقد أراد الله عز وجل للمسلمين الفوز بالثواب العظيم في الآخرة بالتصديق بكل الأنبياء والرسل وبما جاءوا به من عند الله .

الحمد لله الذي جعل الطيب والأمر الحسن قريباً من الناس ليس بينهم وبينه حجاب أو حاجر أو برزخ ، فيختار العبد الإيمان بالله ورسله فيفضل الله عز وجل بحسن الصلات مع المؤمنين لقوله تعالى ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾^(١) ، ومن مصاديق الآية أعلاه أداء المؤمنين الفرائض العبادية مجتمعين ومتفرقين .

فيؤدون الصلاة جماعة وفردا ، ويأتي شهر رمضان فيصومه كل مسلم ومسلمة مع الغبطة والسعادة ، وحتى المريض والمعذور يستقبل الشهر بالغبطة والرضا ، وهو من إعجاز القرآن بانفراد شهر رمضان من بين أشهر السنة بتسميته بذكره بالاسم في القرآن وبلحاظ صبغة التنزيل والعبادة فيه ، قال تعالى ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرٍ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُم وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾^(٢) .

(١) سورة الحجرات ١٠.

(٢) سورة البقرة ١٨٥.

وهل صيام رمضان من الإيمان أو التقوى اللذين أختتمت بهما آية البحث وأخبرت عن عظيم الثواب بهما ، قال تعالى ﴿وَإِنْ تُمْنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾^(١) ، الجواب إنه من الإيمان ومن التقوى معاً ، لبيان فضل الله عز وجل على الناس بأن جعل شروطاً للثواب وهداهم لهذه الشروط وأعانهم على الإتيان بها ، وهو من مصاديق لطف الله عز وجل بالعباد ، وليكون من معاني قوله تعالى ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(٢) ، أي اهدنا للعقل الذي يؤدي للفوز بالأجر والثواب العظيم .

الحمد لله على كل آية تفضل الله عز وجل بانزالها ، وعلى المضامين القدسية فيها ، وذخائرها العملية التي لا تنقضي الى يوم القيامة ، لقد بينت آية البحث طريق الفوز والثواب العظيم في الآخرة ، ويتألف من أمرين :

الأول : الإيمان .

الثاني : التقوى .

وفيه دعوة لأداء الواجبات العبادية ، وفعل الخيرات ، والإمتناع عن الإضرار بالغير فكل من الإيمان والتقوى رحمة بالنفس والناس ، وواقية من الذنوب والمعاصي ، وفي التنزيل ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٣) .

حرف في ٢٢ شعبان ١٤٤٠

٢٨ نيسان ٢٠١٩

(١) سورة آل عمران ١٩٧ .

(٢) سورة الفاتحة ٦ .

(٣) سورة يوسف ٩٠ .

قوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَيْثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَاٰمَنُوا بِاللّٰهِ وَرُسُلِهِ وَاِنْ تُوْمِنُوْا وَتَتَّقُوْا فَلَكُمْ اَجْرٌ عَظِيْمٌ﴾ الآية ١٧٩

الإعراب واللغة

ما : أداة نفي .

كان : فعل ماض ناقص .

ولفظ الجلالة اسم كان مرفوع .

ليذر : اللام لام الجحود وسميت لام النفي ولام الإنكار ،

سميت به لأنها تأتي بعد :

الأول : أداء نفي .

الثاني : كان الناقصة .

الثالث : اسم كان الظاهر .

كما في قوله ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾^(١).

يذر : فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام الجحود

وجوباً .

والفاعل ضمير مستتر تقديره هو يعود لله عز وجل .

المؤمنين : مفعول به منصوب وعلامة نصبه الياء لأنه جمع

مذكر سالم .

والمصدر المؤول (أن يذر) في محل جر باللام متعلق بخبر كان المحذوف وتقديره : ما كان الله فاعلاً لأن يذر المؤمنين .

على ما أنتم : على : حرف جر .

ما : اسم موصول مبني في محل جر متعلق ب (يذر) .

أنتم : ضمير منفصل في محل رفع مبتدأ .

عليه : حرف جر ، والضمير في محل جر متعلق بمحذوف خبر المبتدأ .

حتى يميز : حتى حرف جر ونصب وغاية .

وقد تعرب (حتى) على وجوه :

الأول : ناصبة .

الثاني : حرف ابتداء .

الثالث : رافعة .

الرابع : حرف عطف .

فتقول : أكلت السمكة حتى رأسها برفع الرأس للدلالة على أنها مبتدأ لخبر محذوف والتقدير حتى رأس السمكة مأكول .

وتعرب حتى رأسها بالكسر وتكون لإرادة غاية الشئ كما في

قوله تعالى ﴿سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾^(١) أي إلى مطلع الفجر .

وتعرب (حتى رأسها) بنصب رأس على أنها حرف عطف ، فيكون رأس معطوف على السمكة .

يميز : فعل مضارع منصوب بـ (أن) مضمرة .

والفاعل ضمير مستتر تقديره هو .

الخبيث : مفعول به منصوب وعلامه نصبه الفتحة الظاهرة على

آخره .

- من الطيب : جار ومجرور متعلق بـ(يميز).
- والمصدر المؤول (أن يميز) في محل جر بـ(حتى).
- وما كان الله : الواو : حرف عطف .
- ما : أداء نفى .
- كان : فعل ماض ناقص .
- لفظ الجلالة فاعل .
- ليطلعكم : اللام لام الجحود ، وقد تقدم البيان في أعراب قوله تعالى ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ﴾ .
- يطلع : فعل مضارع منصوب بـ (أن) مضمرة بعد لام الجحود والضمير (كم) مفعول به .
- على الغيب : جار ومجرور متعلق بـ ، ﴿يُطْلَعُ﴾ .
- ولكن : الواو : حرف عطف .
- لكن : حرف مشبه بالفعل للإستدراك .
- ولفظ الجلالة اسم (لكن) منصوب .
- يجتبي : فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه الضمة المقدرة على الياء .
- والفاعل ضمير مستتر تقديره (هو) .
- من رسله : من : حرف جر .
- رسل : اسم مجرور وعلامة جره الكسرة تحت آخره وهو مضاف ، والضمير (الهاء) مضاف إليه .
- من يشاء : (من) اسم موصول مبني في محل نصب مفعول به .
- يشاء : فعل مضارع مرفوع ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو .
- فآمنوا : الفاء رابطة لجواب الشرط .

آمنوا : فعل أمر مبني على حذف النون ، لأنه من الأفعال الخمسة .

الواو : فاعل .

بالله : جار ومجرور متعلق بـ(آمنُوا).

ورسله : الواو : حرف عطف .

رسل : اسم معطوف على لفظ الجلالة مجرور مثله ، وهو مضاف والهاء مضاف إليه .

وأن تؤمنوا : الواو للإستئناف .

إن : حرف شرط جازم .

تؤمنوا فعل مضارع ، وهو فعل الشرط .

مجزوم وعلامة جزمه حذف النون .

الواو : فاعل .

وتتقوا : الواو : حرف عطف .

تتقوا : فعل مضارع معطوف على تؤمنوا ، وهو مجزوم وعلامة جزمه حذف النون .

الواو : من تتقوا فاعل .

فلکم : الفاء رابطة لجواب الشرط .

اللام : حرف جر .

كم : ضمير مبني في محل جر متعلق بمحذوف خبر مقدم .

أجر عظيم : أجر مبتدأ مرفوع وعلامة رفعه الضمة الظاهرة على آخره .

عظيم : صفة لأمر مرفوع مثله .

ومعنى يذر أي يترك .

(وقال الليث: العرب قد أماتت المصدر من " يذر " والفعل الماضي، واستعملته في الحاضر والأمر، فإذا أرادوا المصدر قالوا: ذره تركاً) ^(١).

وورد الفعل يذر بمعنى الترك في السنة النبوية منه ما ورد في الحديث القدسي (الْحَسَنَةُ بَعْشَرُ أَمْثَالِهَا وَالصَّوْمُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ يَذْرُ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ بَجَرَّائِي قَالَ يَزِيدُ مِنْ أَجْلِي الصَّوْمُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ وَلَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ عِنْدَ اللَّهِ أَطْيَبُ مِنْ رِيحِ الْمَسْكِ) ^(٢).

ويذر: يدع، وقال الخليل بن أحمد (سمعنا من فصحاء العرب من يقول: لم أدع وراء، ولم أذر وراء) ^(٣).

والتمييز بين شيئين: التفريق والفصل بينهما، وهذا التفريق أعم من أن يكون مكانياً أو حسيّاً، فقد يدرك بالعقل والبصيرة (وميزت الشيء وانماز، إذا تفرّق، وميزت الشيء أميز بالتخفيف لغة ثالثة. وقرئ: " حتى يميز الخبيث من الطيب " . والعرب تقول: ميز ذا من ذا) ^(٤).

(مازه يميزه ميّزاً عزّله، وفرّزه، كأمازه وميّزه فامتاز وانماز وتميّز واستماز، الشيء فضّل بعضه على بعض، فلان انتقل من مكان إلى مكان. ورجل ميّز وميّز شديد العضل. واستماز تنحى. وتميّز من الغيظ تقطّع) ^(٥).

(١) تهذيب اللغة ٦٩/٥.

(٢) مسند أحمد ٤٣٨/١٤.

(٣) العين ١٣٣/١.

(٤) جمهرة اللغة ١٠٢/٢.

(٥) القاموس المحيط ٦٢/٢.

والخبيث عنوان جامع للمكروه والضار والمنكر والردئ كما في قوله تعالى ﴿وَلَا تَتِمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ﴾ (١).

ويقال (خَبَثَ الشَّيْءُ خَبَاثَةً، وَخَبَثَ الرَّجُلُ خُبْثًا، فهو خبيث، أي خَبٌ رديءٌ. وأَخْبَثُهُ غَيْرُهُ، أي عَلَّمَهُ الْخُبْثَ وَأَفْسَدَهُ. وَأَخْبَثَ أَيْضًا، أي اتَّخَذَ أَصْحَابًا خَبَثًا، فهو خَبِيثٌ مُخْبِثٌ وَمَخْبَثَانٌ. وقول عنتره:

نُبِّتُ عَمْرًا غَيْرَ شَاكِرٍ نِعْمَتِي ... وَالْكَفْرُ مَخْبَثَةٌ لِنَفْسِ الْمُنْعَمِ
أي مَفْسَدَةٌ. ويقال: فلانٌ لَخَبْثَةٌ، كما يقال لَزَنِيَّةٌ. ويقال في النداء: يَا خُبْثُ، كما يقال يَا لُكْعُ تَرِيدُ يَا خَيْثُ. وللمرأة: يَا خَبَاثُ، بُنِيَ عَلَى الْكُسْرِ مِثْلُ يَا لُكَاعُ.
وخبث الحديد وغيره: مَا نَفَاهُ الْكَيْرُ. والأخبثان: الْبَوْلُ وَالْغَائِطُ (٢).

(وَالْخَبِيثُ: نَعْتُ كُلِّ شَيْءٍ فَاسِدٍ، خَبِيثُ الطَّعْمِ، وَخَبِيثُ اللَّوْنِ.

وَالْخَبْثَةُ: الزَّانِيَةُ مِنَ الْفُجُورِ، وَيُقَالُ: هَذَا وَلَدُ الْخَبْثَةِ وَوَلَدُ الْخَبْثَةِ.
وخبث الحديد وغيره: مِمَّا يَذَابُ بِالنَّارِ، وَهُوَ مَا يَبْقَى مِنْ رَدَائِهِ إِذَا أَخْلَصَ جِيْدَهُ.

ويقولون للرجل: يَا خُبْثُ، وللمرأة: يَا خَبَاثُ.
وهو من أخباث الناس، واحدها أخْبَثُ.
ويقولون للرجل والمرأة: يَا مَخْبَثَانُ، وهو من الخبث والأخابث والخبائث والتخبِثُ.
وغلام خُبَاثِيٌّ برفع الخاء أي خَبِيثٌ.

(١) سورة البقرة ٢٦٧.

(٢) الصحاح في اللغة ١/١٦١.

ويقال: به الأخبثان وهما البحر والسهل.^(١)

والطيب الحسن والجيد والمدوح ، وهو خلاف الخيث ، وتسمى المدينة المنورة طيبة (وطاب الشيء يطيب طيبة وتطيابا. قال علقمة:

يَحْمِلُنْ أترجةً نَضَخَ العبير بها ... كأنَّ تطاياها في الأنف مشمومٌ
وأطابه غيره وطيبه أيضاً. واستطابه: وجده طيباً)^(٢).

والطاب: الطيب والأطاب جمع أطيب وطايه: مازحه .
(طاب الشيء يطيب طيباً، وطيبه الله وأطابه، وما أطيّه وأيطبه، وأطيب به. ومطائب اللحم: أطائبه، الواحد مطاب ومطابة ومطيب.

والطيبات من الكلام: أفضله وأحسنه. والطيب: الحلال. وطاب الضراب: أي حل القتال.

والطيب من الرجال: الخير، والطيبة: الأنثى. والنظيف أيضاً. وأطاب: تزوج حلالاً. والاستطابة: الاستنجاء، وكذلك الإطابة. ويقال للصيد إذا كان لا يرضى بالدون من الصيد: مستطيب؛ لأنه يطلب من الصيد الطيب. وطايوا أنفسهم: أي شاوروها في الخيرات. وأطيت المرأة الطعام: أي أطابته. وذهب منه الأطيان: أي الأكل والنكاح.

والطياب: جمع الطيب. ومدينة الرسول - صلى الله عليه وسلم - تسمى طيبة وطابة. والطاب: الطيب، وقيل: الطيب. والطاب: طائر له أذنان كبيرتان. وسبأ طيبة: صحيح السباء ، وطيبة الطعام: خيرته)^(٣).

(١) العين ٣١٩/١.

(٢) الصحاح في اللغة ٤٣٤/١.

(٣) المحيط في اللغة ٣٣٣/٢.

جذر الكلمة القرآنية

من اصطلاحات اللغة ميزان الصرف في اللغة العربية جذر الكلمة ، وهي الحروف الأصلية التي تتركب منها الكلمة ومشتقاتها ، وقد يطلق عليه المصدر فمثلا كلمات : عالم ، عليم ، علامة ، معلومة ، تعليم ، ونحوها ترجع إلى الجذر (ع ل م) .

وهذا النوع من العلوم تختص به اللغة العربية ، ومن منافع هذه العلم ضبط الكلمات ومعانيها ودلالاتها ومخارجها إذ يشمل الكلمات والأبنية المتعلقة بها من وجوه :

الأول : الفعل المجرد مثل فتح ، وفاذا كان الجذر (ف ت ح) فمن الأفعال المجردة فتح ، يفتح ، فتح ، يُفتح .

الثاني : الفعل المزيد ، فاتح ، يفاتح ، افتتح .

الثالث : الفعل المبني للمعلوم .

الرابع : الفعل المبني للمجهول مثل فُتح ، يُفتح .

الخامس : الفعل المؤكد .

السادس : الفعل غير المؤكد .

وتشمل الوجوه أعلاه كلاً من :

الأول : صيغة الفعل الماضي .

الثاني : صيغة الفعل المضارع .

الثالث : فعل الأمر .

كما يشمل مبحث الجذر المصادر وهي :

الأولى : المصدر الأصلي مثل : حسب ، حساب ، حَسَبَ ، محاسبة ،

محاسبة ، حسبان من الجذر (ح س ب) .

الثاني : المصدر اليمي ، وهو اسم جامد مشتق من لفظ الفعل ،

ويدل على حدث من غير أن يقترن بزمان مخصوص كالماضي ،

والحاضر والمستقبل القريب أو البعيد ، ويتصف بأنه يبدأ بميم زائدة في أوله مثل مسعى .

الثالث : مصدر المرة الذي يدل على الوقوع مرة واحدة مثل ركع ركعة .

الرابع : مصدر الهيئة ، وهو الذي يدل على هيئة الفعل حين وقوعه .

الخامس : المصدر الصناعي بأن يزداد في اللفظ حرفان :
الأول : ياء مشددة .

الثاني : تاء التأنيث مثل الإنسانية ، والحمية في قوله تعالى ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ﴾ ^(١) .

ويشمل مبحث الجذر الأسماء المشتقة مثل :

الأول : اسم الفاعل ، وهو مشتق ويدل على الذي قام أو يقوم بالفعل مثل : ذكر ذاك ، ومثل (محسن) في قوله تعالى ﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ ^(٢) .

ومثل قوله تعالى ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَائِتِينَ وَالْقَائِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ

(١) سورة الفتح ٢٦ .

(٢) سورة لقمان ٢٢ .

وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ
اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿١﴾.

الثاني : اسم المفعول وهو اسم مشتق من حروف الفعل
المتصرف المبني للمجهول كما في قوله تعالى ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ
مَجْنُونٌ﴾ (٢).

الثالث : اسم الزمان .

الرابع : اسم المكان .

الخامس : اسم الآلة .

السادس : مبالغة اسم الفاعل .

السابع : الصفة المشبهة .

الثامن : حال الأفراد .

التاسع : حال التثنية .

العاشر : حال الجمع .

وتشمل كلاً من :

الأول : حال الرفع .

الثاني : حال النصب .

الثالث : حال الجر .

الرابع : التعريف .

الخامس : التنكير .

السادس : الإضافة .

السابع : صيغة التذكير .

(١) سورة الأحزاب ٣٥.

(٢) سورة الدخان ١٤.

الثامن : صيغة التأنيث .

وتبين مباحث الجذر كثرة المفردات المشتقة من ذات الكلمة ، ومن منافع استحضارها وجمعها بخصوص علوم القرآن استنباط المسائل منها ، ومن الإعجاز في نزول القرآن باللغة العربية ، وقراءة الآيات والسور بذات اللغة التي أنزل فيها القرآن ، وهو من الإعجاز في قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيُّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾^(١) لبيان اختصاص اللغة العربية بعلوم تستقرأ منها المسائل والأحكام لذا قال تعالى ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾^(٢).

ولو دار الأمر في الكلمة القرآنية بين عربيته وأصلها العربي وبين عدم وجود جذر لها ، فالأول هو الصحيح ، فمسألة عدم الجذر للكلمة القرآنية على فرضه ليس علة للحكم بأن هذه الكلمة ليست عربية إنما يشملها الإطلاق بقوله تعالى ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾^(٣) هذا بالإضافة لقانون وهو صيرورة الكلمة عربية لورودها في القرآن ، وهو من معاني الآية أعلاه ، نعم إذا ورد دليل على أن أصل كلمة قرآنية مخصوصة غير عربي فيحتمل رجحان أنها كانت في الأصل كلمة عربية وانتقلت إلى لغة أخرى .

(١) سورة النحل ١٠٣.

(٢) سورة الرعد ٣٧.

(٣) سورة الزخرف ٣.

في سياق الآيات

صلة آية البحث بالآيات المجاورة على شعبتين :

الشعبة الأولى : صلة هذه الآية بالآيات المجاورة السابقة ، وفيها وجوه :

الوجه الأول : صلة هذه الآية بالآية التي قبلها ، وهو قوله تعالى ﴿وَلَا

يُحْسِنُ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُنْزِلُ لَهُمْ خَيْرٌ لَّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُنْزِلُ لَهُم لِيُزَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾^(١) ، وفيها مسائل :

المسألة الأولى : ابتدأت آية السياق بحرف الإستئناف الواو في ﴿وَلَا

يُحْسِنُ﴾ والمختار أنها للإستئناف مع العطف^(٢) ، أما آية البحث فلم تبدأ بحرف عطف أو استئناف ، ولكن هذا المعنى ظاهر في الصلة بين آيات القرآن وتضمنت الآية السابقة ذم الذين كفروا ، وإنذارهم ببيان قانون وهو أن النعم التي عندهم استدراج من عند الله سبحانه ، وسبب لزيادة آثامهم لأنهم يسخرونها في غير مرضاة الله ، قال سبحانه ﴿أَفَنُتَّبِعَ رِضْوَانَهُ لَلَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ﴾^(٣) .

فان قلت لماذا يستدرجهم الله عز وجل ألا تركهم على حالهم فهو أقل آثاما ، الجواب لقد جعل الله عز وجل الحياة الدنيا دار النعم تصيب البر والفاجر ، لتكون آية السياق من مصاديق قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٤) من وجوه :

(١) سورة آل عمران ١٧٨.

(٢) أنظر الجزء الرابع والسبعين بعد المائة من هذا السفر ص ٢١.

(٣) سورة آل عمران ١٦٢.

(٤) سورة آل عمران ١٠٧.

الأول : بيان النعم الإلهية على الناس جميعاً ، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾ (١).

الثاني : تجلي قانون وهو أن الكفر ليس مانعاً من مجئ وتوالي النعم ، وقد يتساءل بعض المؤمنين لماذا لا يحجب الله النعم على الذين كفروا ، فجاءت الآية تبكيتاً للذين كفروا ، وجواباً على تساؤل من المؤمنين أو من الذين كفروا أنفسهم ، فيأتي الجواب من عند الله عز وجل بأنه يعلم بكفرهم وفسوقهم ولكنه يمهلهم إلى حين ، ولا بد من الحساب يوم القيامة ، وتعقبت آية البحث لغة الإنذار.

الثالث : تفقه المسلمين في الدين وإرتقاؤهم في المعارف الإلهية .

الرابع : بعث السكينة في نفوس المسلمين بخصوص توالي النعم على أهل الأرض مع الحساب يوم القيامة .

المسألة الثانية : تقدير آية السياق على وجوه :

الأول : يا أيها الرسول لا يحسن الذين كفروا أنما نملّي لهم خير لأنفسهم .

الثاني : يا أيها الذين آمنوا لا يحسن الذين كفروا أنما نملّي لهم خير لأنفسهم .

الثالث : يا أيها الناس لا يحسن الذين كفروا أنما نملّي لهم خير لأنفسهم .

الرابع : يا أيها الذين كفروا لا تحسبوا أنما نملّي لكم خير لأنفسكم إنما نملّي لكم لتزدادوا أثماً ، ولكم عذاب مهين .

ونزل القرآن ، بلغة إياك أعني واسمعي يا جارة ، فجاءت الآية بصيغة الجملة الخبرية ، ولكنها تفيد أمرين :

الأول : توجه الخطاب والبيان للذين آمنوا وهو على شعب :

الأولى : دعوة المسلمين للثبات على الإيمان .

الثانية : بعث المسلمين للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهل تلاوة المسلمين لهذه الآية في الصلاة من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، الجواب نعم ، وهو مناسبة للتفقه في الدين .

ليكون من الإعجاز في تلاوة القرآن في الصلاة إرتقاء المسلمين كل يوم في سلم المعارف ، فهذه الصلاة جامعة يواظب كل مسلم ومسلمة على الدراسة والتدبر فيها إلى يوم المغادرة إلى دار الآخرة لتكون واقية له ووسيلة للعبور على الصراط ، لذا يتلو كل مسلم في الصلاة قوله تعالى ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(١) .

وكان تقدير الآية : اهدنا الصراط المستقيم في الدنيا ليكون نجاة وعبوراً على الصراط المستقيم في الآخرة .

الثالثة : دلالة مفهوم آية السياق على قانون من الإرادة التكوينية وهو أن الله يملئ للمؤمنين ليعملوا الصالحات ، ويكتنزوا الحسنات ، قال تعالى ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾^(٢) (في الحديث القدسي من تقرب إلي شبرا تقربت إليه ذراعا ، ومن تقرب إلى ذراعا تقربت إليه باعا)^(٣) .

الرابعة : دعوة المسلمين للإحتجاج على الذين كفروا ومن غير اللجوء إلى العنف والقوة ، فذات بيان مضمون آية السياق حجة على الذين كفروا .

الثاني : توجه الخطاب إلى الذين كفروا ، وفيه مسائل :

(١) سورة الفاتحة ٦ .

(٢) سورة فصلت ٣٦ .

(٣) البحار ١٩٠/٨٤ .

الأولى : من وظائف القرآن السماوية أنه حجة على الناس ليتجلى فيها قوله تعالى ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾^(١).

الثانية : تأكيد قانون وهو الملازمة بين الكفر والحرام من الخير ، فليس من نفع يجنيه الكفار باختيارهم الجحود والضلالة .

الثالثة : تحذير وتخويف الذين كفروا بان انفاقهم الأموال في المعاصي يجلب لهم الضرر في الدنيا والآخرة ، قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾^(٢).

وفي الآية أعلاه ورد عن سعيد بن جبير قال : نزلت في أبي سفيان بن حرب استأجر يوم أحد ألفين من الأحابيش يقاتل بهم النبي صلى الله عليه وسلم سوى من أشخاص من العرب .

وفيهم يقول كعب بن مالك :
فجينا إلى موج البحر وسطه

أحابيش منهم حاسر ومقنع

وفينا رسول الله نتبع قوله

إذ قال فينا القول لا ينقطع

ثلاثة الألف ونحن نظنه ثلاث

مئين أن كثرن فاربع^(٣).

وقال الحكم : أنفق أبو سفيان على المشركين يوم أحد أربعين أوقية ذهباً^(٤).

(١) سورة الأنعام ١٤٩.

(٢) سورة الأنفال ٣٦.

(٣) الكشف والبيان ٤٦/٦ .

(٤) بحر العلوم للسمرقندي ١٩٥/٢ .

وعن ابن عباس نزلت الآية في المطعمين يوم بدر ، وهم الذين كانوا يطعمون أهل بدر حين خرجوا في طريقهم^(١).

وهؤلاء المطعمون هم :

الأول : أبو جهل ، وهو عمرو بن هشام بن المغيرة ، نحر أول يوم عشرة من الإبل ، وكان لأبي جهل أربعة أخوة وهم الحارث وسلمة والعاص وخالد.

وقد قتل أبو جهل والعاص يوم بدر كافرين ، أما خالد فانه أسر يومئذ ثم فدي ومات كافراً .

وأما سلمة فانه اسلم في مكة وحبسوه وعذب في الله في مكة وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يدعو له كما تقدم في الجزء السابق^(٢) ويذكره في قنوته في الصلاة .

ولم يشهد سلمة معركة بدر واما الحارث فانه اسلم وحسن إسلامه هو الآخر ، ولحق سلمة برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالمدينة بعد معركة الخندق ، وبقي معه وبعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خرج إلى الشام وقتل شهيداً في مرج الصفر.

الثاني : أمية بن خلف نحر في اليوم الثاني تسعاً من الإبل .

الثالث : سهيل بن عمرو أخو بني عامر بن لؤي نحر عشراً .

الرابع : من المطعمين يوم بدر عتبة بن ربيعة ، قتله حمزة بن عبد المطلب يوم بدر.

الخامس : شيبة بن ربيعة ، نحر عشراً ، جرحه عبيدة بن الحارث ودفن عليه الإمام علي عليه السلام.

السادس : منبه ونيه ابنا الحجاج اشتركا بنحر عشر.

(١) بحر العلوم للسمرقندي ١٩٥/٢.

(٢) أنظر الجزء الخامس والثمانين بعد المائة من هذا السفر ص ١١٨.

السابع : العباس بن عبد المطلب ، وقيل أن قريشاً لم تطعم من طعام العباس لعلمها بهواه وميله الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ولم يثبت هذا القول.

وعندما وقع العباس في الأسر أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يدفع فداءه وفداء ابن أخيه عقيل ، وفداء نوفل بن الحرث بن عبد المطلب .
الثامن : حكيم بن حزام ابن أخي خديجة بنت خويلد عاش في الجاهلية ستين سنة ، وأسلم يوم الفتح هو وأولاده عبد الله وخالد ويحيى وهشام ، ولهم صحبة ، مات بالمدينة سنة أربع وخمسين للهجرة ، وكان كريماً (قال مصعب جاء الإسلام ودار الندوة بيد حكيم بن حزام فباعها بعد منه معاوية بمائة درهم .

فقال له ابن الزبير : بعث مكرمة قريش .

فقال حكيم : ذهبت المكارم إلا التقوى ، وكان من المؤلفة قلوبهم ومن حسن إسلامه منهم .

أعتق في الجاهلية مائة رقبة وحمل على مائة بعير ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن أسلم فقال : يا رسول الله أرأيت أشياء كنت أفعلها في الجاهلية أتحنث بها ألّي فيها أجر .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أسلمت على ما سلف لك من خير^(١).

التاسع : أبي بن خلف الجمحي ، وقع في الأسر يوم بدر ، فخرج مع المشركين في معركة أحد فقتل ، و(عن سعيد بن المسيب أن أبي بن خلف الجمحي أسري يوم بدر. فلما افتدي من رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم متوعدا : إن عندي فرسا أعلفها كل يوم فرق ذرة لعلّي أقتلك عليها .

(١) الإستيعاب في معرفة الأصحاب ١٠٧/١ .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بل أنا أقتلك عليها إن شاء الله، فلما كان يوم أحد أقبل أبي بن خلف يركض فرسه تلك حتى دنا من رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فاعترض رجال من المسلمين له ليقتلوه فقال لهم رسول الله، صلى الله عليه وسلم: استأخروا استأخروا، فقام رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بحربة في يده فرمى بها أبي بن خلف فكسرت الحربة ضلعا من أضلاعه .

فرجع إلى أصحابه ثقيلًا فاحتملوه حتى ولوا به وطفقوا يقولون له : لا بأس بك ، فقال لهم أبي: ألم يقل لي : بل أنا أقتلك إن شاء الله .
فانطلق به أصحابه ، فمات ببعض الطريق فدفنوه . قال سعيد بن المسيب : وفيه أنزل الله تبارك وتعالى ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ (١)(٢) .

وفي أوان تهديد أبي بن خلف لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وجوه :

الأول : كان أبي يتوعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو في مكة قبل الهجرة .

الثاني : انما جاء التهديد في المدينة أوان الفداء من الأسر في معركة بدر شفاها .

الثالث : قام أبي بن خلف بعد أن رجع إلى مكة من الأسر بإيصال رسالة تهديد إلى النبي محمد ، فبلغت النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

ولا مانع من تعدد وتكرار التهديد من قبل أبي بن خلف .

العاشر : أبو البختری العاص بن هشام بن الحارث نحر عشرين ، وقتله يوم بدر المجذر بن زياد .

(١) سورة الانفال ١٧ .

(٢) ابن سعد / الطبقات الكبرى ٤٦/٢ .

ولم يطلب المجذر في بداية الأمر قتله لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم نهى عن قتله ولكن أبا البختری اشترط الأمان لزميله جنادة بن مليحة ، قال له المجذر : لا ما نحن بتاركى زميلك ما امرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الا بك وحدك .

قال : لا والله اذن لاموتن انا وهو جميعا لا تحدث عني نساء مكة أني تركت زميلي حرصا على الحياة فقتله^(١).

لقد انتقلت آية البحث لبيان حال المسلمين وكيف أنهم يتعرضون للإبتلاء والإمتحان فتعرف مراتب الإيمان ، ويكشف المنافق والذي في قلبه مرض لبيان أن القرآن يكتفي بدم الذين كفروا وبيان سوء عملهم إنما يذكر حال المسلمين والتميز بين المؤمن والمنافق ، وبين الصالح والمسئ ، وبين البر والفاجر .

ويحتمل حرمان الكفار من الخير من الإملاء لهم وجوهاً :

الأول : ذات الكفر سبب الحرمان من الخير مع توالي النعم ، فالكفر قبيح ذاتاً ، وهو ضار بصاحبه ، ولا يجلب له النفع سواء في الدنيا أو الآخرة.

الثاني : ما يترشح عن الكفر من الضلالة وإرتكاب السيئات والفواحش .

الثالث : محاربة الكفار للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والتنزيل ، ومن الإملاء لقريش أنهم أصحاب تجارة وأموال فسخروها لتجهيز الجيوش لمحاربة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والإرهاب للمؤمنين والناس جميعاً .

فأخبرت آية البحث بأن الإملاء والنعم المتوالية من الله على كفار قريش لن تنفعهم في أنفسهم ، وإنفاقهم لها في محاربة الإسلام لا يجلب لهم إلا الضرر في الدنيا ، والخزي في الآخرة ، وقد يرجو المؤمنون أن يأخذ الله

الذين كفروا بالجوع والفقر والفاقة ، فأخبرت الآية بأن أموالهم سبب لبلائهم .

وفي صبر وجهاد موسى عليه السلام بالدعاء والشكوى إلى الله موعظة ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾^(١) أي أهلك أموالهم وعرضها للتلف .

المسألة الثالثة : لقد تضمنت الآية السابقة ذم الذين كفروا وإدخال الحزن إلى نفوسهم باخبار الآية بأن النعم التي عندهم سبب لزيادة آثامهم لتحضر هذه الآثام يوم القيامة ، وتكون حجة عليهم ، فهم لم ينتفعوا في الدنيا من النعم التي أنعم الله عز وجل عليهم ، ولن يتركوا في الآخرة إنما يحاسبون عليها .

وهل ينزل عليهم العذاب بسبب النعم بذاتها لعمومات قوله تعالى ﴿ثُمَّ لَنَسْأَلَنَّهُ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾^(٢) ، الجواب أعم ، إنما يكون الحساب والعذاب على اتفاق هذه الأموال في معصية الله عز وجل .

المسألة الرابعة : ترى ما هي النسبة بين الخبيث الذي ذكرته هذه الآية وبين الذي كفر الذي ذكرته الآية السابقة ، الجواب هو العموم والخصوص المطلق فالخبيث أعم .

فان قلت القدر المتيقن من المراد من الخبيث هو الذي بين صفوف المسلمين من المنافقين والضلال ، الجواب لا دليل عليه ، ويمكن تقدير الآية : حتى يميز الخبيث والردئ من الطيب من بين عموم الناس وعالم الأفعال .

(١) سورة يونس ٨٨ .

(٢) سورة التكاثر ٨ .

والخبث من الكلي المشكك الذي يكون على مراتب متفاوتة قوة وضعفاً ، وأشد الخبث الكفر ، ويحتمل العذاب الذي أختتمت آية السياق بذكره وجوهاً :

الأول : هو معلول للإملاء والفضل على الذين كفروا وتقدير الآية : إنما نملي لهم ليكون لهم عذاب مهين.

الثاني : تقدير الآية ولهم عذاب مهين لأنهم يزدادون إثماً .

الثالث : يترتب العذاب على الكفر ، وتقدير الآية : الذين كفروا لهم عذاب مهين ، قال تعالى ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾^(١) ، أي أن ذات الكفر يستحق العذاب سواء كان الكافر غنياً أو فقيراً.

ولا تعارض بين هذه الوجوه ، وكلها من مصاديق آية السياق.

المسألة الخامسة : من معاني الجمع بين الآيتين تفضل الله بتوالي النعم على البر والفاجر ، وعلى المؤمن والكافر ، ليكون هذا التوالي من سعة رحمة الله عز وجل ، ومنها عدم وجود برزخ بين الإنسان والنعم ، مثل نعمة الصحة والمال وتوالي الرزق والجاه ، وهذا التوالي من أسباب التمييز بين المؤمن والكافر.

وأخبرت آية البحث عن التمييز بين الطيب والخبث وذكرت الآية السابقة الإملاء للذين كفروا لبيان قانون وهو أن الإنعام على الذين كفروا وإمهالهم وكيفية إنفاقهم بالمعصية سبب لكشف سنخيتهم ، وإصرارهم على الجحود ، قال تعالى في ذم الذين كفروا ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾^(٢).

(١) سورة النساء ٣٧.

(٢) سورة آل عمران ١١٧.

فلا يظن المؤمنون أن الإملاء للذين كفروا نفع لهم ، وإن ظهرت النعم عليهم ، إنما هو لفضحهم وهذا الفضح نعمة عظيمة على المؤمنين لما فيه من تعيين المنافقين والكافرين وأخذ الحائطة منهم ، وتقدير آية السياق على وجوه :

الأول : إنما نملي للذين كفروا لتحذروا منهم.

الثاني : إنما نملي للذين كفروا لبيان عجزهم عن تحقيق غاياتهم الخبيثة ، لذا ذكرت آية البحث التمييز بين الطيب والخبيث.

الثالث : إنما نملي لهم لتحصنوا من شرورهم ، لذا قال تعالى ﴿وَأَعِدُوا

لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَظْلَمُونَ﴾^(١).

فهذا الإعداد ليس للهجوم والغزو ، إنما هو لمنع غزو المشركين للمدينة المنورة ، ولصد هجومهم .

المسألة السادسة : تقدير الجمع بين الآيتين ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا

أَنْتُمْ نُمَلِّئُ لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّئُ لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾^(٢) ، أن الله يذر المؤمنين على ما أنتم عليه ، ليكون من معاني التمييز بين المؤمنين والمنافق والكافر تنمية ملكة الأخوة بين المؤمنين ، ومنعة الإسلام.

والجمع بين الآيتين من مصاديق قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ

وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٣) ، وبيان قانون وهو أن الإملاء والسعة

(١) سورة الأنفال ٦٠.

(٢) سورة آل عمران ١٧٨.

(٣) سورة المنافقون ٨.

للكافر ليست سبباً للزوال والجاه في الدنيا أو في الآخرة ، إنما هي استدراج ، ومادة ومناسبة لكشف السرائر ، وإظهار ما يضره الإنسان في قرارة نفسه ، وقد تجلت هذه الحقيقة في حال كفار قريش إذ اتسعت تجارتهم ، وكثرت أموالهم وصارت قوافلهم تجوب الصحراء طيلة أيام السنة ، ويدل عليه قوله تعالى ﴿لَا يَلَاِفُ قُرَيْشٍ * إِلَّا فِيهِمْ رَحِلَةُ الشَّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾^(١).

المسألة السابعة : لقد تضمنت آية السياق الوعيد للذين كفروا في خطاب عام هو قانون من الإرادة التكوينية يتألف من أمرين :

الأول : إملأ الله عز وجل للذين كفروا .

الثاني : الإملأ للذين كفروا وبال عليهم .

بينما ورد خطاب للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في قوله تعالى ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمُ النَّارُ وَكَيِّنَ الْمَصِيرُ﴾^(٢) ، أي أنهم لم يفوتوا الله سواء كانوا مقيمين في بلدهم أو في سفرهم وتجارتهم أو هجومهم على المدينة ،

ويتوجه الخطاب في الآية أعلاه الى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلا أنه يشمل المسلمين وكل انسان ، لإقامة الحجة على الذين كفروا . ليكون من معانيه صيغة الإنذار والوعيد للذين كفروا ، وتقدير الآية أيضاً على وجوه :

الأول : يا أيها الذين آمنوا لا تحسبن الذين كفروا معجزين في الأرض .

الثاني : يا أهل الكتاب لا تحسبن الذين كفروا معجزين في الأرض .

الثالث : يا أيها الذين كفروا لا تحسبن انكم معجزون الله في الأرض .

(١) سورة قريش ١-٢ .

(٢) سورة النور ٥٧ .

وجاءت آية السياق بصيغة الغائب ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وقرأ حمزة وحده بتاء الخطاب أي (ولا تحسبن) بتاء المخاطبة وكسر السين ويكون حينئذ الخطاب إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم. ليعلم النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمون أن الإملاء من الله للذين كفروا لن ينفعهم ، ومن ضروب الضرر الذي يلحق الكافر بالنعم التي تأتيه من عند الله إمتناعه عن أداء الزكاة ، وإيصال حق الفقراء إلى أهله ، لذا جاءت الآية التالية في ذم حبس الحقوق الشرعية ، والوعيد عليه (عن أبي واقد الليثي قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أوحى إليه أتيناہ فعلمنا ما أوحى إليه .

قال : فجئته ذات يوم فقال : إن الله يقول : إنا أنزلنا المال لإِقام الصلاة وإِيتاء الزكاة ، ولو أن لابن آدم وادياً لأحب أن يكون إليه الثاني ، ولو كان له الثاني لأحب أن يكون إليهما ثالث ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب)^(١).

وهل عدم إخراج الزكاة وإعانة الفقراء من مصاديق قوله تعالى ﴿لِيُزَادُوا إِثْمًا﴾ أم أن القدر المتيقن منه فعل المعاصي ومحاربة النبي والتنزيل ، الجواب هو الأول ويدل عليه ما ورد عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : ما من رجل لا يؤدي زكاة ماله إلا مثل له يوم القيامة شجاعاً أقرع يفر منه وهو يتبعه فيقول : أنا كنزك حتى يطوق في عنقه .

ثم قرأ علينا النبي صلى الله عليه وآله وسلم مصداقه من كتاب الله ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا أَنَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾^{(٢)(٣)}.

(١) الدر المنثور ١/١٩٩.

(٢) سورة آل عمران ١٨٠ .

(٣) الدر المنثور ٤/٣.

وفي قوله تعالى ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا﴾^(١)، ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : ما من ذي رحم يأتي ذا رحمه فيسأله عن فضل ما عنده فيبخل به عليه إلا خرج له يوم القيامة شجاع أقرع من الناس يتلمظ حتى يتوقه^(٢).

وكلما طال عمر الكافر وازداد ماله قامت عليه الحجة لكثرة وتوالي سؤال ذوي الحاجات له ، وتسخيره أمواله في المعصية ، ووردت آية السياق بوصف الكفر ونعت الجحود بلحاظ أن أكبر الكبائر هو الكفر بالله عز وجل .

وعن ابن مسعود قال : ما من نفس برة ولا فاجرة إلا والموت خير لها من الحياة ، إن كان براً فقد قال الله {وما عند الله خير للأبرار} ^(٣) وإن كان فاجراً فقد قال الله { ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً }^{(٤)(٥)}.

المسألة الثامنة : لقد ذكرت آية السياق قانوناً وهو يزداد الذين كفروا إثماً باملاء وإمهال الله عز وجل لهم ، وبتوالي النعم عليهم بمشيئة ورحمة من الله تتغشى الناس جميعاً ، وهل ينتفع المؤمنون في أجيالهم المتعاقبة من إملاء الله للذين كفروا أم أنه ضرر محض.

الجواب هو الأول ، إذ يعود النفع على الذين آمنوا في الدنيا والآخرة ، ليكون حجة على الذين كفروا ودعوة لهم للتوبة والإيمان .

(١) سورة آل عمران ١٨٠.

(٢) المحرر الوجيز ٥٠/٢.

(٣) سورة آل عمران ١٨٩.

(٤) سورة آل عمران ١٧٨.

(٥) الدر المنثور ٢/٣.

وقد أخبرت الآية قبل السابقة عن قانون وهو أن الذين كفروا لن يضرُوا الله شيئاً لتدل الآية بالدلالة التضمنية وبلحاظ آية السياق على مسائل :

الأولى : إملاء الله للذين كفروا لن يضر المؤمنين لتكون آية السياق من البشارات والدلائل على نصر المسلمين في معركة بدر ، ومصاديق قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِدَرٍّ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾^(١).

الثانية : زيادة آثام وذنوب الذين كفروا بسبب تجهيزهم الجيوش لمحاربة النبي صلى الله عليه وآله وسلم والتنزيل .

الثالثة : الإخبار عن قانون من الإرادة التكوينية وهو أن السيادة لأهل الإيمان وإن كان المال والسلاح والجاه عند الذين كفروا ، وقد تجلّى في معركة بدر ونصر المسلمين فيها مع قلة عددهم وعدتهم ، وتأكيّد النبي صلى الله عليه وآله وسلم عليهم أن لا يبدأوا القتال ، وهو الإمام في الميدان في يومئذ .

ولم يكن المسلمون يرغبون بالقتال ، كما يدل عليه قوله تعالى ﴿وَوَدُّونَ أَنْ غَيْرَ ذَاتِ الشُّكَّةِ كُنُوزُكُمْ﴾^(٢) ، أي قافلة أبي سفيان ، ولا تدل المودة التي تذكرها الآية أعلاه على قصدهم الإستيلاء على القافلة ، ولكنها لكثرة أموال واملأك المهاجرين التي استحوذت عليها قريش في مكة ، وقال تعالى ﴿وَيُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَاهُمْ أَمْنَةً وَجَعَلْنَاهُمُ الْوَارِثِينَ﴾^(٣).

(١) سورة آل عمران ١٢٣.

(٢) سورة الأنفال ٧.

(٣) سورة القصص ٥.

الرابعة : ذكرت آية السياق شراء الذين كفروا الجحود والضلالة والفسوق بالإيمان والهدى والصلاح ، لبيان معجزة للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في بلاغة وإعجاز القرآن .
فلا أحد يقدر على أن يصف التلبس بالكفر شراء له ودفع الإيمان عوضاً عنه .

وهل نعت شراء الكفر بالإيمان من مصاديق قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(١) أم أنه إنذار ووعيد على نحو الحصر والتعيين ، كما هو ظاهر الآية .

الجواب هو الأول ، ففي الآية رحمة لبيان قبح ظلم الإنسان لنفسه باختيار الكفر وتفريطه بالإيمان ، قال تعالى ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾^(٢) .

الخامسة : حجب الفرح بالنعم والإملاء عن الذين كفروا ، ليكون من قوانين الإرادة التكوينية أن النعم تصيب البر والفاجر ، ويقوم المؤمن بالشكر لله عز وجل على النعم فيزيدها الله عليه ، قال تعالى ﴿لَنُثَبِّتَنَّ شُكْرَكُمْ لِأَزِيدَنَّكُمْ﴾^(٣) .

أما الكافر فإن الإنذار والوعيد يتوجهان له مقترنين مع هذه النعم ليصير في ضيق وحزن .

السادسة : بيان قانون وهو أن الدنيا دار تدوين الأعمال ، وأن العمل الصالح فيها يتراكم وتتضاعف معه الحسنات ، أما المعصية فإنها تثقل كاهل

(١) سورة آل عمران ١٠٧ .

(٢) سورة النحل ١١٨ .

(٣) سورة ابراهيم ٧ .

صاحبها وتسوقه إلى النار ، قال تعالى ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زَادَنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾^(١) .

ومن تاب عن المعصية ولكن بقي أثرها بسبب اقتداء بعضهم بمعصيته فلا ضير عليه نعم عليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في المقام ، فان قلت ورد عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم قال : من دعا إلى هدي كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة ، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه إلى يوم القيامة ، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً^(٢) .

والجواب هذا في حالة البقاء على المعصية ، أما عند التوبة فانها حرز وواقية من تبعات أوزار الغير ، وترغيب لهم بالتوبة ، ليكون تقدير قوله تعالى ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّوهُمْ﴾^(٣) ، إلا أن يتوبوا فلا يحملون أوزارهم ولا أوزار غيرهم ، وهو من فضل الله في عظيم النفع من التوبة والإخلاص فيها.

السابعة : بقاء فتح باب الإيمان للناس جميعاً إلى يوم القيامة ، وليس بين الإقلاع عن الكفر والدخول في رياض الهدى إلا التوبة والإنابة ، قال تعالى ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾^(٤) .

المسألة التاسعة : قد يقال أن الإملاء للذين كفروا مناسبة لتوبتهم وإنابتهم بينما نعت آية السياق الخير لأنفسهم في هذا الإملاء ، والجواب

(١) سورة النحل ٨٨ .

(٢) تفسير ابن كثير ١٤/٢ .

(٣) سورة النحل ٢٥ .

(٤) سورة النساء ١٧ .

تأتي التوبة في حال الغنى والفقر ، وفي التدبر بالآيات الكونية ، وبمعجزات الأنبياء الحسية ، ومعجزات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم الحسية والعقلية والمراد من الإملاء الذي يضر الذين كفروا هو تسخيرهم له وهم في حال الكفر.

فيطل النهار بفجره الجديد على الكافر وهو متلبس بالجحود وممتنع عن الصلاة ، ويدور عليه الحول وهو لم يلتفت إلى وجوب الزكاة أو أنه يلتفت إليه ولكن يصر على عدم الدفع ، ومع المبادرة الى التوبة يتغير الموضوع ولا يصدق عليه أنه كافر ولا يزداد إثماً ، إنما يكون الإملاء والإمهال نعمة يزداد فيها ثوابه وأجره ، قال تعالى ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾^(١).

المسألة العاشرة : ذكرت آية السياق فضل الله عز وجل على الذين كفروا بقوله تعالى ﴿أَنَّا نُمَلِّئُ لَهُمْ﴾^(٢) وقيل إنما يملئ لهم الله عز وجل للكافر لبغضه له ، ولكن هذا البغض ليس علة تامة لإملاء الله عز وجل للكافر إنما يأتي الخير والنعم من عند الله عز وجل للناس جميعاً ، وتقدير الآية على وجوه :

الأول : إنما نملئ للمؤمنين ليزدادوا ثواباً .

الثاني : إنما نملئ للناس ليهدوا .

الثالث : إنما نملئ للناس جميعاً لأن الدنيا دار الإملاء .

ويكون الإملاء من الله سبحانه للذين آمنوا حجة على الذين كفروا وسبيل هداية وأسوة حسنة ، لأن المؤمنين يسخرون هذا الإملاء والنعم في طاعة الله .

(١) سورة الفرقان ٧٠.

(٢) سورة آل عمران ١٧٨.

بينما يتخذ الكافرون للحرب على الإسلام والنبوة ، قال تعالى ﴿أَفَمَنْ أَتَّبَعَ رِضْوَانُ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَيُسَّكَ الْمَصِيرُ﴾^(١).

وفي قوله تعالى ﴿إِنَّمَا نُنَلِّهِمْ لَهْمٌ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾^(٢) وجوه :

الأول : الإخبار عن توالي النعم على الذين كفروا .

الثاني : تنبيه المسلمين لمسألة وهي بقاء الكفار في حال من القوة وكثرة الأموال إلى حين ، فليس من ملازمة بين أول أيام بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والقضاء على الكفار لذلك كانت الآيات تنزل في مكة ثم في المدينة وتبين حال الكفار وتفضحهم ، وهذا الفضح حاجة للمسلمين والناس جميعاً ، ونوع سبيل لتوبة الذين كفروا ، وحجبهم عن الإصرار على الكفر والتمادي فيه ، وتجهيز الجيوش لقتال النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

وهل أدى هذا البيان والفضح إلى ملاقة الذين كفروا المشقة في جمع الأعوان والأنصار للحرب على النبوة والتنزيل ، الجواب نعم ، كما انه عون ومدد في جذب الناس لدخول الإسلام وإزاحة بعض الحواجز عنه ، قال تعالى ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ* يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٣).

الثالث : دعوة المسلمين للصبر والثبات على الإيمان ، وتحمل الأذى من الذين كفروا تأسيماً بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وصبره على

(١) سورة آل عمران ١٦٢.

(٢) سورة آل عمران ١٧٨.

(٣) سورة المائدة ١٥-١٦.

ما لاقاه من قریش ، و(عن عبد الرحمن بن خالد بن أبی جبل العدواني ، عن أبيه ، أنه أبصر رسول الله صلى الله عليه وسلم في مشرق ثقيف وهو قائم على قوس أو عصی ، حين أتاهم يبتغي عندهم النصر ، فسمعتة يقول : (والسما والطارق^(١)) ، حتى ختمها .

قال : فوعيتها في الجاهلية وأنا مشرك ، ثم قرأتها في الاسلام .
قال : فدعنتي ثقيف فقالوا : ماذا سمعت من هذا الرجل ، فقرأتها عليهم ، فقال من معهم من قریش : نحن أعلم بصاحبنا ، لو كنا نعلم ما يقول حقا لاتبعناه .

وعن طريق عبد الله بن وهب ، أخبرني يونس بن يزيد ، عن ابن شهاب قال : أخبرني عروة بن الزبير ، أن عائشة حدثته أنها قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم أحد ، قال : ما لقيت من قومك كان أشد منه يوم العقبة ، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجيني إلى ما أردت .

فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب ، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أطلتني ، فنظرت فإذا فيها جبريل عليه السلام ، فناداني فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك ، وقد بعث لك ملك الجبال ، لتأمره بما شئت فيهم .

ثم ناداني ملك الجبال فسلم على ثم قال : يا محمد قد بعثنى الله ، إن الله قد سمع قول قومك لك ، وأنا ملك الجبال قد بعثنى إليك ربك لتأمرني ما شئت ، إن شئت تطبق عليهم الاخشبين .

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئا .

وقد ذكر محمد بن اسحاق سماع الجن لقراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك مرجعه من الطائف حين بات بنخلة وصلى بأصحابه الصبح، فاستمع الجن الذين صرفوا إليه قراءته هنالك.

قال ابن إسحاق : وكانوا سبعة نفر، وأنزل الله تعالى فيهم قوله : (وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن)^(١).

ثم دخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مكة مرجعه من الطائف في جوار المطعم بن عدي ، وازداد قومه عليه حنقا وغيظا وجرأة وتكديبا وعنادا^(٢).

الرابع : ندب المسلمين للدفاع عن النبوة والتنزيل ، فمن مصاديق الجمع بين آية البحث والسياق اليقظة والإحتراز والإستعداد للقاء الذين كفروا خاصة وأن الله عز وجل يملئ لهم بالنعم ، قال تعالى ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾^(٣).

ومن مصاديق زيادة إثم الذين كفروا بسبب إملاء الله عز وجل لهم وجوه :

الأول : خروج المشركين إلى بدر بذريعة الذب عن قافلة أبي سفيان .
الثاني : إصرار المشركين على الزحف والتقدم حتى بعد العلم واليقين بسلامة قافلة أبي سفيان وارساله رسالة لهم بأن القافلة صارت في أمان وتتوجه إلى مكة .

(١) سورة الأحقاف ٢٩.

(٢) ابن كثير / السيرة النبوية ١٥٣/٢ .

(٣) سورة الأنفال ٦٠.

الثالث : عزم المشركين على القتال في معركة بدر ، قال تعالى ﴿يَوْمَ التَّقَىٰ أُلْجَعَانُ﴾^(١).

لقد أصبرّ الذين كفروا على القتال يومئذ لما أملاه وأنعم الله عز وجل به عليهم من كثرة العدد والسلاح والعدة .

الرابع : من مصاديق الرحمة في نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم تحقق النصر له ولأصحابه في معركة بدر ليتعظ الناس جميعاً ، ويدركون حقيقة وهي أن الأموال التي عند قريش صارت وبالاً عليهم لأنهم سخروها في معصية الله ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿لِيَزَادُوا إِثْمًا﴾^(٢).

ليكون من معاني ونتائج معركة بدر أمور :

الأول : النصر المبين للمؤمنين ، قال تعالى ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾^(٣).

الثاني : الهزيمة للمشركين في معركة بدر ، وسقوط سبعين قتيلاً منهم ووقوع مثلهم أسرى بيد المسلمين .

الثالث : العز والمنعة للمسلمين ، وتوجههم بالشكر لله عز وجل على نعمة النصر.

الرابع : مجئ الغنائم والأموال للمسلمين وقبضهم لبدل وعوض الأسرى من قريش ، مع أن النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم فك أسير عدد منهم من غير عوض ، كما أمر بإطلاق من يقوم بتعليم عشرة من المسلمين القراءة والكتابة .

(١) سورة الأنفال ٤١ .

(٢) سورة آل عمران ١٧٨ .

(٣) سورة آل عمران ١٢٣ .

وعن قريش بن عامر قال: كان فداء أهل بدر أربعين أوقية أربعين أوقية، فمن لم يكن عنده علم عشرة من المسلمين الكتابة، فكان زيد بن ثابت ممن علم^(١).

الخامس : ترغيب الناس بالإسلام ، وزوال حاجز خوفهم من كفار قريش الذين انكسرت شوكتهم يومئذ وإلى يوم القيامة ، قال تعالى ﴿فَلَا تَخَافُهُمْ﴾^(٢).

فأرادوا رد الاعتبار في معركة أحد ، وانفقوا عليها الأموال الطائلة وتجهزوا واستعدوا لها عاماً كاملاً ، وفيه شاهد على صدق نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، فلم تمر سنتان على هجرة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة حتى تحقق النصر في معركة بدر ، ولم يكن للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه بد من دخولها أي أنهم مكرهون على القتال بسبب عزم وابتداء المشركين في معركة بدر ، ليكون معنى كتابة وفرض القتال في قوله تعالى ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٣).

أي فرض قتال الدفاع وضرورة هذا الدفاع مع علم الله عز وجل بكراهية النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه للقتال لتجلي الحجج والبراهين على صدق نبوته .

لقد سخرت قريش أموال قافلة أبي سفيان لمستلزمات ومقدمات معركة أحد ، وهو من مصاديق الإملاء لهم من عند الله وزيادة آثامهم .

(١) ابن سعد / الطبقات الكبرى ٢٢/٢.

(٢) سورة آل عمران ١٧٥.

(٣) سورة البقرة ٢١٦.

(قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ : ثُمَّ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾^(١) .

يَعْنِي النَّفَرُ الَّذِينَ مَشَوْا إِلَىٰ أَبِي سَفْيَانَ وَإِلَىٰ مَنْ كَانَ لَهُ مَالٌ مِنْ قُرَيْشٍ فِي تِلْكَ التَّجَارَةِ فَسَأَلُوهُمْ أَنْ يَقْوَوْهُمْ بِهَا عَلَىٰ حَرْبِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فَفَعَلُوا .

ثُمَّ قَالَ ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا^(٢) ، لِحَرْبِكَ ﴾ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ^(٣) ، أَيِ مَنْ قُتِلَ مِنْهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ^(٤) .

ويدل الحديث أعلاه على أن رجالاً من قريش أصروا على إعادة الكرة في القتال ، مشوا إلى أبي سفيان وغيره من أصحاب الأموال في قافلته وسألوهم تسخيرها في حربهم على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه .

وهل هذا المشي من الخبيث الذي تذكره آية البحث وقوله تعالى ﴿لِيُمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾^(٥) ، الجواب إنه أشد من الخبيث لأنه كفر صريح ، ومناجاة بالعدوان والفساد وسفك الدماء بغير حق . وأخبرت الآية أعلاه عن قيام المشركين بالإنفاق في المعصية ومحاربة الإيمان ، فيكون هذا الإنفاق وبالاً عليهم ، وهو من أسباب زيادة آثامهم لأنهم يجمعون بين محاربة الإسلام بالإبدان والأموال .

(١) سورة الانفال ٣٦ .

(٢) سورة الانفال ٣٨ .

(٣) سورة الانفال ٣٨ .

(٤) الروض الأنف ١٣١/٣ .

(٥) سورة الانفال ٣٧ .

ومن معاني الجمع بين آية البحث وآية السياق وهي الآية السابقة دعوة المسلمين لأمر :

الأول : الثبات على الإيمان فان أعداءهم في حسرة وخسارة .

الثاني : التنزه عن النفاق لأنه من الخيث الذي تذكره آية البحث ، قال تعالى ﴿بَلِّغْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَصَدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يَضِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾^(١).

الثالث : القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإنذار الذين كفروا ، إذ أن آية السياق مدرسة في الإحتجاج .

المسألة الحادية عشرة : لقد أخبرت آية البحث عن قانون وهو أن الله اختص بعلم الغيب لنفسه ، وهو يعلم السرائر وما تخفي الصدور ، ويعلم حال الناس عند الإبتلاء وحال الضراء ، فلا يعلم الطيب من الخيث على نحو الدقة إلا الله عز وجل .

، ولا يقدر على الفصل والتمييز بينهما إلا الله عز وجل ويأتي في باب الإعجاز الغيري للآية مزيد كلام.

وتدل الآية على الإستثناء بتحقق العلم بما يأتي به الرسل من علوم الشريعة ، وقد جاء النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بأيات القرآن ، وكل آية كنز من علوم الغيب .

وأيهما أكثر علم الغيب الذي استأثر به الله عز وجل لنفسه أم علم الغيب الذي اطلع عليه الملائكة والرسل .

الجواب هو الأول ، وهو من عظيم سلطان وقدرة الله عز وجل ، ويدل عليه معنى الاستثناء بقوله تعالى ﴿وَلَا يَحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ

إِلَّا بِمَا شَاءَ»^(١) لأن المستثنى أقل من المستثنى منه ، وهل علم الغيب جامد وثابت أم أنه في تجدد وزيادة متكررة ، الجواب هو الثاني .

ترى ما هي علوم الغيب في مضامين الآية السابقة ، الجواب من وجوه:
الأول : الإخبار عن حال المشركين .

الثاني : بيان قانون وهو أن الذين كفروا اشتروا الكفر مع أنه قبيح ذاتاً وأثراً ، والأصل في المعاملات أن يعزب الإنسان عن الردئ والقبيح فلا يشتريه وإن كان معروضاً بثمن بخس .

الثالث : شراء الذين كفروا الكفر والجحود بالإيمان مع أن الإقامة عليهم واجب ، ولا يعلم حال الشراء والبيع إلا الله عز وجل .

الرابع : عدم إضرار الذين كفروا بالنبوة والتنزيل ، ومقامات الإيمان في الأرض ، وفيه بشارة عدم هزيمة النبي صلى الله عليه وآله وسلم في المعارك ، قال تعالى ﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى﴾^(٢) .

والمختار أن المشركين لم ينتصروا في معركة أحد ، ولو تنزلنا وقلنا بأنهم انتصروا فيها فانه لا يغير من القانون العام ، وهو هزيمتهم في الخاتمة .
فقد أخزاهم الله في أول معركة مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه وهي معركة بدر ، والتي وقعت في شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة .

ثم انقطعت تلك المعارك بفتح مكة في شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة ، لتكون من بركات شهر رمضان مسائل :

(١) سورة البقرة ٢٥٥ .

(٢) سورة آل عمران ١١١ .

الأولى : ذكر شهر رمضان في القرآن ، فهو الشهر الوحيد الذي ورد اسمه في القرآن ، قال تعالى ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾^(١).

ومن خصائص ذكر شهر رمضان في القرآن ضبط حساب الشهور كلها سواء التي قبله أو التي بعده ، وهو الشهر التاسع من السنة القمرية .
كما جاءت آية قرآنية أخرى بالإخبار عن حصر عدد شهور السنة ،
وأنها اثنا عشر شهراً ، قال تعالى ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾^(٢) ، وتسمى أشهر السنة على وجوه :

الأول : الأشهر القمرية .

الثاني : الأشهر الهجرية .

الثالث : الأشهر العربية .

وهي :

الأول : محرم الحرام ، ويسمى أيضاً الشهر الحرام لحرمة القتال فيه ، وهو أول أول أشهر السنة

الثاني : شهر صفر .

الثالث : شهر ربيع الأول .

الرابع : شهر ربيع الآخر .

الخامس : جمادى الأولى .

السادس : جمادى الآخرة .

السابع : شهر رجب ، وهو أحد الأشهر الأربعة الحرم .

(١) سورة البقرة ١٨٥ .

(٢) سورة التوبة ٣٦ .

الثامن : شهر شعبان .

التاسع : شهر رمضان ، وسمي به لأسباب منها اتفاق وقوعه في أيام الحر والقيض ، وشدة حرارة الرمضاء وهي الرمل ، ولأنه يرمض الذنوب أي يحرقها بالعبادة والعمل الصالح.

العاشر : شهر شوال .

الحادي عشر : شهر ذي القعدة .

الثاني عشر : شهر ذي الحجة .

ليختم المسلمون السنة بمناسك الحج في شهر حرام ، قال تعالى ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَنَزَّ فِيهِ الْحَجُّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِي يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾^(١).

الثانية : كما نزل القرآن في شهر رمضان ، فان فتح مكة للمعتمرين والحجاج المسلمين وإلى يوم القيامة ابتداء في شهر رمضان من السنة الثامنة للهجرة .

وقد أنعم الله عز وجل على المسلمين والناس ببقاء القرآن بسوره وآياته إلى يوم القيامة فإن فتح مكة نعمة باقية إلى يوم القيامة لا يصد المسلمين عن البيت الحرام أحد .

الثالثة : في شهر رمضان انقطعت المعارك والحروب في الجزيرة .

الرابعة : زوال الأصنام وعبادتها في الجزيرة وإلى يوم القيامة ، وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إذا كان أول ليلة من شهر رمضان صفدت الشياطين ومردة الجن ، وغلقت أبواب النار فلم يفتح منها باب ، وفتح أبواب الجنة فلم يغلق منها باب ، وينادي مناد كل ليلة : يا باغي

الخير أقبل ، ويا باغي الشر أقصر . والله عز وجل عتقاء من النار ، وذلك عند كل ليلة^(١).

الخامسة : صيام المسلمين والمسلمات لشهر رمضان من غير نفير لقتال أو مرابطة في الثغور خشية جيش الكافرين .

لقد كان اختيار النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم فتح مكة في شهر رمضان بالوحي وإن كان مجئ وفد خزاعة إلى المدينة واخبارهم عن نقض قريش لعهودها سبباً مباشراً للفتح ، ليكون الفتح من جهة الزمان مباركاً من جهات :

الأولى : قبل حلول شهر رمضان من السنة الثامنة للهجرة ، إذ صار المسلمون مؤهلين للفتح عندما نقضت قريش شروط صلح الحديبية .

وهل كان المسلمون يستعدون لفتح مكة سواء نقضت قريش العهود أو لم تنقضها ، الجواب لا ، لقوله تعالى ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾^(٢).
وقوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾^(٣).

فلا عبرة بقول أهل الحسد والريب في أسباب الفتح ، وكان الفتح مشروعاً عقلاً وشرعاً إذ تمادى الكفار في الغي والتعدي ، مع صبر النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين عليهم ، وعن توليهم لشؤون المسجد الحرام بغير حق ، قال تعالى ﴿ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَائُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾^(٤).

(١) الدر المنثور ١/٣٦٩.

(٢) سورة النحل ٩١.

(٣) سورة المائدة ١.

(٤) سورة الأنفال ٣٤.

ليكون من معاني آية البحث ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾^(١)، أن فتح مكة كاشف عن صدق الإيمان بالتفاني في طاعة الله عز وجل .

الثانية : أثناء أيام شهر رمضان من السنة الثامنة للهجرة ففي اليوم العشرين منه ، إذ دخل النبي صلى الله عليه وآله وسلم مكة ليزيل دولة الكفر بعد أن خرج منها مهاجراً مضطراً ، ففيه ساعة من نهار ، لم تتكرر إلى يوم القيامة .

كما ورد (عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم فتح مكة : إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض والشمس والقمر ، ووضع هذين الأخشين فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي ولا يحل لأحد بعدي ، ولم يحل لي إلا ساعة من نهار فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، لا يختل خلاها ، ولا يعضد شجرها ، ولا ينفر صيدها ، ولا يلتقط لقطتها إلا من عرفها . قال العباس : إلا الإذخر فإنه لقينهم وبيوتهم . فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إلا الإذخر)^(٢) .

الأخشبان : جبلان في مكة :

الأول : جبل أبي قيس المطل على البيت الحرام من جهة الصفا .

الثاني : الجبل المقابل لجبل أبي قيس ويسمى الجبل الأحمر وقال ابن إسحاق : وحدثت أن قريشاً وجدوا في الركن كتاباً بالسريانية فلم يدرؤا

(١) سورة آل عمران ١٧٩ .

(٢) الدر المنثور ١/٢٣٦ .

مَا هُوَ حَتَّىٰ قَرَأَهُ لَهُمْ رَجُلٌ مِّنْ يَهُودٍ فَإِذَا هُوَ أَنَا اللَّهُ ذُو بَكَّةَ خَلَقْتُهَا يَوْمَ خَلَقْتُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ، وَصَوَّرْتُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَحَفَفْتُهَا بِسَبْعَةِ أَمْلَاكٍ حَنْفَاءَ لَا تَزُولُ حَتَّىٰ يَزُولَ أَخْشَبَاهَا ، مُبَارَكٌ لِأَهْلِهَا فِي الْمَاءِ وَاللَّبَنِ^(١).

وليس من سند لهذا الخبر فلا أصل له ، وروي حديث بسند ضعيف عن عطاء قال : كنت آخذا بلبجام دابة عبد الله بن عمرو فقال كيف أنتم إذا هدمتم البيت فلم تدعوا حجرا على حجر قالوا ونحن على الإسلام قال وأنتم على الإسلام قال ثم ماذا قال ثم بينى أحسن ما كان فإذا رأيت مكة قد بعجت كظائم ورأيت البناء يعلو رؤوس الجبال فاعلم أن الأمر قد أظلك^(٢) ، ولم يرفع عبد الله الحديث .

لقد خرج النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في شهر رمضان بعشرة آلاف من الصحابة ليدخل مكة ، وهو يتلو قوله تعالى ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾^(٣).

ليكون دخوله مكة معجزة من وجوه :

الأول : تحقق النصر والفتح .

الثاني : هزيمة وإنكسار المشركين .

الثالث : زوال معالم الكفر عن الجزيرة إلى يوم القيامة .

فلا تنحصر منافع فتح مكة بذات البلدة المقدسة إنما تشمل أرجاء

الجزيرة ، وهو من مصاديق تسميتها أم القرى ، قال تعالى ﴿وَهَذَا كِتَابُ

(١) ابن هشام / السيرة النبوية ١/١٩٥.

(٢) مصنف ابن أبي شيبة ٤٦١/٧ .

(٣) سورة الفتح ١.

أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿١﴾

الرابع : فوز المسلمين بالصلاة اليومية في المسجد الحرام ، وفيها ثواب عظيم ، و(عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : فضل الصلاة في المسجد الحرام على غيره مائة ألف صلاة ، وفي مسجدي ألف صلاة ، وفي مسجد بيت المقدس بخمس مائة صلاة).^(٢)

وعن ابن عباس قال (قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : من أدركه شهر رمضان بمكة فصامه كله وقام منه ما تيسر كتب الله له مائة ألف شهر رمضان بغير مكة ، وكتب له كل يوم حسنة ، وكل ليلة حسنة ، وكل يوم عتق رقبة ، وكل ليلة عتق رقبة ، وكل يوم حملان فرس في سبيل الله ، وله بكل يوم دعوة مستجابة).

وأخرج الأزرقي والطبراني في الأوسط عن جابر بن عبد الله : أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : قال : هذا البيت دعامة الإسلام من خرج يؤم هذا البيت من حاج أو معتمر كان مضموناً على الله أن يقبضه أن يدخله الجنة ، وإن رده أن يردّه بأجر أو غنيمة .

وأخرج البيهقي في الشعب عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : الصلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام ، والجمعة في مسجدي هذا أفضل من ألف جمعة فيما سواه إلا المسجد الحرام ، وشهر رمضان في مسجدي هذا أفضل من ألف شهر رمضان فيما سواه إلا المسجد الحرام)^(٣).

(١) سورة الأنعام ٩٢.

(٢) الدر المنثور ٣٨٦/٢.

(٣) الدر المنثور ٣٨٦/٢.

مما يدل على أن فتح مكة حاجة للمسلمين والمسلمات كل يوم من أيام الحياة الدنيا ، وفتح مكة رحمة بالناس جميعاً فهو سبب للرزق الكريم ، وصرف للآفات الكونية عن الناس ، واستئصال للكفر.

لقد خرج النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه إلى مكة لفتحها وهم صيام ليتحملوا عناء السفر ، ووطأة الجوع والعطش في الصحراء قربة إلى الله ، وليبان خلوصهم من أسباب الطمع وأنهم لا يريدون إلا علو كلمة التوحيد ، وفي التنزيل ﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾^(١).

الثالثة : إفاضة فتح مكة البركة على أهلها والناس جميعاً لما فيه من سيادة الأمن ونبد العصية والتنزه عن مفاهيم الضلالة ، لذا سمي فتح مكة (الفتح الأعظم).

وكان هذا الفتح مناسبة للأمن للمسلمين والذين كفروا أيضاً ، فقد وقف النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم يوم الفتح على باب الكعبة ، فحمد الله وأثنى عليه وأخبر عن قانون من الإرادة التكوينية وهو تحقق النصر بارادة ومشئئة من عند الله عز وجل إذ قال (لا إله إلا الله وحده لا شريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده)^(٢).

ثم توجه إلى أهل مكة وهم يستمعون له وينتظرون بخشية وخوف ما يفعل بهم لشدة إيذائهم له ولأهل بيته وأصحابه .

فقال (يا أهل مكة ، ما ترون أني فاعل بكم ، قالوا : خيراً أخ كريم وابن أخ كريم ، قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء ، فأعتقهم رسول الله صلى الله

(١) سورة التوبة ٤٠.

(٢) الكشف ٣٣٣/٧.

عليه وسلم ، وقد كان الله تعالى أمكنه من رقابهم عنوة ، وكانوا له فيئاً ،
فلذلك سمى أهل مكة الطلقاء ، ثم بايعوه على الإسلام^(١).

ولكن القدر المتيقن من الطلقاء أهلها الذين تحقق فتح مكة وهم لا
زالوا على الكفر ، ولم يدخل الإيمان في قلوبهم ، فلا تشمل هذه التسمية
أهل مكة من التابعين والأجيال اللاحقة.

والزمنخشي أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد الخوارزمي ولد في
قرية زمنخسر في شهر رجب من سنة (٤٦٧) هجرية ودرس في بخارى
وسمرقند ثم رحل إلى بغداد ثم انتقل إلى مكة واشتهر بلقب (جار الله)
ثم رجع إلى خوارزم وتوفي سنة ٥٣٧ هجرية الموافق عام ١١٤٣ ، وهو من
كبار المعتزلة الذين يقولون بخلق القرآن ، وكان حنفياً في الفروع ، وكان
يجاهر في الاعتزال ، فاذا استأذن على أحد يطلب إخباره بأن أبا المقاسم
المعتزلي على الباب ، ويقول بأصول الاعتزال الخمسة وهي :

الأول : التوحيد .

الثاني : العدل :

الثالث : الوعد الوعيد .

الرابع : المنزلة بين المنزلتين ، وهذا الأصل سبب نشأة المعتزلة وهو أن
مرتكب الكبيرة لا يسمى مؤمناً ولا كافراً ، وإذا غادر الدنيا من غير توبة
يخلد في النار .

الخامس : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، قال تعالى ﴿وَتَكُنْ مِنْكُمْ

أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ
الْمُقْلِحُونَ﴾^(٢).

(١) الكشف ٣٣٣/٧.

(٢) سورة آل عمران ١٠٤.

الخامس : من علم الغيب في آية السياق إخبارها عن العذاب الأليم الذي ينتظر الذين كفروا يوم القيامة ، وهو من الرحمة العامة والإنذار الذي جاء به النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إذ يصف القرآن عذاب الآخرة وكأنه حاضر في الواقع ، وتأتي تلاوة المسلمين للقرآن كل يوم لطرد الغفلة عن الناس بخصوص هذا العذاب .

وتصور السنة النبوية العذاب بما يبعث النفرة في النفوس منه .

وعن (نافع ، عن ابن عمر قال : بينا أنا سائر ، بمجنبات بدر ، إذ خرج رجل من حفير ، في عنقه سلسلة ، فناداني : يا عبد الله اسقني . يا عبد الله اسقني ، فلا أدري ، أعرف اسمي أو دعاني بدعاية العرب ، وخرج أسود من ذلك الحفير ، في يده سوط .

فناداني : يا عبد الله ، لا تسقه ، فإنه كافر ، ثم ضربه بالسوط حتى عاد إلى حفرفته ، فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم مسرعاً ، فأخبرته ، فقال لي : أو قد رأيته ؟ قلت : نعم .

قال : ذاك عدو الله أبو جهل بن هشام ، وذاك عذابه إلى يوم القيامة : لم يرو هذا الحديث عن مالك بن مغول إلا عبد الله بن محمد بن المغيرة الكوفي^(١) .

ولا يختص العذاب الأليم الذي تذكره آية السياق بعالم الآخرة بل يشمل عالم القبر والبرزخ (عن أبي هريرة ، قال : مر رسول الله صلى الله عليه وسلم على قبر فوقف ، فقال : إيتوني بجريدتين ، فأتوه بهما ، فجعل إحداهما عند رجليه والأخرى عند رأسه ، فقال : إن هذا كان يعذب في قبره .

فقال بعضهم : ما ينفعه هذا يا نبي الله ؟ قال : يخفف عن عذابه ما دام فيها ندوة^(٢) .

(١) المعجم الأوسط للطبراني ٣٢٦/١٤ .

(٢) الطبري / تهذيب الآثار ٢٨٦/٢ .

لقد جعل الله عز وجل الحياة الدنيا دار امتحان واختبار فاختار الذين كفروا الجحود والغواية والفجور ، لتتقضي أيامهم في الدنيا بينما يبقى عذابهم في الآخرة ، جزاء لهم لما ارتكبوا من الآثام والتي أخبرت آية البحث عن إزديادها باطراد .

المسألة الثانية عشرة : لقد خلق الله عز وجل آدم ليعمر هو وذريته الأرض بالإيمان ومن أجل أن لا يدخل هذا الإيمان شك أو ريبة أقام آدم وحواء مع الملائكة في الجنة برهة من الزمن ، قال تعالى ﴿يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾^(١).

وكلم الله عز وجل آدم قبلاً ووصى الملائكة آدم وحواء بوصايا بخصوص تعاهد سنن التقوى.

ولم يترك الله الأجيال من ذرية آدم وشأنهم إنما بعث لهم الأنبياء والرسل لتثبيت الإيمان في الأرض وأم أركانه الإيمان بالله عز وجل وأنه سبحانه خالق الأكوان والموجودات كلها ، وأن مقاليد الأمور بيده سبحانه ، وكل الأشياء خاضعة له مستجيبة لأمره ، واقام الحجة على الخلائق بوجوب الإيمان به ، وكل جنس منها بحسبه .

وفاز الإنسان باللامتناهي من الحجج مع اتصالها وتجدها ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾^(٢).

الوجه الثاني : صلة آية البحث بالآية قبل السابقة ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يُضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٣) ، وفيها مسائل :

(١) سورة البقرة ٣٥.

(٢) سورة الإسراء ٧٠.

(٣) سورة آل عمران ١٧٧.

المسألة الأولى : ابتدأت آية السياق بصيغة التأكيد بالحرف المشبه بالفعل (إن) وابتدأت آية البحث بالنفي الذي يفيد التأكيد أيضاً ، وهو من إعجاز القرآن في تعدد ضروب البلاغة في الآيات المتجاورة مع إتحاد القصد والمضمون بما يفيد تثبيت القواعد والسنن والأحكام ، إذ تؤكد آية السياق على أمور :

الأول : من وجوه الإبتلاء في الحياة الدنيا لزوم نبذ مفاهيم الكفر مع تجلي قبورها الذاتي.

الثاني : من الناس من يختار الكفر.

الثالث : قانون لا يتم إختيار الكفر إلا بالتفريط بالإيمان ، إذ يدل قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾^(١) ، على أن الأصل في العقائد والمفاهيم هو الإيمان وقد يقال إن أثبات شئ لشيئ لا يدل على نفيه عن غيره ، فيحتمل وجود فريق من الناس يختار الكفر من غير التفريط بالإيمان ، الجواب لا دليل عليه جاءت آية البحث بنفي هذا الأمر وعلى نحو العموم إذ تبين أن الأصل في خلق الإنسان ملازمة الإيمان له ، ولا يختار الكفر إلا بدفع الإيمان ثمناً له.

ومن إعجاز نظم القرآن وقانون اتحاد معاني اللفظ وان ورد في أكثر من موضع من القرآن ورود لفظ (اشترؤا) سبع مرات في القرآن بذات المعنى الذي ورد فيه في آية السياق ، أربعة منها في سورة البقرة وحدها وهي :

الأولى : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَاةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبَحَتِ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾^(٢).

(١) أنظر الجزء السبعين بعد المائة الذي جاء خاصاً بتفسير الآية أعلاه.

(٢) سورة آل عمران ١٧٧ .

(٣) سورة البقرة ١٦.

الثانية : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ

يُنصَرُونَ﴾^(١).

الثالثة : ﴿بُسْمًا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَعِيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾^(٢).

الرابعة : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالََةَ بِالْهَدَىٰ وَالْعَذَابُ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾^(٣).

وتتضمن الآية أعلاه مسألة أخرى وهي شراء الذين كفروا العذاب يوم القيامة بالمغفرة والعفو لبيان قانون وهو أن الأصل يوم القيامة هو العفو والمغفرة ولكن الذين كفروا حرموا أنفسهم من هذه النعمة العظيمة. وأخرج أحمد ومسلم والبيهقي في الأسماء والصفات عن سلمان عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : خلق الله يوم خلق السموات والأرض مائة رحمة ، منها رحمة يتراحم بها الخلق وتسع وتسعون ليوم القيامة ، فإذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة

عن سلمان في قوله {كتب على نفسه الرحمة} ^(٤) قال : إنا نجده في التوراة عطيفتين ، أن الله خلق السموات والأرض ثم جعل مائة رحمة قبل أن يخلق الخلق ، ثم خلق الخلق فوضع بينهم واحدة وأمسك عنده تسعاً وتسعين رحمة ، فيها يتراحمون ، وبها يتعاطفون ، وبها يتبذلون ،

(١) سورة البقرة ٨٦.

(٢) سورة البقرة ٩٠.

(٣) سورة البقرة ١٧٥.

(٤) سورة الأنعام ١٢.

وبها يتزاورون ، وبها تحن الناقة ، وبها تنتج البقرة ، وبها تيعر الشاة ، وبها تتابع الطير ، وبها تتابع الحيتان في البحر .
فإذا كان يوم القيامة جمع تلك الرحمة إلى ما عنده ، ورحمته أفضل وأوسع^(١).

وهل نشر هذه الوجوه العظيمة من الرحمة الواسعة يوم القيامة من مصاديق قوله تعالى ﴿إِن يَضُرُّوْا اللّٰهَ شَيْئًا﴾^(٢) ، الجواب نعم فمن فضل الله عز وجل أن جحود الكفار لن يحجب رحمته في الآخرة عن الناس جميعاً . وجاءت ثلاث آيات أخرى في (اشترؤا) في سور القرآن الأخرى غير سورة البقرة :

الأولى : في آية السياق .

الثانية : في قوله تعالى ﴿وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُخْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾^(٣).

الثالثة : ورد في ذم المشركين من قريش وغيرها قوله تعالى ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ

اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٤).

كما ورد لفظ (يشترؤن) خمس مرات في القرآن بذات المعنى ، ثلاثة منها في سورة آل عمران احداها تجمع بين لفظ اشترؤا ويشترؤن وهي الآية أعلاه من سورة آل عمران ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللّٰهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْمُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُخْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾^(٥).

(١) الدر المنثور ٣٦/٤ .

(٢) سورة آل عمران ١٧٦ .

(٣) سورة آل عمران ١٨٧ .

(٤) سورة التوبة ٩ .

(٥) سورة آل عمران ١٨٧ .

وهل الكفر الذين تذكره آية السياق من الثمن القليل الذي تذكره الآية أعلاه ، الجواب لا ، فالكفر بلاء شديد وليس ثمناً إنما المراد من الثمن في الآية غير الكفر ، وهو العوض والنفع الحال من زينة الدنيا ، الذي يكون وبالأعلى أصحابه لبيان أن الكفار يشترون الكفر ، ويشترون ما يترشح عن الكفر .

فلذا ذكرت الآيات شراءهم الضلالة ، وفي ذم الكفار والمشركون قال تعالى ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبَحَتِ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾^(١).

المسألة الثانية : من معاني الشراء أمور تتعلق بالعين المشتراة :

الأول : ميل نفس الإنسان لما يسعى لشرائه .

الثاني : الحاجة للعين المشتراة ، وهذه الحاجة من الكلي المشكك الذي يكون على مراتب متفاوتة ، فقد تكون الحاجة شديدة للمشتري ، وقد تكون ضعيفة وقليلة ، كما تتعدد سخرية الحاجة في المقام وهل الزينة منها الجواب نعم ، قال تعالى ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾^(٢).

الثالث : دفع العوض للعين المشتراة .

الرابع : احتمال حصول النية والعزم على بيع العين المشتراة .

الخامس : تلف العين المشتراة.

السادس : استغناء الإنسان عن العين التي اشتراها.

(١) سورة البقرة ١٦.

(٢) سورة الأعراف ٣١.

السابع : مفارقة الإنسان بالموت لما اشتراه واكتسبه ، أما شراء الكفر فهو أمر خلاف قواعد الشراء لبطلانه وقبحه من الأصل ، ولا يجلب لصاحبه الا الشر والوبال في النشاطين .

وفي آية السياق وذكر الشراء في المقام تحذير وإنذار من بذل الأموال في مقدمات الكفر ، وأسباب الضلالة والفسوق واللهو ، ليكون من معاني آية البحث بيان فضل الله على المسلمين والناس في عزل وفصل الخبيث والردئ كي يتجنبه المسلمون ، ويحذرون منه ، ولا يسعون إليه ، أو ينفقون الأموال فيه .

وقد يخشى المؤمن من الكافر في المقام فجاءت آية السياق والبحث لمنعه من التفريط بسنن التوحيد ، و(عن محمود بن عمير بن سعد أنه قال ان عتبان بن مالك أصيب بصره في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأرسل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إنني لا أستطيع أن أصلي معك في مسجدك وإنني أحب أن تصلي معي في مسجدي فأتتم بصلاتك فاتاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فذكروا مالك بن الدخشم قالوا ذلك كهف المنافقين أو قال أهل النفاق وملجؤهم الذي يلجؤون إليه ومقلهم فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أليس يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله قالوا بلى ولا خير في شهادته قال لا يشهدا عبد صادقا من قبل قلبه فيموت إلا حرم على النار (١٠٩٤٣) أخبرنا عبيد بن آدم بن أبي إياس قال حدثنا أبي قال حدثنا شيبان عن قتادة عن أنس قال ذكر أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم مالك بن الدخشم عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فوقعوا فيه وشتموه فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دعوا لي أصحابي فقالوا يا رسول الله إنه كهف المنافقين وملجؤهم الذي يلجؤون إليه فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أليس يشهد أن لا إله إلا الله وإنني رسول الله قالوا بلى ولا خير في شهادته

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا يشهد بها عبد صادقاً من قلبه ثم يموت على ذلك إلا حرمه الله^(١).

وفيه زجر عن رمي طوائف المسلمين بالنفاق لاختلاف في الإجتهد والرأي.

ترى ما هي حال الذي كفروا بخصوص شرائعهم الكفر ، الجواب على وجوه :

الأول : إدراك الإنسان التوبة والإنابة والتخلص من الكفر والجحود ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : الله أشد فرحاً بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته في المكان الذي يخاف أن يقتله فيه العطش^(٢).

وعن عبد الرحمن البيلماني قال : اجتمع أربعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال أحدهم : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : إن الله يقبلُ توبةَ العبدِ قبل أن يموتَ يومٌ". فقال الآخر : أنتَ سمعتَ هذا من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، قال : نعم.

قال : وأنا سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : إن الله يقبلُ توبةَ العبدِ قبل أن يموتَ بنصفِ يوم .

فقال الثالث : أنتَ سمعتَ هذا من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، قال : نعم.

قال : وأنا سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : إن الله يقبلُ توبةَ العبدِ قبل أن يموتَ بضخو .

قال الرابع : أنتَ سمعتَ هذا من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، قال : نعم. قال وأنا سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : إن الله تعالى يقبلُ توبةَ العبدِ ما لم يُغرغر بنفسه^(٣).

(١) السنن الكبرى للنسائي ٢٧١/٦.

(٢) الدر المنثور ٨٦/٩.

الثاني : إصرار الكافر على كفره إلى حين وفاته ، وأخبرت الآية عن عدم إضراره بالله والمؤمنين ، فهو لا يضر إلا نفسه ، قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾^(٢).

الثالث : ديب النفاق الى نفس الكافر ، فقد يظهر الإسلام ولكنه يبقى يضر الكفر في باطنه .

الرابع : تخلص الكافر عن كفره على نحو التدرج .

وهل يصح القول بوجه آخر وهو اعتزال الإنسان مستتق الكفر ومقامات الإيمان ليكون في حال برزخ بين الأمرين ، الجواب لا ، فمن معاني الإبتلاء والإمتحان في الدنيا أمور :

الأول : الأصل الإيمان .

الثاني : وجوب البقاء على الإيمان.

الثالث : لا يأتي التلبس بالكفر إلا بالشراء ، ويتصف هذا الشراء بالتفريط بالعزیز والتمين والنافع ودفعه ثمناً وعوضاً للضلالة والضرر.

الرابع : تجدد الدعوة من الله للعبد بالتوبة في كل ساعة من ساعات العمر وإلى أن تفارق الروح الجسد .

المسألة الثالثة : قد ذكرت آية السياق الذين كفروا من وجوه :

الأول : شراء الكفر وانفاق العوض في طلبه مع أنه قبيح ذاتاً وأثراً.

الثاني : جعل الإيمان هو العوض والبدل للكفر.

الثالث : عجز الكفار عن الإضرار بالله والنبوة والتنزيل ، قال تعالى ﴿لَنْ يَضُرَّكُمْ إِلَّا أَذًى﴾^(٣).

(١) تفسير ابن كثير ٢/٢٣٧.

(٢) سورة البقرة ١٦١.

(٣) سورة آل عمران ١١١.

الرابع : الوعيد للذين كفروا بأن لهم عذاب أليم ، وذكرت آية البحث قانوناً من فضل الله وهو التمييز والفصل بين المؤمنين والمنافقين .
ويحتمل هذا العذاب في أوانه وجوهاً :

الأول : إرادة العذاب الأليم في الآخرة ، وفي مواطن الحساب ثم الجزاء ، وتقدير خاتمة آية السياق : ولهم عذاب أليم يوم القيامة .

الثاني : المراد العذاب في عالم البرزخ ، فصحيح أن الحساب فيه ابتدائي إلا أنه شديد وأليم على الذين كفروا سواء في وقعه على الروح أو الجسد .

وتقدير الآية : ولهم عذاب أليم في عالم القبر ، ويوم القيامة .
قال تعالى في ذم المنافقين من الأعراب ﴿ وَمَنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمَنْ أَهْلُ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوا عَلَىٰ النَّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾^(١) .

وذكر أن العذاب الأول في الدنيا ، والعذاب الثاني في القبر ، ثم يردون إلى عذاب جهنم ، وفي آل فرعون وعذابهم في البرزخ ورد قوله تعالى ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾^(٢) ، إذ تدل الآية أعلاه على عذابهم بعرضهم على النار أول وآخر النهار وهم في القبور ، مع فناء أجسادهم ، ثم يدخلهم الله يوم القيامة النار .

(١) سورة التوبة ١٠١.

(٢) سورة غافر ٤٦.

وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : إذا فرغ أحدكم من التشهد الآخر ، فليتعوذ بالله من أربع : من عذاب جهنم ، ومن عذاب القبر ، ومن فتنة المحيا والممات ، ومن شر المسيح الدجال^(١).

الثالث : وقوع عذاب عاجل على الذين كفروا في الدنيا لأنهم اشتروا الكفر ودفعوا عوضه ما هو ضرورة وحاجة لهم في النشاطين .

ولا تعارض بين هذه الوجوه لأصالة الإطلاق التي تدل عليها خاتمة الآية نعم يتصف عذاب الآخرة بأنه شديد وأليم ، لذا أختتمت الآية السابقة بالإخبار عن وصف العذاب بأنه مهين ، بينما وصفته آية السياق بأنه أليم ليكون عذاب الآخرة جامعاً لهما ، إذ أخبرت الآية السابقة بأن الله عز وجل يملئ للذين كفروا وتترى عليهم النعم ، ويظهر عليهم فضل الله عز وجل ولكنهم أيضاً يألون لإختيارهم الكفر، وشرائهم له ، أما في الآخرة فيتغشاهم العذاب المحض وليس من إملاء لهم.

المسألة الرابعة : لقد ذكرت آية البحث التمييز والفصل بين المؤمنين من جهة وبين المنافقين والكفار من جهة أخرى ، وهذا التمييز من الشواهد على ما جاء في آية السياق ﴿لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾^(٢).

ومن إعجاز آية السياق مجيؤها بصيغة الجمع ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لبيان قانون وهو حتى لو اجتمع الذين كفروا في مسالك الضلالة ، ومحاربة النبوة والتنزيل فإنهم لن يضرروا النبوة والتنزيل وأهل الإيمان .

فان قلت قد سقط أربعة عشر شهيداً في معركة بدر وسبعون آخرون في معركة أحد ، بينما قالت آية السياق ﴿لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾^(٣) والجواب من جهات :

(١) صحيح ابن حبان ٤٢٢/٨.

(٢) سورة آل عمران ١١١.

(٣) سورة آل عمران ١١١.

الأولى : ذكرت آية السياق قانوناً وهو عدم إضرار الذين كفروا بالله عز وجل ولم تقل لن يضروا المؤمنين .

ولا يعني هذا أنهم يضرون المؤمنين ، ولكن لمنع إثارة المنافقين الريب وبث السموم والأقاويل عند الفتنة ومقدماتها، كما ورد في غزو المشركين للمدينة في معركة الخندق وحصارهم لها .

(قال ابن إسحاق: فأقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مرابطاً، وأقام المشركون يحاصرونه بضعا وعشرين ليلة قريبا من شهر، ولم يكن بينهم حرب إلا الرما بالنبل.)^(١).

الثانية : بيان قانون وهو أن الشهادة ليست ضرراً للمؤمن إنما هي انتقال إلى عالم السعادة ، والخلود في النعيم ، فنزل في خصوص شهداء بدر وأحد قوله تعالى ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءُ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾^(٢).

الثالثة : إقامة الحجة على الذين كفروا بتعديهم وظلمهم وإصرارهم على القتال ، فان قيل سلمنا بأن المشركين هم الغزاة في معركة أحد لأنهم زحفوا نحو أربعمئة وخمسين كيلو متراً حتى أطلوا على المدينة وصاروا على مشارفها بخيلهم وخيلائهم وجعجة سلاحهم ، وسلمنا أنهم هم الغزاة في معركة الخندق ، إذ جاء عشرة آلاف من كفار قريش وحلفائهم فاحاطوا بالمدينة ، فهل كانوا هم الغزاة في معركة بدر مع أن موضعها يبعد عن المدينة نحو مائة وخمسين كيلو متراً .

الجواب نعم من جهات :

الأولى : خروج الذين كفروا من مكة بنفير عام .

(١) السيرة لابن كثير ٢٠١/٣.

(٢) سورة البقرة ١٥٤.

الثانية : عدم تحقق سبب هذا النفي إذ كانت الدعوى تعرض النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه لقافلة أبي سفيان القادمة من الشام ، ولم يثبت هذا التعرض ولم يقع اصلاً وفق القراءة التاريخية والوقائع والأخبار .

الثالثة : سلامة ونجاة قافلة أبي سفيان ولو شاء النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم التعرض لها ، لما استطاع أبو سفيان النجاة لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا ينتقل من مكان إلى آخر إلا بالوحي سواء من جهة الموضع أو بلحاظ زمان الانتقال ، ليكون من عمومات قوله تعالى ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾^(١).

فمن الإيحاء للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في المقام الخروج من المدينة بعد إجتياز موضع الالتقاء مع قافلة أبي سفيان خاصة مع قلة الرجال الذين مع القافلة إذ كان عددهم ثلاثين أو أربعين رجلاً من قريش منهم مخزومة بن نوفل وعمر بن العاص^(٢) ، وقيد (من قريش) أعلاه أي عدا العبيد والأجراء ، وأكثر هؤلاء الأجراء لا يقاتلون إذا تعرضت القافلة للسلب .

أي أن الله عز وجل أراد القافلة أبي سفيان النجاة والسلامة وعدم التعرض لها ، وإن كانت رغبة طائفة من أصحاب النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم الإستيلاء عليها ، قال تعالى ﴿وَتَوَدُّونَ أَنْ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَ تَكُونَ لَكُمْ﴾^(٣).

(١) سورة النجم ٣-٤.

(٢) عيون الأثر ١/٣٢١.

(٣) سورة الأنفال ٧.

الرابعة : وصول رسالة من أبي سفيان إلى قادة جيش المشركين وتتضمن أموراً :

الأول : الإخبار عن نجاة القافلة .

الثاني : وصول القافلة إلى مشارف مكة ، وكانت مؤلفة من ألف بعير محملة بالذهب والفضة والمؤن ، وليس من بيت من قريش إلا وله حصة ومال فيها ، فالأصل أن تفرح قريش بهذا الإخبار ، ويعودون إلى مكة ، فيبيعون ويشتررون بالعودة والرجوع ، ولكنهم أصروا على المضي حتى موضع بدر والإقامة فيه ثلاثة أيام .

الثالث : طلب أبو سفيان من جيش قريش الرجوع إلى مكة لإنشاء سبب الخروج بعد تحقق نجاة قافلته (قال ابن اسحق ولما رأى أبو سفيان بن حرب انه قد احرز غيره ارسل إلى قريش انكم انما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم واموالكم وقد نجاها الله فارجعوا فقال أبو جهل بن هشام والله لا نرجع حتى نرد بدرًا).

وكان بدر موسماً من مواسم العرب يجتمع لهم به سوق كل عام فنقيم عليه ثلاثاً فننحر الجزور ونطعم الطعام ونسقى الخمر وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا أبداً فامضوا.

وقال الاخنس بن شريق وكان حليفاً لبني زهرة يا بني زهرة قد نجى الله اموالكم وخلص لكم صاحبكم مخزومة بن نوفل وانما نفرتم لتمنعوه وماله فاجعلوا بي جنبها وارجعوا فانه لا حاجة لكم بأن تخرجوا في غير ضيعة لا ما يقول هذا^(١).

لقد امتنع المشركون عن الرجوع إلى مكة بأمان وسلامة من القتال ، مع تنعم بالمال وأرباح قافلة أبي سفيان فابتلوا بالهزيمة والخسارة يوم معركة بدر بدلالة قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾^(١) .

ليكون من مصاديق قوله تعالى في آية السياق ﴿لَنْ يَضُرَّوْا اللَّهَ شَيْئًا﴾^(٢) في المقام وجوه :

الأول : لا يجلب إصرار الذين كفروا على القتال إلا الضرر والخسارة لهم .

الثاني : تعطيل تجارات قريش وقوافلها التي تجوب الصحراء بين مكة والشام ، وبين مكة واليمن ذهاباً وإياباً .

الثالث : كفر المشركين بالنعم وعودة القافلة سالمة ، فبعد أن جاء النذير من قبل أبي سفيان وهو ضمضم بن عمرو الغفاري^(٣) ، يستصرخهم لإنقاذ القافلة ثبت لهم سلامة القافلة فعزموا على القتال ليعودوا وقد أصيبوا من وجوه :

الأول : فقدان سبعين قتيلاً من قريش .

الثاني : سقوط بعض رؤساء قريش في معركة بدر مثل أبي جهل وأمية ابن خلف .

الثالث : ترك كفار قريش سبعين أسيراً بيد المسلمين .

الرابع : عجز قريش عن حمل أثقالهم ومؤنهم إلى مكة لأنهم كانوا في معرض الفرار والطلب ، ومن عادة الذي يفر يلقي أثقاله ليسهل عليه

(١) سورة آل عمران ١٢٣ .

(٢) سورة آل عمران ١٦٧ .

(٣) أنظر السيرة النبوية لابن كثير ٣٨١/٢ .

الفرار ، وهو من مصاديق خزي قريش يوم بدر ، ومفهوم قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِدَرٍّ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾^{(١)(٢)}.

الخامس : فقد المشركون الجاه والصيت الذي كان عندهم في مكة والقبائل إذ لحق الذين كفروا الذل بعد هزيمتهم في معركة بدر خاصة وأنهم المعتدون ، وهذا الذل الذي لحقهم من أسباب انشغالهم عن المؤمنين ، ومن مصاديق قوله تعالى ﴿إِنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾^(٣).

وهل يمكن القول ان الذل كان ملحقاً بالمؤمنين فصار في معركة بدر ملحقاً بالذين كفروا ، وتقدير الآية (ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة) ذلة فصار المشركون هم الأذلة ، الجواب نعم ، وان كان هناك نوع تباين في صبغة الذل في المقام ، فذل المؤمنين الذي صرفه الله الضعف والقلّة ، وليس من رجحان للذين كفروا وسقطت هيبتهم عند العرب بعد معركة بدر.

المسألة الخامسة : لقد ذكرت آية السياق الإيمان بأن جعله الذين كفروا عوضاً وثمناً للكفر ، ولا يدل هذا على ذهاب الإيمان عنهم أو عن غيرهم ، فمن أسرار قوله تعالى ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(٤) بقاء مفاهيم وأصل الإيمان عند كل إنسان ذكراً أو أنثى ، وتذكير الآيات الكونية والتنزيل كل يوم به ، وهو سبيل التوبة والإنابة بدليل أن الإيمان كعوض عن الكفر لا يدفع إلى جهة أو قوم ، فأين ذهب هذا الثمن وهو الإيمان فيه وجوه :

(١) سورة آل عمران ١٢٣.

(٢) كتبت هذه الصفحات في عيادة طب الأسنان أثناء دقائق التخدير للعلاج بتاريخ ٢٠١٩/٤/١٣ وعلى كرسي الإنسان في النجف .

(٣) سورة آل عمران ١١١.

(٤) سورة البقرة ٣٠.

الأول : إنصراف الإيمان عن الكافر لإعراضه عنه وجعله عوضاً ، وهو من الشواهد على ظلم الكافر لنفسه .

الثاني : بقاء الإيمان في قرارة نفس الإنسان ، وهذا البقاء من مصاديق قوله تعالى ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ﴾^(١) .

الثالث : صيرورة الإيمان قريباً من الإنسان الذي اختار الكفر . والمختار هو الثاني والثالث أعلاه ، فمن إعجاز آية السياق أن الكافر لم يدفع الإيمان لغيره كثمن وعوض عن الكفر ، ولو أراد الكافر أن يدفعه لغيره لا يستطيع ، كما أن الغير لا يقدر على استلام الإيمان لأنه أصل مصاحب للنفس الإنسانية ، إنما المراد تخلي الكافر عن الإيمان ، وإنصرافه عن مقاماته ، واختياره مستنقع الكفر .

وجاءت آية البحث لتذكر الناس جميعاً بالإيمان وأنه هبة الله عز وجل ويجب عليهم أن يقبلوا ويتمسكوا به فانه يقودهم إلى الخلود في الجنان .

المسألة السادسة : ذكرت آية البحث قدرة الله عز وجل على التمييز بين المؤمنين والمنافقين ، وتيسير معرفتهم للناس ليكون من باب الأولوية القطعية فضح الذين كفروا لمن أبدل الإيمان بالكفر والجحود ، فاذا كان المنافق يقف مع المؤمنين خلف النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الصلاة ويستمع إلى خطبته فان الكافر يجهز الجيوش لمحاربتة ، لذا جاء الوعيد الشديد للذين كفروا في آية السياق ، ليكون هذا الوعيد زاجراً لهم عن الهجوم والغزو على المدينة ليتجلى الإعجاز حتى في السور المكية أيضاً لما فيها من الوعيد للكفار والجاحدين بالنبوة ، مع أنه لم يكن يومئذ قتال ، ولم يهاجر النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة بعد ، ومن منافع التخويف والوعيد في السور المكية وجوه :

الأول : دخول طائفة من قريش الإسلام .

الثاني : تدبر الناس في إعجاز القرآن .

الثالث : تناقل الوافدين على مكة للحج والعمرة للسور المكية ، ليكون زاجراً للقبائل عن إعانة كفار قريش .

الرابع : بيان قانون للناس وهو حلاوة الإيمان ولزوم تعاهده .

الخامس : بعث النفرة في قلوب الناس من الكفر ومفاهيمه .

السادس : الإخبار السماوي عن آية في العالمين ، وهي بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم عند ﴿أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾^(١) وفي ذات البلدة التي بعث الله سبحانه فيها إبراهيم عليه السلام .

ومن خصائص هذه الرسالة الإبلاغ عن العذاب الأليم للذين يصرون على الإقامة على الكفر .

وتتصف الآيات والسور المكية بخصائص جليلة وإن كانت ظاهرة أيضاً في الآيات والسور المدنية ، كما في آية البحث وآية السياق ، وتتصف الآيات والسور المكية بتجلي أمور :

الأول : الدعوة السماوية إلى الإيمان ، قال تعالى ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ * نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾^(٢) .

الثاني : وجوب نبذ الكفر ومفاهيم الشرك ، وفي التنزيل ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾^(٣) .

الثالث : بيان قبح عبادة الأوثان وذم الذين يقومون بتقديسها وإتخاذها وسائط إلى الله عز وجل .

(١) سورة آل عمران ٩٦ .

(٢) سورة آل عمران ٢-٤ .

(٣) سورة الحجرات ٧ .

الرابع : بيان إعجاز القرآن وعجز العرب عن الإتيان بمثله ، قال تعالى ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَاتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(١).

وهل في الآية أعلاه التفات وفق الإصطلاح البلاغي بالانتقال من صيغة الغائب ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ الى لغة الخطاب ﴿قُلْ فَاتُوا﴾ الجواب لا ، إنما النسبة بينهما هي العموم والخصوص المطلق ، فلغة الخطاب ﴿قُلْ فَاتُوا﴾ هي الأعم إذ تتوجه إلى الذين نعتوا التنزيل بأنه افتراء إلى أعوانهم وغيرهم من الناس ، وجاء قوله تعالى ﴿قُلْ فَاتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ﴾^(٢) للتحدي وبيان بطلان الافتراء في المقام ، والآية أعلاه من سورة هود ، وهي سورة مكية.

الخامس : الإحتجاج على المشركين وإبطال مغالطتهم ، قال تعالى ﴿وَمَنْ يُبَدِّلْ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾^(٣).

السادس : ذكر أخبار من قصص الأمم السابقة مثل قوم عاد وثمود .

السابع : الوعيد بسوء العاقبة للذين كفروا .

الثامن : التذكير بالبعث والثواب العظيم للمؤمنين ، وخلود الذين كفروا في النار .

المسألة السابعة : تكرر لفظ (ما) في آية البحث والأول أداة نفي ، والثاني اسم موصول ، وكل منهما يفيد التأكيد الموضوعي ، فكأن الأول من عمومات نفي النفي إثبات ، فلا يترك الله عز وجل المؤمنين بحال

(١) سورة يوسف ٣٨.

(٢) سورة هود ١٣.

(٣) سورة البقرة ١٠٨.

الإختلاط التام مع المنافقين ، إنما يتلي الله الناس بما يفصل بينهم ، وقد يأتي الإبتلاء للمنافقين وحدهم ، قال تعالى ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(١).

وعن ابن عباس : لما قتل أصحاب الرجيع قال ناس من المنافقين: يا ويح هؤلاء المفتونين الذين هلكوا هكذا، لاهم أقاموا في أهلهم ولاهم أدوا رسالة صاحبهم.

فأنزل الله فيهم : ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام ، وما بعدها^(٢).

وذكرت آية السياق تلبس الذين كفروا بالكفر وكيف أنهم تخلوا عن الإيمان ، ويحتمل هذا التخلي وجوهاً :

الأول : عن غفلة وجهالة .

الثاني : عن سهو ونسيان .

الثالث : عن عمد وإصرار .

والصحيح هو الثالث لإخبار آية السياق بأنهم باعوا الإيمان وجعلوه ثمناً للكفر ، والأصل وقوع البيع والشراء عن اختيار ورضا ، ومن شرائط التكليف أمور :

الأول : العقل .

الثاني : البلوغ .

الثالث : الإختيار .

(١) سورة النساء ١٤٢.

(٢) ابن كثير / السيرة النبوية ١٣٢/٣.

ليبان قيام الحجة على الذين كفروا ، لذا أخبر الله عز وجل في خاتمة آية السياق بقوله ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

ففيه شاهد على قيامهم بشراء الكفر عن إختيار ورضا ، ومن غير إكراه من سلطان ونحوه .

وجاءت الآية بصيغة الجمع ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ﴾ وفيه مسائل :
الأولى : ورود الآية بلغة التأكيد بالحرف المشبه بالفعل (إن) .

الثانية : جاءت الآية بصيغة الجمع ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ

بِالْإِيمَانِ﴾^(١) ، وفيه وجوه :

الأول : كل كافر اشترى الكفر بالإيمان الذي جعله الله عز وجل أمانة عنده ، وهو من عمومات قوله تعالى ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾^(٢).

الثاني : تعاون الكفار في شراء أحدهم الكفر بالإيمان ، وهو من الحمق والتعدي ، والتعاون في الإثم .

الثالث : قيام الكفار مجتمعين بشراء الكفر .

الرابع : اتباع الكفار بعضهم لبعض في شراء الكفر .

ولا تعارض بين هذه الوجوه ، وهو من أسرار خاتمة الآية بأنهم ينالون ﴿الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ بلحاظ أن هذا العذاب على الكفر الذاتي والغيري والتعاون فيه ، وفي الصد عن الإيمان .

(١) سورة آل عمران ١٧٧.

(٢) سورة الأحزاب ٧٢.

الثالثة : تلبس الذين كفروا بالجحود وخلعهم للباس الإيمان ، وهو من معاني الشراء ، ومع هذا فان الله عز وجل فتح لهم باب التوبة ورغبهم به ، (عن أسامة بن سلمان : أن أبا ذر حدثهم : أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : إن الله يقبل تَوْبَةَ عَبْدِهِ ، أو يغفر لعبده ، ما لم يَقَعِ الحِجَابُ ، قيل : وما وَقُوعُ الحِجَابِ ، قال : أن تَخْرُجَ النَّفْسُ وهي مُشْرِكَةٌ) (١).

الرابعة : الندب لدعوة الذين كفروا للإيمان بالاحتجاج والبرهان ، وآية السياق سلاح في المقام إذ تبين القبح الذاتي للكفر وسوء الفعل باختياره ، وهو ضد الواجب والفرض ، إذ أن الإيمان أصل ثابت عند الإنسان فيولد الإنسان على فطرة الإيمان ، ولكن الذين كفروا باعوا هذا الأصل ، فابتلاهم الله بالعزل والفصل عن المؤمنين بفضح الكفر وكشف التلبس به.

ولم تقل الآية بأن الإيمان هو الذي تركهم لأنهم إختاروا الكفر لبيان قانون من فضل الله وهو عدم مغادرة الإيمان لأحد إلا الذي يجعله عوضاً للكفر ، وفيه حجة في النشاطين ، وفي التنزيل ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٢).

وهل قراءة المسلمين القرآن في الصلاة من هذه الدعوة ، الجواب نعم ، وهو من الآيات في التشريع بالجهر في القراءة في كل من :

الأولى : صلاة الصبح .

الثانية : صلاة المغرب .

الثالثة : صلاة العشاء .

(١) تفسير ابن كثير ٢/٢٣٨.

(٢) سورة الأنعام ١٤٩.

ولا تختص منافع القراءة الجهرية بدعوة الذين كفروا للإيمان ، بل تشمل حث المسلمين على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والتذكير بأن العذاب الأليم عاقبة الكفر والتلبس به ، وهذا التذكير واقية للمسلمين من الإرتداد ، قال تعالى ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(١).

وهل آية البحث من هذا الإحباط ، الجواب نعم ، وكأن فصل وعزل الذين كفروا والمنافقين من العقوبة العاجلة لهم.

الخامسة : مع أن آية السياق جاءت بزم الذين كفروا فانها تتضمن في دلالتها بعث النفرة في نفوس الكفار من مفاهيم الكفر ، وتنبير عن الثمن العظيم الذي دفعوه من أجله مع أنه شر محض ، قال تعالى ﴿رَبِّمَا يُوَذُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾^(٢).

المسألة الثامنة : لا يختص موضوع آية السياق وما فيها من الوعيد بالذين كفروا من قريش ونحوهم أيام النبوة والتنزيل ، إنما هو قانون عام يشمل الأزمنة السابقة والذين حاربوا الأنبياء السابقين ، لذا فمن شرائط الإيمان التصديق بجميع الأنبياء والرسل ، سواء الذين وردت أسماؤهم في القرآن أم الذين لم ترد أسماؤهم فيه ، قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَكَمْ يَفْرِقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أَوْلَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾^(٣).

(١) سورة المائدة ٥.

(٢) سورة الحجر ٢.

(٣) سورة النساء ١٥٢.

وفي حياة كل نبي من الأنبياء السابقين قصص تبين جهاده وصبره على الكفار وإيذاءهم له ، وكان الأنبياء يختارون الهجرة والإعراض عن الذين كفروا.

ليفتح الله عز وجل للأنبياء بالهجرة أبواباً من فضله ، ويهيئ لهم أنصاراً وأعواناً (وفي أخبار إبراهيم الخليل عليه السلام خرج من بابل على حمار له ومعه ابن أخيه لوط يسوق غنماً ويحمل دلواً على عاتقه حتى نزل بانقيا^(١) وكان طولها اثني عشر فرسخاً وكانوا يزلزلون في كل ليلة فلما بات إبراهيم عندهم لم يزلزلوا.

فقال لهم شيخ بات عنده إبراهيم عليه السلام : والله ما دفع عنكم إلا بشيخ بات عندي فإني رأيت كثير الصلاة فجأؤه وعرضوا عليه المقام عندهم وبذلوا له البذول.

فقال إنما خرجت مهاجراً إلى ربي وخرج حتى أتى النجف فلما رآه رجع أدراجه أي من حيث مضى فتباشروا وظنوا أنه رغب فيما بذلوا له فقال لهم لمن تلك الأرض يعني النجف قالوا هي لنا قال فتبيعونها قالوا هي لك فوالله ما تنبت شيئاً .

فقال لا أحبها إلا شراءً فدفع إليهم غنيمات كُن معه بها والغنم يقال لها بالنبطية نقيا فقال أكره أن آخذها بغير ثمن فصنعوا ما صنع أهل بيت المقدس بصاحبهم وهبوا له أرضهم فلما نزلت بها البركة رجعوا عليه.

وذكر إبراهيم عليه السلام أنه يحشر من ولده من ذلك الموضع سبعون ألف شهيد فاليهود تنقل موتاهم إلى هذا المكان لهذا السبب لما رأى عليه السلام غدرهم به تركهم ومضى نحو مكة في قصبة فيها طول وقد ذكرها الأعشى. فقال:

فما نيل مصر إذ تسامى عبابه ... ولا بحر بانقيا إذا راح مفعماً

(١) بانقيا ناحية من نواحي الكوفة ، والمختار أنها قرية من موضع ذي الكفل الحالي.

بأجود منه نائلاً إن بعضهم ... إذا سئل المعروف صد وجمماً
وقال أيضاً:

قد سرتُ ما بين بانقيا إلى عدن . وطال في العجم تكراري وتسياري^(١) .
وهل في هجرة الأنبياء تمييز وفصل بين الطيب والخبيث ، الجواب نعم ،
وهو من الدلائل بان هجرة الأنبياء بالوحي ليكون من معاني آية البحث ،
حتى يميز بين الخبيث من الطيب بالوحي .

ومن الإعجاز في نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم توالي الأحداث
والوقائع بسرعة ، وهل نزول آيات القرآن من هذه الأحداث ، الجواب
نعم .

فكل آية قرآنية تنزل من السماء حدث مستقل يترشح عن أسباب نزول
أو تترشح عنها أمور تتصف بالصلاح والإصلاح ، وعندما احتجت
الملائكة على جعل آدم ﴿فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(٢) أجابهم الله ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا
تَعْلَمُونَ﴾^(٣) .

ومن علم الله عز وجل بخصوص القرآن في المقام أمور إعجازية منها:
الأول : نزول آيات القرآن على نحو التوالي والتدرج .
الثاني : كل آية قرآنية حرب على الفساد .

الثالث : نزول الآية القرآنية وتلاوتها المتكررة من قبل النبي محمد صلى
الله عليه وآله وسلم والمسلمين آلة ووسيلة لدرء الخبث ، وتخليص المسلمين
منه .

الرابع : لما تضمنت آية البحث الأمر من الله عز وجل
بالإيمان بالله ورسوله تفضل الله وأنزل آيات القرآن على نحو

(١) معجم البلدان ١/٢٣٢ .

(٢) سورة البقرة ٣٠ .

(٣) سورة البقرة ٣٠ .

النجوم والتتابع لتكون مناسبة وسبباً للإيمان بالله ورسوله ،
قال تعالى ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ
وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾^(١).

لقد ذكرت آية السياق الذين اشتروا الكفر بالإيمان ، ولا يعلم عدد
الذين نجاهم الله عز وجل بالقرآن وتلاوته إلا الله ، ومن وظائف آية
البحث والسياق أمور :

الأول : حجب الناس عن الميل إلى الكفر .

الثاني : التدبر العام بالقانون الذي تبينه آية السياق وهو أن الكفر لا
يأتي إلا بالشراء ودفع أغلى شئ عند الإنسان وهو الإيمان ، والذي لا يجوز
أن يكون عوضاً وثمناً لغيره لأنه ضرورة ، وأن آية السياق تخبر عن جعل
الكافر للإيمان ثمناً لضده القبيح .

الثالث : إصابة عدد الكفار بالنقص المستمر ، فمع تلاوة آية البحث
والسياق يختار أفراد وطائفة من الناس التوبة ، ليكون من معاني قوله تعالى
﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾^(٢) ،
ولنزول آيات القرآن .

الرابع : تتضمن آية السياق قانوناً وهو عظمة الإيمان ، ولزوم تعاهد
الناس له ، وعدم التفريط بأحكامه وسنته ، فالمقصود بالإيمان الذي فرط به
الذين كفروا أمور :

الأول : الإيمان بالله عز وجل إلهاً واحداً .

الثاني : التصديق بالأنبياء والرسل .

الثالث : الإقرار باليوم الآخر .

الرابع : أداء الفرائض والعبادات .

(١) سورة الاسراء ٨٢ .

(٢) سورة النصر ١-٢ .

الصلة بين خاتمة الآيتين

وفيها مسائل :

الأولى : أختتمت آية السياق بقوله تعالى ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(١) ليكون من الإعجاز فيها أنها لم تكتف ببيان حال الذين كفروا وشرائهم للكفر بالإيمان إنما ذكرت سوء عاقبتهم وما سوف يلقونه من العذاب ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾^(٢) .

بينما أختتمت آية البحث بالبشارة بالثواب والأجر العظيم للمؤمنين للدلالة على أن عالم الآخرة عالم الجزاء وحال الناس فيه متباين ومتضاد كما هو الحال في أعمال الناس وما فيها من التضاد بين الإيمان وعمل الصالحات من جهة وبين الكفر والجحود من جهة أخرى ، ومن مصاديق آية البحث وعزل الخبيث عن الطيبين قوله تعالى ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾^(٣) .

الثانية : بيان قانون وهو أن الدنيا مزرعة الآخرة وفيها أسباب الحرث الطيب وسبل التقريب إلى فعل الصالحات ، ومنها ما لا يحتاج إلى مستلزمات مثل العبادات البدنية والذكر والتسبيح ، وهو من اللطف الإلهي بالناس ، قال تعالى ﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾^(٤) .

الثالثة : وردت خاتمة آية السياق بصيغة الغائب لبيان أن ما فيها من التخويف والوعيد لا يتعلق بالمسلمين إنما يخص الذين كفروا لبعث الطمأنينة في نفوس المؤمنين وجعلهم يؤدون الفرائض والعبادات .

(١) سورة آل عمران ١٧٧.

(٢) سورة الأنعام ١٤٩.

(٣) سورة ص ٢٨.

(٤) سورة الحج ٧٨.

(٤) سورة الذاريات ٥٦.

التي خلقوا من أجلها والتي فيها نفعه في الناشئين ، فبينت آية السياق غنى الله عز وجل عن الناس وأن غاية خلقهم هي معرفتهم له .

الوجه الثالث : صلة آية البحث بقوله تعالى ﴿وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ

يَسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنُيْضِرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ الْأَيُّحَلْ لَهُمْ حَطًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^(١) ، وفيه مسائل :

المسألة الأولى : ابتدأت آية السياق بحرف الإستئناف الواو ، إذ

اختتمت الآية التي قبلها بالخطاب لعموم المسلمين ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِي إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(٢) .

وهل يصح حملها على العطف أيضا ، أم يمنع منها التباين بلغة الخطاب بين أول آية السياق وخاتمة الآية التي قبلها ، الجواب هو الأول ، فمن وجوه تقدير أول آية السياق : ولا يحزنك الذين كفروا).

ليان سلامة المسلمين من الخوف من الذين كفروا ، وعدم الخشية من جيوشهم وأسلحتهم وتهديدهم المستمر ، فبعد أن أختتمت الآية بقوله تعالى ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِي إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(٣) ، توجهت آية السياق بالخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ﴿وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يَسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾^(٤) ، والحزن سنخية أخرى تختلف عن الخوف ، وفيه شاهد على منعة المسلمين ، وتفقههم في الدين ، ومعرفة سوء عاقبة الذين كفروا.

(١) سورة آل عمران ١٧٦.

أنظر الجزء الثامن والستين بعد المائة من هذا التفسير الذي اختص بتفسير هذه الآية .

(٢) سورة آل عمران ١٧٥.

(٣) سورة آل عمران ١٧٥.

(٤) سورة آل عمران ١٧٦.

وليكون من معاني الجمع بين الآيتين ورد خاتمة الآية السابقة بصيغة الجملة الشرطية ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ليدل أول آية السياق على حقيقة وهي أن المسلمين بلغوا مرتبة الإيمان ، وتفضل الله ونهاهم عن الحزن على الذين كفروا .

فان قلت هذا الحزن من مقامات الإيمان فلماذا نهاهم الله عز وجل عنه ، فالمراد من النهي في المقام وجوه :

الأول : إرادة عدم الخشية من الذين كفروا .

الثاني : إخبار المسلمين عن قانون ، وهو عجز الذين كفروا عن الإضرار بهم وإن كانوا يسارعون في الكفر بأقوالهم وأفعالهم .

الثالث : يا أيها الذين آمنوا لا تحزنوا على الذين لم تنفعهم الموعظة .

الرابع : إرادة التذكير بعالم الجزاء في الآخرة وأن الله عز وجل يعاقب الذين كفروا على كفرهم وعلى مسارعتهم في الكفر .

الخامس : لا يحزنك عتو وطغيان الذين كفروا ، قال تعالى ﴿إِنْ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا * لِلطَّاغِينَ مَأْبَأٌ﴾^(١).

السادس : لا يحزنك قيام المشركين بتجهيز الجيوش لمحاربتهم وأصحابك ، إذ يعلم النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه رسول من عند الله ، وقد جاء لقومه بالبينات والدلالات التي تؤكد صدق نبوته .

المسألة الثانية : ابتدأت آية البحث بصيغة الجملة الخبرية ، بينما ابتدأت آية السياق بصيغة الجملة الإنشائية والنهي ، ومن الإعجاز أن كلا منهما قانون ، وإذا كان موضوع آية البحث قانوناً دائماً ومتجدداً إلى يوم القيامة ، فهل قانون ﴿وَلَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾^(٢) دائم أم أنه

(١) سورة النبأ ٢١-٢٢.

(٢) سورة آل عمران ١٧٦.

منقطع بمغادرة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى الرفيق الأعلى ،
المختار هو الأول ، ويكون تقدير الآية على وجوه :

الأول : ولا يحزنك الذين سارعوا في الكفر .

الثاني : ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر .

الثالث : ولا يحزنك الذين سيسارعون في الكفر .

الرابع : ولا يحزنك الذين سوف يسارعون في الكفر .

الخامس : ولا تحزنك اللائي سارعن في الكفر .

السادس : ولا تحزنك اللائي يسارعن في الكفر .

السابع : ولا تحزنك اللائي سيسارعن في الكفر .

الثامن : ولا تحزنك اللائي سوف يسارعن في الكفر .

التاسع : ولا يحزنك الذي يسارع في الكفر .

العاشر : ولا يحزنك الذي سارع في الكفر .

الحادي عشر : ولا يحزنك الذي سيسارع في الكفر .

الثاني عشر : ولا يحزنك الذي سوف يسارع في الكفر .

الثالث عشر : ولا تحزنك التي تسارع في الكفر .

الرابع عشر : ولا تحزنك التي سارعت في الكفر .

الخامس عشر : ولا تحزنك التي ستسارع في الكفر .

السادس عشر : ولا تحزنك التي سوف تسارع في الكفر .

بلحاظ إفادة السين المستقبل القريب ، أما سوف فتفيد المستقبل البعيد ،

نعم مع توالي نزول آيات القرآن وتجلي معجزات النبي محمد صلى الله

عليه وآله وسلم ينحسر الكفر ويقل عدد الذين يسارعون في الكفر ، ولكن

التعدد في تقدير الآية لبيان سعة وكثرة مباني اللفظ القرآني وشموله

لمصاديق الواقع .

ويمكن تقدير الآية بصيغة الجمع المتعدد في الخطاب وهي :

الأول : يا أيها الذين آمنوا لا يحزنكم الذين يسارعون في الكفر .

الثاني : ولا يحزنكم الذين سارعوا في الكفر .
الثالث : ولا يحزنكم الذين سيسارعون في الكفر .
الرابع : ولا يحزنكم الذين سوف يسارعون في الكفر .
الخامس : يا أيها الذين آمنوا لا تحزنكم اللائي يسارعن في الكفر .
السادس : لا تحزنكم اللائي سارعن في الكفر .
السابع : لا تحزنكم اللائي سيسارعن في الكفر .
الثامن : لا تحزنكم اللائي سوف يسارعن في الكفر .
التاسع : لا يحزنكم الذي سارع في الكفر .
العاشر : لا يحزنكم الذي يسارع في الكفر .
الحادي عشر : لا يحزنكم الذي سيسارع في الكفر .
الثاني عشر : لا يحزنكم الذي سوف يسارع في الكفر .
الثالث عشر : لا تحزنكم التي سارعت في الكفر .
الرابع عشر : لا تحزنكم التي تسارع في الكفر .
الخامس عشر : لا تحزنكم التي ستسارع في الكفر .
السادس عشر : لا تحزنكم التي سوف تسارع في الكفر .
وتضاف على هذا التقدير وجوه متكررة أخرى منها ستة عشر وجهاً
بتقدير الخطاب : يا أيها الذي آمن لا يحزنك في ستة عشر وجهاً بتقدير : يا
ايتها اللائي آمن لا يحزنك . وستة عشر وجهاً بتقدير : يا ايتها التي آمنت
لا يحزنك .

وتتجدد مصاديق هذه المسارعة كل يوم من جهات :
الأولى : الإمتناع عن النطق بكلمة التوحيد ، إذ يتوجه الخطاب
بوجوب عبادة الله إلى الناس جميعاً ، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ
الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(١) وفيه فضل من الله بأن

يأمرهم بعبادته ، ويقربهم إلى مقامات هذه العبادة ، وكل مرة يجحد بها الكفار هي من المسارعة في الكفر .

الثانية : التصديق بالرسول ، ومحاسنهم في طاعة الله والعمل بأحكام الشرائع ، قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾ (١).

الثالثة : من خصائص الأنبياء والرسول إقامة الصلاة ، ودعوتهم قومهم لإقامتها ، ليكون الإمتناع عنها وانكارها من المسارعة في الكفر .
ولما جاء وفد ثقيف الى المدينة لدخول الإسلام بعدما رأوا العرب من حولهم دخلوا الإسلام ، وصاروا يخشون منهم ، ضرب لهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم خيمة في ناحية مسجده ، وكان خالد بن سعيد بن العاص يمشي بين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبينهم ، ويأتيهم الطعام من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كل يوم ، ولا يأكلون منه حتى يأكل منه خالد ، وكأنهم يشكون ويخافون على أنفسهم منه إلى أن دخلوا الإسلام وأظهروا خلال المفاوضات استعدادهم لدخول الإسلام ولكنهم ذكروا شروطاً :

الأول : ترك الصنم اللات وعدم هدمه ويسمونها الطاغية لمدة ثلاث سنوات فابى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وصاروا ينقصون سنة سنة ، وشهراً شهراً الى أن سألوه أن تبقى شهراً واحداً حتى يدخل الإسلام في نفوس قومهم وللأمن من (سُفْهَائِهِمْ وَنِسَائِهِمْ وَذُرَارِيهِمْ وَيَكْرَهُونَ أَنْ يُرَوِّعُوا قَوْمَهُمْ بِهَدْمِهَا حَتَّى يَدْخُلَهمُ الْإِسْلَامُ) (٢).

(١) سورة النحل ٣٦.

(٢) زاد المعاد ٤٣٦/٣.

فأبى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهل رفض النبي صلى الله عليه وآله وسلم لهذا الشرط من مصاديق آية البحث ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَيْثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾^(١)، أم أنه ليس منه ، الجواب هو الأول ، لأن رفض النبي لهذا الشرط ثم بالوحي وليكون من علامات الإيمان نزع مفاهيم الشرك والضلالة عن القلب.

الثاني : سألوا اعفاءهم من كسر أوثانهم بأيديهم ، فقبل النبي محمد بهذا الشرط ، وبعث من يقوم بكسرها ، وذكر أنه أرسل معهم أبا سفيان والمغيرة بن شعبة لأن المغيرة من رؤساء ثقيف ، وأراد المغيرة أن يتقدم أبو سفيان فامتنع فقال أبو سفيان : ادخل أنت على قومك ، وأقام أبو سفيان بماله بذئ الهدم فلما دخل المغيرة بن شعبة ، علماها يضربها بالمعول وقام دونه بنو معتب خشية أن يرمى أو يصاب كما أصيب عروة وخرج نساء ثقيف حسرا يكين عليها ، ويقول أبو سفيان - والمغيرة يضربها بالفأس - " واهاً لك واهاً لك " أي كلمة إعجاب بفعله .

فلما هدمها المغيرة وأخذ مالها وحليها ، أرسل إلى أبي سفيان مجموع مالها من الذهب والفضة والجزع^(٢).

الثالث : سأل وفد ثقيف النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم أن يعفيهم من الصلاة ولكنه أجابهم بالقول (وَأَمَّا الصَّلَاةُ فَإِنَّهُ لَا خَيْرَ فِي دِينٍ لِاصَّلَاةِ فِيهِ فَقَالُوا : يَا مُحَمَّدُ فَسَنُؤْتِيكَهَا ، وَإِنْ كَانَتْ دَنَاءَةً)^(٣) ، يقصدون السجود ، وهو من أسمى مصاديق الخضوع والخشوع لله عز وجل وكتب الكتاب بينهم وبين النبي صلى الله عليه وآله وسلم وصاموا مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم ما بقي من شهر رمضان .

(١) سورة آل عمران ١٧٩.

(٢) زاد المعاد ٤٢٦/٣.

(٣) ابن هشام / السيرة النبوية ٥٣٨/٢.

قال ابن إسحاق : وَحَدَّثَنِي عِيسَى بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَطِيَّةَ بْنِ سَفْيَانَ بْنِ رِبِيعَةَ الثَّقَفِيِّ ، عَنْ بَعْضِ وَفْدِهِمْ . قَالَ كَانَ بَلَالٌ يَأْتِينَا حِينَ أَسْلَمْنَا وَصُمْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا بَقِيَ مِنْ رَمَضَانَ بِفَطْرِنَا وَسَحُورِنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَأْتِينَا بِالسَّحُورِ وَإِنَّا لَنَقُولُ إِنَّا لَنَرَى الْفَجَرَ قَدْ طَلَعَ فَيَقُولُ قَدْ تَرَكْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَسَحَّرُ لِتَأْخِيرِ السَّحُورِ وَيَأْتِينَا بِفَطْرِنَا .

وَإِنَّا لَنَقُولُ مَا نَرَى الشَّمْسَ كُلَّهَا ذَهَبَتْ بَعْدُ . فَيَقُولُ مَا جِئْتُمْ حَتَّى أَكُلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ يَضَعُ يَدَهُ فِي الْجَفْنَةِ فَيَلْتَقِمُ مِنْهَا . قَالَ ابْنُ هِشَامٍ : بِفَطُورِنَا وَسَحُورِنَا^(١) .

وكتب لهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم كتاباً وأمر عليهم أحد أعضاء الوفد وهو عثمان بن أبي العاص ، وكان من أحدثهم سناً ، ولكنه من أحرصهم على التفقه في سنن الإسلام ، واجتهد من الأيام الأولى لإسلامه بتعلم القرآن .

وهل اختيار النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لعثمان هذا من مصاديق آية البحث والتمييز بين الطيب والخبيث ، وفصل الخبيث عن الطيب ، الجواب نعم ، وهو من مقدمات هذا التمييز بالحث على التقيد بسنن التقوى ، والإخبار عن قانون وهو التفقه في الدين لدخول الإسلام ملازمة ، ولزوم عدم الإبطاء والتسويق بهذا التفقه ، قال تعالى ﴿وَمَا

كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾^(٢) .

(١) ابن هشام / السيرة النبوية ٥٤٠/٢ .

(٢) سورة التوبة ١٢٢ .

الثالثة : محاربة الأنبياء وعامة المؤمنين لإيمانهم من المسارعة في الكفر ،
ولقد سارع كفار قريش إلى محاربة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم
ودعوته إلى التوحيد من جهات :

الأولى : إعراض قريش عن رسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم
والإمتناع عن اتباعه .

الثانية : صد قريش الناس عن الإسلام .

الثالثة : عندما رأت قريش أن الإمتناع عن قبول دعوة النبي صلى الله
عليه وآله وسلم لم يمنعه من الإستمرار فيها ، مارسوا الضغوط على عمه
أبي طالب لإيقافه عن الدعوة إلى الله .

(وعن عقيل ابن أبي طالب قال : جاءت قريش إلى أبي طالب فقالوا:
إن ابن أخيك هذا قد آذانا في نادينا ومسجدنا فانه عنا)^(١) ، فأمر أبو طالب
ولده عقيل باحضار النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

ونسبوا المسجد إليهم والمراد المسجد الحرام لبيان مسألة وهي أن قريشاً
يحبسون المسجد وكأنه عائد إليهم وأن القبائل تأتي في الحج والعمرة إلى
مسجدهم ، وقول (مسجدنا) أعم من إرادة التولية بينما يقول الله عز
وجل ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾^(٢) وفي آيات أخرى أنه
بيت الله عز وجل والمسجد الحرام ، إذ ورد مرتين في القرآن بلفظ
﴿بَيْتِي﴾ قال تعالى ﴿وَعَهْدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ
لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾^(٣) .

(١) ابن كثير السيرة النبوية ٤٦٣/١.

(٢) سورة آل عمران ٩٦.

(٣) سورة البقرة ١٢٥.

وقال تعالى ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾^(١) فالمسجد الحرام بيت الله قبل أن توجد قريش .

وهل تفضل الله بنسبة البيت الحرام له سبحانه بشارة فتح مكة ومن مصاديق التمييز والفصل بين الطيب والخبيث ، الجواب نعم .

ولم يرد في القرآن لفظ (بيت الله) ولكنه ورد في السنة النبوية (عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا كان يوم القيامة زفت الكعبة البيت الحرام إلى قبري فتقول : السلام عليك يا محمد ، فأقول : وعليك السلام يا بيت الله ما صنع بك أمتي بعدي؟ فتقول : يا محمد من أتاني فأنا أكفيه وأكون له شفيعاً ، ومن لم يأتني فأنت تكفيه وتكون له شفيعاً)^(٢) .

و(سئل علي بن أبي طالب عليه السلام عن الوقوف بالجبل ولم يكن في الحرم ، قال : لأن الكعبة بيت الله والحرم باب الله ، فلما قصدوه وافدين وقفهم بالباب يتضرعون .

قيل : يا أمير المؤمنين فالوقوف بالمشعر؟ قال : لأنه لما أذن لهم بالدخول وقفهم بالحجاب الثاني وهو المزدلفة ، فلما أن طال تضرعهم أذن لهم بتقريب قربانهم بمنى ، فلما أن قضوا نفثهم وقربوا قربانهم فتطهروا بها من الذنوب التي كانت لهم أذن لهم بالوفادة إليه على الطهارة)^(٣) .

وأشتكى رجال قريش من النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بايذائه لهم في ناديهم وفي المسجد الحرام ، مما يدل على أن المراد من النادي أعم فيشمل دار الندوة ومجالس قريش .

(١) سورة الحج ٢٦ .

(٢) الدر المنثور ١/٢٦٣ .

(٣) الدر المنثور ١/٤٥٨ .

ويحتمل المراد من شكوهم هذه وجوه :

الأول : دعوى إيذاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم لقريش وتعارض هذه الدعوى مع قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(١).

الثاني : قيام أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم بإيذاء قريش في إظهارهم الإيمان والتصديق بنبوّة محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

الثالث : مجئ رجال القبائل إلى مكة وانصاتهم للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وسؤالهم لقريش عن أسباب إغراضهم عن نبوته مع معالم الصدق التي تتجلى فيها.

ولا تعارض بين هذه الوجوه ، وكلها من أسباب تأذي الكفار من الحق ، وهل شكاية كفار قريش لأبي طالب من النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من عمومات قوله تعالى ﴿وَلَا يَحْزُنُكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾^(٢) ، الوارد في آية السياق.

الجواب نعم ، فبدل أن تتدبر قريش بمعجزات النبي صلى الله عليه وآله وسلم صاروا يشكون منه ، وهو لم يفعل إلا الحق والصدق وما يوافق الضوابط التي بنى فيها إبراهيم البيت ودعوته الناس لحجه والطواف بالكعبة .

وفي قوله تعالى ﴿وَعَهَدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾^(٣) ، وذكر الطبري وجهين للتطهير الذين تذكره الآية أعلاه وقال (فإن قال قائل : وما معنى قوله : وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين ، وهل كان أيام إبراهيم ، قبل

(١) سورة آل عمران ١٧٧.

(٢) سورة آل عمران ١٧٦.

(٣) سورة البقرة ١٢٥.

أي تعاهد طهارته من الشرك والريب وندس الأوثان ، إذ أن الأمر بالبناء ينجز بتمام البناء كما في قوله تعالى ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(١) ، أما التطهير فهو متصل ومستمر ، ولا يختص بأيام إبراهيم وإسماعيل بل تتوارثه ذريتهما وعامة المؤمنين ، وهو بشارة فتح مكة لأن المشركين نصبوا الأصنام في البيت الحرام ، وتقدير الآية أعلاه على وجوه :

الأول : يا أيها النبي طهر بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود .

الثاني : يا أيها النبي طهر بيتي بازاحة الأصنام عنه .

الثالث : يا أيها الذين آمنوا طهروا بيتي للطائفين والعاكفين والركع

السجود .

الرابع : يا أيها الذين آمنوا تعاهدوا تطهير البيت من دنس الشرك إلى

يوم القيامة .

الخامس : يا أيها الذين آمنوا طهروا بيتي لأنفسكم ومناسككم .

وبعد فتح مكة بعام وفي السنة التاسعة للهجرة أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم الإمام علي عليه السلام نيابة عنه أن ينادي في موسم الحج في مكة (ألا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان)^(٢) .

ترى كيف كانت دعوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم لقريش فيها

وجوه :

الأول : إعلانه النبوة ونزول الوحي عليه .

الثاني : تلاوة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لآيات القرآن ، وما

تتصف به من التخويف والوعيد للذين كفروا ، وهذا الوعيد رحمة

(١) سورة البقرة ١٢٧ .

(٢) تفسير ابن كثير ١٣١/٤ .

بقريش ، قال تعالى ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ (١).

الثالث : قيام النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالصلاة في المسجد الحرام في أوقات الصلاة ، وهو أمر غير مألوف في المسجد ، وفيه دعوة فعلية للإسلام ، وحث للناس للسؤال عن الصلاة وتوجيههم إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم لسؤاله وللإنصات له وهو يتلو القرآن ، وكانت قريش تحذر كبار رجالات القبائل والمدن الذين يفدون إلى مكة من الإستماع إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ولكن بعضهم انصرف إليه طوعاً وانطباعاً وقهراً ، فأدرك الإعجاز في تلاوة القرآن ، ودخول الإسلام مما جعل قريشاً يزدادون غيظاً ، قال تعالى ﴿قُلْ مَوْتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (٢).

الرابع : بيان النبي صلى الله عليه وآله وسلم للقبح الذاتي للأصنام وعبادتها وتأكيد قانون وهو أنها من الشرك والتعدي على المسجد الحرام .

الخامس : ذم النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لقريش لعبادتهم الأصنام وأنهم يؤثمونهم وآباؤهم على هذه العبادة .

(وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن عساكر عن وهب بن منبه قال : لما ولد عيسى عليه السلام أتت الشياطين إبليس فقالوا : أصبحت الأصنام قد نكست رؤوسها فقال : هذا حدث ، مكانكم .

فطار حتى جاب خافقي الأرض فلم يجد شيئاً.

(١) سورة ص ٤.

(٢) سورة آل عمران ١١٩.

ثم جاء البحار فلم يقدر على شيء ، ثم طار أيضاً فوجد عيسى عليه السلام قد ولد عند مذود^(١) حمار ، وإذا الملائكة قد حَفَّتْ حوله .
فرجع إليهم فقال : إن نبياً قد ولد البارحة ما حملت أنثى قط ولا وضعت إلا وأنا بحضرتها إلا هذا . فأيسوا أن تعبد الأصنام بعد هذه الليلة ولكن اتنوا بني آدم من قبل الخفة والعجلة .^(٢)

فان قلت قد عبدت الأصنام من قبل قريش وفي البيت الحرام بعد ولادة عيسى إذ أن الفترة بين عيسى عليه السلام والنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم نحو ستمائة سنة ، والجواب يدل الخبر أعلاه على صيرورة عبادة الأوثان متزلزة وهي آيلة إلى الزوال والإنقراض ، إذ حارب عيسى عليه السلام عبادة الأوثان ثم حاربها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم حتى استوصلت من الأرض .

السادس : الأصل أن النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم لم يؤذ قريشاً ، إنما هو رحمة لهم ولذراريهم .

(عن محمد بن جبيرة بن مطعم ، عن أبيه قال : قال أبو جهل حين قدم مكة منصرفه عن حمزة : يا معشر قريش ، إن محمداً نزل يشرب وأرسل طلائعه ، وإنما يريد أن يصيب منكم شيئاً ، فاحذروا أن تمرؤا طريقه أو تقاربوه ، فإنه كالأسد الضاري ؛ إنه حَنَقَ عليكم ؛ لأنكم نفيتموه نفي القردان عن المناسم^(٣) .

والله إن له لَسِحْرَةً ، ما رأيته قط ولا أحداً من أصحابه إلا رأيت معهم الشيطان ، وإنكم قد عرفتم عداوة ابني قَيْلَةَ ، يعني : الأوس والخزرج - لهو عدو استعان بعدو .

(١) المذود معلف الدابة .

(٢) الدر المنثور ٢/٣١٣ .

(٣) المناسم : جمع منسم وهو للبعير كالظفر عند الإنسان .

فقال له مطعم بن عدي : يا أبا الحكم، والله ما رأيتُ أحداً أصدقَ لساناً، ولا أصدق موعداً، من أخيكم الذي طردتم، وإذا فعلتم الذي فعلتم فكونوا أكف الناس عنه.

قال أبو سفيان بن الحارث: كونوا أشدَّ ما كنتم عليه، إن ابني قيلةٌ إن ظفروا بكم لم يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة، وإن أطعتموني ألجأتموهم خير كناية، أو تخرجوا محمداً من بين ظهرائهم، فيكون وحيداً مطروداً، وأما ابنا قيلة فوالله ما هما وأهل دهلك في المذلة إلا سواء وسأكنفيكم حدهم، وقال:

سَأَمْنَحُ جَانِباً مِنِّي غَلِيظاً ... عَلَى مَا كَانَ مِنْ قُرْبٍ وَبَعْدُ
رَجَالُ الْخَزْرَجِيَّةِ أَهْلُ ذُلٍّ ... إِذَا مَا كَانَ هَزْلٌ بَعْدَ جَدٍّ

فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : والذي نفسي بيده، لأقتلنهم ولأصلبنهم ولأهدينهم وهم كارهون، إني رحمة بعثني الله، ولا يتوفاني حتى يظهر الله دينه، لي خمسة أسماء: أنا محمد، وأحمد، وأنا الماحي الذي يمحي الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب^(١).

وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ابن عم النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ويظهر من كلامه أعلاه أنه من أشهر الناس عداوة له (وكان أخا لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الرضاعة، أرضعتها حليلة بنت أبي ذؤيب السعدية. وأمه غزية بنت قيس بن طريف من ولد فهر بن مالك بن النضر بن كنانة .

قال قوم منهم إبراهيم بن المنذر: اسمه المغيرة. وقال آخرون: بل اسمه كنيته ، وقيل غلبت عليه كنيته ، وله أخ اسمه المغيرة .

ويقال : إن الذين كانوا يشبهون برسول الله صلى الله عليه وسلم جعفر بن أبي طالب والحسن بن علي بن أبي طالب وقثم بن العباس بن

(١) تفسير ابن كثير ٣٨٦/٥.

عبد المطلب وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب والسائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف .
وكان أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب من الشعراء المطبوعين .
وكان سبق له هجاء في رسول الله صلى الله عليه وسلم وإياه عارض حسان بن ثابت بقوله:

ألا أبلغ أبا سفيان عني ... مغلغة فقد برح الخفاء
هجوت محمدا فأجبت عنه ... وعند الله في ذاك الجزاء
والشعر محفوظ ، ثم أسلم فحسن إسلامه فيقال: إنه ما رفع رأسه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حياء منه . وكان إسلامه يوم الفتح قبل دخول رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة لقيه هو وابنه جعفر بن أبي سفيان بالأبواء فأسلما . وقيل: بل لقيه هو وعبد الله بن أبي أمية بين السقيا والعرج فأعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهما فقالت له أم سلمة: لا يكن ابن عمك وأخي ابن عمك أشقى الناس بك .
وقال الإمام علي بن أبي طالب لأبي سفيان بن الحارث . إيت رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبل وجهه ، فقل له ما قال إخوة يوسف ليوسف عليه السلام ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَتَرَكْنَا وَابْنًا كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾ ^(١) . فإنه لا يرضى أن يكون أحد أحسن قولاً منه ففعل ذلك أبو سفيان فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ ^(٢) .

وقبل منهما وأسلما وأنشده أبو سفيان قوله في إسلامه واعتذاره مما سلف منه:

لعمرك إنني يوم أحمل راية ... لتغلب خيل اللات خيل محمد

(١) سورة يوسف ٩١ .

(٢) سورة يوسف ٩٢ .

لكالمظلم الحيران أظلم ليله ... فهذا أواني حين أهدى فأهتدي
 هداني هاد غير نفسي ودلني ... على الله من طرده كل مطرد
 أصد وأناى جاهداً عن محمد ... وأدعى وإن لم أنتسب من محمد
 قال ابن إسحاق: فذكروا أنه حين أنشد لرسول الله صلى الله عليه
 وسلم قوله : من طرده كل مطرد ، ضرب رسول الله صلى الله عليه
 وسلم صدره وقال : أنت طردتني كل مطرد.

وشهد أبو سفيان حنيناً وأبلى فيها بلاء حسناً وكان ممن ثبت ولم يفر
 يومئذ ولم تفارق يده لجام بغلة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى
 انصرف الناس إليه^(١).

ليان قانون وهو أن كل معركة من معارك الإسلام الأولى مناسبة لتمييز
 الخبيث من الطيب.

لقد طلبت قريش من أبي طالب نهى النبي محمد صلى الله عليه وآله
 وسلم عن إيذائهم، ولم يسألهم أبو طالب عن موضوع وكيفية وأوان
 الأذى لأن أمر الشكوى بين.

فالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ماض في دعوته الناس للإيمان.
 فقال أبو طالب لولده عقيل : يا عقيل انطلق فأنتي بمحمد^(٢).

وبقي وفد قريش جالسين عند أبي طالب يريدون سماع ما يدور من
 حوار بين النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعمه أبي طالب ، وما ينتج عن
 هذا الحوار .

فانطلق عقيل مسرعاً فوجد النبي صلى الله عليه وآله وسلم في بيت
 صغير فأخبره بالأمر وأن عمه يدعوه للحضور ، فلم يمتنع النبي صلى الله
 عليه وآله وسلم ولم يخش من قريش على نفسه أو رسالته ، وهل كان
 حضوره عندهم من الوحي.

(١) الإستيعاب في معرفة الأصحاب ٢٥/٢.

(٢) ابن كثير / السيرة النبوية ١/٤٦٣.

الجواب نعم ، وهو من مصاديق الصبر وعمومات قوله تعالى ﴿وَاتَّبَعَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾^(١).

انطلق النبي صلى الله عليه وآله وسلم معه وكان الوقت عند الظهيرة وشدة الحر ، مما يدل على شدة السخط التي كانت عليه قريش ، ودخل عليهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم بطلعته البهية فلم يوجهوا له لوما بل انتظروا ما يقول له أبو طالب الذي قال له (إن بني عمك هؤلاء قد زعموا أنك تؤذيهم في ناديمهم و مسجدهم فانت عنه أذاهم)^(٢).

ولم يقل أبو طالب أن هؤلاء سادة قومك إنما قال له ابناء عمك مع اسم الإشارة للبعيد (هؤلاء) ولم يصدق دعواهم إنما قال (قد زعموا) ثم سأل النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يمتنع عن أذاهم إن كان يؤذيهم. فلم يجادلهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم إنما اتخذ هذه الجلسة للاحتجاج وبيان ثباته في سبل الدعوة إلى الله.

رفع النبي صلى الله عليه وآله وسلم بصره إلى السماء ، وقال (ترون هذه الشمس ، قالوا نعم ، قال : فما أنا بأقدر أن أدع ذلك منكم على أن تشتعلوا منه بشعلة).

فقال أبو طالب : والله ما كذب ابن أخي قط فارجعوا.^(٣)
لقد سألهم أمراً تعجيزياً ومستحيلاً فلا تستطيع قريش الوصول إلى الشمس واشعال شعلة منها .

لتمر السنون ويتجدد رفع النبي صلى الله عليه وآله وسلم لبصره في السماء بعد الهجرة لتحويل القبلة إلى المسجد الحرام ، وكأنه من الجزاء له على صبره في جهاده ، وتحمله الأذى من كفار قريش ، قال تعالى ﴿قَدْ

(١) سورة يونس ١٠٩.

(٢) السيرة لابن اسحاق ١/١٣٥.

(٣) السيرة النبوية لابن كثير ١/٤٦٣.

نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ
وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ
مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١﴾

والذين مشوا إلى أبي طالب وشكوا النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم من سادة ووجهاء قريش وهم :

الأول : عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ، من سادات قريش ، قتل يوم بدر كافراً (قال الزبير: وسمعت عبد الله بن عبد الله بن عمر يقول: لم يسد مملق من قريش إلا عتبة بن ربيعة هذا، وأبو طالب بن عبد المطلب، فإنهما سادا بغير مال. انتهى قلت: الداء قديم، وهذا عتبة بن ربيعة هو أبو هند بنت عتبة زوج أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية، وهي والددة معاوية بن أبي سفيان، فهو جد معاوية لأمه) (١).

الثاني : شيبة بن ربيعة قتل يوم بدر كافراً.

الثالث : أبو سفيان صخر بن حرب بن أمية ولد قبل عام الفيل بعشر سنوات ، وأسلم يوم الفتح وبعث عمر بن الخطاب زياد بن أبيه (في إصلاح فساد وقع باليمن، فرجع من وجهه، وخطب خطبة لم يسمع الناس مثلها ، فقال عمرو بن العاص: أما والله لو كان هذا الغلام من قريش لساق العرب بعصاه .

فقال أبو سفيان : والله إنني لأعرف الذي وضعه في رحم أمه، فقال له علي بن أبي طالب : ومن هو يا أبا سفيان قال: أنا، قال: مهلاً أبا سفيان، فقال أبو سفيان:

أما والله لولا خوف شخص ... يراني يا علي من الأعداي
لأظهر سره صخر بن حرب ... ولم يكن المقالة عن زياد

(١) سورة البقرة ١٤٤.

(٢) سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي ٩٦/١.

وقد طالت مجاملتي ثقيفاً ... وتركي فيهم ثمر الفؤاد
فلما صار الأمر إلى علي رضي الله عنه وجه زياداً إلى فارس، فضبط
البلاد وحمى وجبى وأصلح الفساد، فكاتبه معاوية يروم إفساده على علي
، فلم يفعل ووجه بكتابه إلى علي .

فكتب إليه علي : إنما وليتك ما وليتك وأنت أهل لذلك عندي، ولن
تدرك ما تريده مما أنت فيه إلا بالصبر واليقين، وإنما كانت من أبي سفيان
فلتة زمن عمر لا تستحق بها نسباً ولا ميراثاً، وإن معاوية يأتي المرء من بين
يديه ومن خلفه فاحذره ثم احذره، والسلام .

فلما قرأ زياد الكتاب قال : شهد لي أبو الحسن ورب الكعبة، فذلك
الذي جرأ زياداً ومعاوية على ما صنعاً^(١)، وليس فيه شهادة له .

الرابع : أبو البختری العاص بن هشام بن الحارث بن أسد بن عبد
العزى بن قصي قتل يوم بدر كافراً ، وأسلم ابنه الأسود يوم فتح مكة .

الخامس : الأسود بن المطلب .

السادس : الوليد بن المغيرة .

السابع : أبو جهل عمر بن هشام .

الثامن : العاصي بن وائل .

التاسع : منبه بن الحجاج .

العاشر : نبيه بن الحجاج^(٢) .

ومن أسرار بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إقامة الحجة
على المشركين وبيان جحودهم بالنعم وتسخيرهم الأموال التي رزقهم الله
عز وجل لمحاربة النبوة والتنزيل .

(١) وفيات الأعيان ٣٥٧/٦ .

(٢) سيرة ابن إسحاق ١٢٨/١ .

فجاءت آية السياق لفضحهم وإنذارهم ، ودعوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم للصبر وأخذ الحائطة منهم ، فقوله تعالى ﴿يَسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾^(١) تحذير للمسلمين من المشركين ، ونوع إخبار عن تجهيزهم الجيوش لمحاربة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه .

ولا ينحصر موضوع هذا التجهيز والعلم به بآية البحث والسياق إنما كان الركبان يأتون به ، كما أن قريشاً تجاهر بعزمها على غزو المدينة ، مما يدل على أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يغزهم ، إنما كان المشركون هم الذين يزحفون بالجيوش^(٢).

وقيل كان للنبي صلى الله عليه وآله وسلم عيون في مكة كما كان المسلمون الذين بقوا فيها ينقلون أخبار قريش ، الذين لا يصدق عليهم أنهم عيون .

المسألة الثالثة : تقدير الجمع بين آية البحث وآية السياق على وجوه :
الأول : ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه فلا يحزنك الذين يسارعون في الكفر .

الثاني : يميز الله الخبيث من الطيب فلا يحزنك الذين يسارعون في الكفر .

الثالث : لن يضر الخبيث الله شيئاً .

الرابع : وما كان الله ليطلعكم على الغيب فلا يجعل الله للكافرين حظاً في الآخرة .

(١) سورة آل عمران ١٧٦.

(٢) أنظر الأجزاء ١٥٩-١٦٠-١٦١-١٦٣-١٦٤-١٦٥-١٦٦-١٦٧-١٦٩-١٧١-١٧٢-١٧٣-١٧٥-١٧٦-١٧٧-١٧٨ من هذا السفر المبارك التي جاءت في قانون (لم يغز النبي (ص) أحداً).

الخامس : ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء فلا يحزنك الذين يسارعون في الكفر .

السادس : فآمنوا بالله ورسله ولا يحزنكم الذين يسارعون في الكفر .

السابع : فآمنوا بالله ورسله وللكافرين عذاب أليم .

الثامن : ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر وان تؤمنوا وتتقوا فلکم أجر عظيم .

التاسع : يا أيها الذين آمنوا لكم أجر عظيم ، وللكافرين عذاب أليم قال تعالى ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ * وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ ففِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ^(١).

العاشر : الله يجتبي من رسله من يشاء فلا يحزنك الذين يسارعون في الكفر .

الحادي عشر : يا أيها الذين آمنوا يجعل الله لكم حظاً في الآخرة ، ولا يجعل للذين يسارعون في الكفر حظاً في الآخرة ، وعن ابن مسعود قال : ما من نفس برة ولا فاجرة إلا والموت خير لها من الحياة ، إن كان براً فقد قال الله ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾^(٢) ، وإن كان فاجراً فقد قال الله ﴿وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّهِمْ خَيْرٌ لَّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّهِمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾^(٣)^(٤).

الثاني عشر : يا أيها النبي لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر .

الثالث عشر : آمنوا بالله ورسوله فان الكافرين لن يضرروا الله شيئاً .

(١) سورة آل عمران ١٠٦-١٠٧.

(٢) سورة آل عمران ١٩٨.

(٣) سورة آل عمران ١٧٨.

(٤) الدر المنثور ٢/٣.

الرابع عشر : يميز الله الخبيث من الطيب ، وللطيب أجر عظيم .
ليكون هذا التمييز مقدمة ومرآة للفصل بينهما في الآخرة فيفوز المؤمن
بالثواب ويلقى الكافر أشد العذاب .

وعن ابن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم
يقول : إن الله يدني المؤمن حتى يضع عليه كنفه ويستره من الناس ويقرره
بذنوبه ، ويقول له : أتعرف ذنب كذا ، أتعرف ذنب كذا؟ فيقول : أي رب
أعرف . حتى إذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه أنه قد هلك قال : فياني قد
سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم .

ثم يعطى كتاب حسناته ، وأما الكفار والمنافقون {ويقول الأشهاد
هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين} (١) (٢).

المسألة الرابعة : لقد أخبرت آية البحث عن قانون متجدد في كل زمان
، وهو الفصل والتمييز بين المؤمن والكافر ، وبين البر والفاجر ، ليكون
هذا التمييز نفعاً للمؤمنين وزجراً للكافرين ، وهل هو سبب لدفع الحزن
عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين لإقامة الذين كفروا في
منازل الكفر .

الجواب نعم ، فمن إعجاز القرآن قانون التعاضد بين آيات القرآن من
جهات :

الأولى : نزول آية قرآنية بالأمر التكليفي سواء بصيغة الأمر والوجوب
أو صيغة الجملة الخبرية .

الثانية : مجئ آية قرآنية تؤكد هذا الأمر وتكون عضداً لآية الأمر بما
يكون معه أمراً محكماً فمثلاً بخصوص الحج نزل قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ عَلَى
النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ

(١) سورة هود ١٨.

(٢) الدر المنثور ٥/٢٨٦.

العالمين ﴿١﴾، لبيان وجوب الحج بصيغة الجملة الخبرية لأنه متعارف عند العرب قبل الإسلام ، انما جدد الإسلام وجوبه كما جدد إبراهيم رفع قواعد البيت .

ولتأتي آيات أخرى تؤكد وجوب الحج منها قوله تعالى ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِيهِ الْحَجُّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِي يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (٢).

أما الصيام فانه فريضة مستحدثة على العرب ببعثة النبي محمد فجاء فرضها بصيغة الأمر وإرادة عموم المسلمين والمسلمات ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (٣)، ثم جاءت آيات أخرى متعقبة للآية أعلاه تبين أحكام الصيام والرخصة للإفطار للمريض والمسافر ، قال تعالى ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ (٤).

الثالثة : نزول آية قرآنية تكون عوناً للمسلمين للعمل بأحكام الآية القرآنية .

الرابعة : مجئ آية قرآنية تخبر عن قانون وهو إزاحة الموانع عن العمل بأحكام الآية القرآنية ، قال تعالى ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ (٥).

(١) سورة آل عمران ٩٧.

(٢) سورة البقرة ١٩٧.

(٣) سورة البقرة ١٨٣.

(٤) سورة البقرة ١٨٤.

(٥) سورة البقرة ١٨٥.

لقد أخبرت آية البحث عن التمييز بين الخبيث والطيب مما يدل على إنكشاف أمر الكفار والمنافقين ، فقد يحزن هذا الأمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم والذين آمنوا خاصة وأن المعجزات النبوية علة تامة للإيمان وسبب للتنزه عن الكفر ومفاهيمه .

الرابعة : توالي آيات القرآن بما يعصم الناس من الضلالة والفسوق .
لقد أراد الله عز وجل للحياة الدنيا أن تكون دار صلاح ، للملازمة بين الصلاح والعبادة في قوله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(١) ليكون من معاني ودلالات آية السياق استدامة الصلاح في الأرض حتى مع مسارعة الذين كفروا بالكفر والظلم والتعدي .

المسألة الخامسة : من معاني قوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾^(٢) بلحاظ آية السياق وجوه :

الأول : خيبة الذين كفروا .

الثاني : رجوع الأذى على الذين كفروا في مسارعتهم في الكفر.^(١)
الثالث : البشارة للمؤمنين بالنجاة من كيد الذين كفروا حتى مع مسارعتهم في الكفر والضلالة .

الرابع : أختتمت آية السياق بذكر العذاب العظيم الذي ينزل بالذين كفروا في الآخرة ، وهو من الغيب الذي تفضل الله عز وجل باطلاع المسلمين والناس عليه ، قال تعالى ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا* إِلَّا مَن ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا* لِّيَعْلَمَ أَن قَدِ ابْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَخْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾^(٣)

(١) سورة الذاريات ٥٦ .

(٢) سورة آل عمران ١٧٩ .

(٣) سورة الجن ٢٦-٢٨ .

ومن علم الغيب الذي أختص الله عز وجل نفسه به في المقام أوان ووقت قيام الساعة ، وتفاصيل وكيفية عذاب الذين كفروا ، وصيغ الرحمة الواسعة التي تتغشى أهل المحشر

المسألة السادسة : توجه الخطاب في آية السياق إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهو عام ، ويمكن تقديره على وجوه :

الأول : الخطاب إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وتقديره على جهات :

الأولى : يا أيها النبي لا يحزنك الذين يتناجون بالباطل ويكيدون المكائد لك وللإيقاع بالمؤمنين ، قال تعالى ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾^(١).

الثانية : يا أيها النبي لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من قريش وغيرهم .

الثالثة : يا أيها النبي لا تحزنك اللائي سارعن في النفاق فان عاقبتهن إلى العذاب ان لم يتبن ، وهل يشمل قوله تعالى ﴿لَنْ لَمْ يَنْتِه الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾^(٢) ، المنافقات أم أنه خاص بالمنافقين الذكور ، الجواب هو الأول ، ومن صيغ تقدير الآية : لئن لم تنته المنافقات واللائي في قلوبهن مرض والمرجفات في المدينة لنغرينك بهن ثم لا يجاورنك فيها إلا قليلاً.

والمرجفون هم الذين يثبون الإشاعات الكاذبة ، والأقاويل الباطلة ، فيقولون جاءكم الجيوش والعدد والعدة ، وتتولى المنافقات بث الأخبار

(١) سورة الأنفال ٣٠.

(٢) سورة الأحزاب ٦٠.

الكاذبة والأباطيل في بيوتات المدينة ، ومن يخرج للدفاع يشيع المنافقون والمنافقات أنه قتل .

لتكون هذه الإشاعات وثبوت كذبها من مصاديق التمييز بين الخبيث والطيب الذي تذكره آية البحث.

الرابعة : يا أيها النبي لا يحزنك اللائي يصدّن الناس عن الإيمان.

الخامسة : يا أيها النبي لا يحزنك الذي يكذب بالتنزيل.

السادسة : يا أيها النبي لا يحزنك الذي افترى عليك ، وفي قوله تعالى

﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِن هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ﴾^(١) ، قال المفسرون : القرآن ، وقرأ

أهل الكوفة : لساحر يعني محمد صلى الله عليه وسلم^(٢) ، ولكن المقصود

هو النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من جهات منها نظم الآية ،

وعودة اسم الإشارة (هذا) إلى الخطاب للنبي محمد صلى الله عليه وآله

وسلم في ذات الآية أعلاه وتامها ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى

رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صَدَقَ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ

الْكَافِرُونَ إِن هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ﴾^(٣).

ولم يرد لفظ (ساحر مبين) في القرآن إلا في الآية أعلاه ، لبيان أن أذى

قريش للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أكثر من أذى آل فرعون

لموسى ، إذ ورد في إيذاء آل فرعون لموسى وهارون قوله تعالى ﴿إِنْ

هَٰذَا لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكَ مِنْ أَرْضِكَ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا

بِطَرِيقَتِكَ الْمُتْلَى﴾^(٤).

(١) سورة يونس ٢.

(٢) الكشف والبيان ٤/٧.

(٣) سورة يونس ٢.

(٤) سورة طه ٦٣.

السابعة : يا أيها النبي لا تحزنك التي تسارع في التحريض على المؤمنين.

الثامنة : يا أيها النبي لا تحزنك من سارعت في الكفر وأنت في مكة قبل الهجرة ، ومن الإعجاز في الآية تعلق السرعة في ذات الكفر ، والأصل أن السرعة تكون في الوسطة والطريق ، كما في قوله تعالى ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾^(١).

الثاني : توجه الخطاب في الآية إلى عامة المسلمين وتقديره على جهات :
الأولى : يا أيها الذين آمنوا لا يحزنكم الذين يسارعون في الكفر يجهيز الجيوش لقتالكم.

الثانية : يا أيها الذين آمنوا لا يحزنكم الذين سارعوا في الكفر بتعذيب المسلمين في مكة.

الثالثة : يا أيها الذين آمنوا لا يحزنكم اللائي يعرضن عن دعوة الحق والهدى.

الرابعة : يا أيها الذين آمنوا لا يحزنكم اللائي سارعن في الكفر.
الخامسة : يا أيها الذين آمنوا لا يحزنكم الذي يتيح رؤساء الكفر والضلالة فان سوء العاقبة ينتظرهم قال تعالى ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنُ الَّذِينَ اتَّبَعُوا رَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ * وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا نَدْرِكُهُمْ لَسَخَّطْنَا لَهُمْ عَلَى اللَّهِ لَعْنَةً وَأَكَلْنَاهُمُ الْكِبَرُ فَنُصِيبَهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾^(٢).

(١) سورة آل عمران ١٣٣.

(٢) سورة البقرة ١٦٦-١٦٧.

السادسة : يا أيها الذين آمنوا لا يحزنكم الذين أصرروا على إيذاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم في مكة ، وقاموا بغزو المدينة في معركة أحد والخندق .

السابعة : يا أيها الذين آمنوا لا يحزنكم التي تسارع إلى الكفر .

الثامنة : يا أيها الذين آمنوا لا يحزنكم التي سارعت إلى الكفر .

الثالث : توجه الخطاب في الآية إلى المسلمين ، وتقديره على جهات منها:

الأولى : يا أيها اللائي آمن لا يحزنكن الذين يسارعون في الكفر فلا بد من اتیان الفرائض والواجبات العبادية ، قال تعالى ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾^(١).

الثانية : يا أيها اللائي آمن لا يحزنكن الذين يسارعوا في الكفر لبيان مسألة وهي لزوم ثبات المؤمنة في مقامات الهدى والإيمان ، ولا تلتفت الى صدور الذين كفروا عن دعوة الحق ، وان كانوا من سادة القوم .

الثالثة : يا أيها اللائي آمن لا يحزنكن اللائي يسارعن في الكفر .

الرابعة : يا أيها اللائي آمن لا يحزنكن اللائي يسارعن في الكفر .

وهناك وجهان آخران كل منهما على جهات متعددة وفق السياق أعلاه أحدهما خطاب للمسلم المنفرد منها :

يا أيها الذي آمن لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر .

والثاني خطاب إلى المسلمة المنفردة : يا أيها التي آمنت لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر منها :

الأولى : يا أيها التي آمنت لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر .

المسألة الخامسة عشرة : تبين آية السياق قانوناً من جهات :

الأولى : وجود أناس مقيمين على الكفر مع توالي المعجزات على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

الثانية : مسارعة الذين كفروا في الكفر وتماديهم في المعاصي وفعل السيئات ، وجاء الأمر من الله عز وجل للمسلمين بالمسارعة في الصالحات والتوبة ، قال تعالى ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾^(١).

الثالثة : عجز الذين كفروا عن الإضرار بسنن عبادة الله في الأرض إذ أن علة خلق الناس هي عبادتهم له سبحانه ، وحرمان الذين كفروا أنفسهم من هذه النعمة لا يضر في استدامة العبادة في الأرض ، ليكون من معاني الآية القرآنية القبح الذاتي للإرهاب.

ترى ما هي النسبة بين قتال المشركين للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه وبين الإرهاب في مفهومه الإصطلاحي في هذا الزمان ، الجواب هو العموم والخصوص المطلق ، فكل فرد من أفراد أذاهم وقتالهم للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه مثل معركة بدر وأحد والخندق ظلم وإرهاب ، وهو أعم إذ كانوا يؤذون النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه من وجوه :

الأول : التهديد والوعيد بقتل النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمهاجرين وأسر الأنصار .

الثاني : مهاجمة كفار قريش لأطراف المدينة ، وحرق بعض النخيل ونهب المواشي والإبل التي تعود لأهلها .

فمثلاً في شهر ربيع الأول من السنة الثانية للهجرة وقبل معركة بدر أغار كرز بن جابر الفهري على سرح المدينة ، وهي النعم والمواشي التي تسرح في النهار في أطراف المدينة ، فخرج النبي صلى الله عليه وآله وسلم

خلفه وحمل لواءه الإمام علي عليه السلام ، وكان لونه أبيض ، واستخلف على المدينة زيد بن حارثة ، مما يدل على ثبوت حكم الإسلام ، ومع أن النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم خرج مضطراً خلف كرز ، ولم يقاتل ، فقد قالوا أنها غزوة وسميت باسمين :

الأولى : غزوة بدر الأولى :

الثانية : غزوة سفوان .

الثالث : حبس المسلمين الذين في مكة ، وتقييدهم بالحديد ، وربط أرجل بعضهم ببعض ، وكان النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم يقنت في الصلاة فيسأل الله نجاتهم.

الرابع : استدراج بعض المهاجرين إلى مكة وحبسهم من قبل ذويهم وأخوتهم ، وهو من أشد ضروب المسارعة في الكفر لأنه محاربة للإيمان وقطع للأرحام فمثلاً كان هشام بن العاص بن وائل قد أسلم ، وهو في مكة (وواعد عمر بن الخطاب أن يهاجر معه وقال تجدني أو أجدك عند إضاءة بنى غفار ففطن لهشام قومه فحبسوه عن الهجرة) ^(١).

وكان عياش بن أبي ربيعة من المسلمين الأوائل ، وهاجر من مكة وخرج أبو جهل والحارث بن هشام من مكة إلى المدينة للقاء عياش بن أبي ربيعة ، وهما أخواه لأمه فأخبراه بأن أمه نذرت أن لا تغسل رأسها ولا تستظل بظل حتى تراه وأعطياه الأمان ، وهو يعلم أن أمه شديدة الحب له ، وجاء القرآن والسنة ببر الوالدين وصلة الرحم ، فرقت نفسه ووثق بعهدهما ، قال تعالى ﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ^(٢).

(١) عيون الأثر ١/ ٢٢٩.

(٢) سورة لقمان ١٥.

ولم يتعرض المسلمون لأبي جهل وأخيه عند قدومهم إلى المدينة ، ولم يمعنوا عياش من الذهاب معهما ، نعم حذروه وبينوا له أنهما يريدان فتنته في دينه ، وكان النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم يومئذ في مكة لم يهاجر بعد إلى المدينة.

وقال عمر لعياش (أَمَا إِذْ قَدْ فَعَلْتَ مَا فَعَلْتَ ، فَخُذْ نَاقَتِي هَذِهِ فَإِنَّهَا نَاقَةٌ نَجِيَّةٌ ذَلُولٌ فَالْزِمْ ظَهْرَهَا ، فَإِنْ رَأَيْتَ مِنَ الْقَوْمِ رَيْبًا فَانْجِ عَلَيْهَا . فَخَرَجَ عَلَيْهَا مَعَهُمَا ، حَتَّى إِذَا كَانُوا بِبَعْضِ الطَّرِيقِ قَالَ لَهُ أَبُو جَهْلٍ يَا ابْنَ أَخِي ، وَاللَّهِ لَقَدْ اسْتَغْلَظْتَ بِعَيْرِي هَذَا .

أَفَلَا تُعَقِّبُنِي عَلَى نَاقَتِكَ هَذِهِ ؟ قَالَ بَلَى . قَالَ فَأَنَاخَ وَأَنَاخَا لِيَتَحَوَّلَ عَلَيْهَا ، فَلَمَّا اسْتَوَوْا بِالْأَرْضِ عَدُّوا عَلَيْهِ فَأَوْثَقَاهُ وَرَبَطَاهُ ثُمَّ دَخَلَا بِهِ مَكَّةَ ، وَفَتَنَاهُ فَافْتَنَّ .

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ : فَحَدَّثَنِي بِهِ بَعْضُ آلِ عِيَّاشِ بْنِ أَبِي رَيْبَعَةَ : أَنَّهُمَا حِينَ دَخَلَا بِهِ مَكَّةَ دَخَلَا بِهِ نَهَارًا مُوْتَقًا ، ثُمَّ قَالَا : يَا أَهْلَ مَكَّةَ ، هَكَذَا فَافْعَلُوا بِسُفْهَائِكُمْ كَمَا فَعَلْنَا بِسُفْهَانَا هَذَا^(١) .

وبعد الهجرة صار النبي صلى الله عليه وآله وسلم يدعو لعياش بن أبي ربيعة ويذكره ويقول في قنوت الصلاة (اللهم أنج الوليد بن الوليد وسلمة بن هشام وعياش بن أبي ربيعة)^(٢) .

ونجى الوليد بن الوليد من سجنه وفرّ إلى المدينة ، فأمره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالرجوع إلى مكة وانتأذ عياش بن أبي ربيعة وهشام بن العاص ، فجاء إلى مكة ودخلها ليلاً مستخفياً وبات عند القين أي الحداد وكان قد دخل الإسلام تَوَّأ .

ولقى الوليد امرأة تحمل طعاماً فسألها : أين تريدان يا أمة الله ، قالت أريد هذين المحبوسين ، فعلم مكانهما ، وكانا قد سجنا في بيت لا سقف له

(١) السيرة لابن هشام ٤٧٤/١ .

(٢) عيون الأثر ٢٢٩/١ .

، فلما جاء الليل تسور الوليد الجدار ثم أخذ مروة ووضعها تحت قيديهما وضربهما بسيفه فقطعهما وصار هذا السيف يسمى السيف ذو المروة فلم يستعمله المسلمون في القتال والقتل إنما بالنجاة من السجن.

وحملهما الوليد على بعيره ، وساق بهما ، فهما راكبان وهو يمشي على الأرض للضعف الذي أصابهما في السجن وإرادتهم التعجيل والهرب لأن قريشاً يفتقدونهما في الصباح ويخرجون في طلبهم ، وهو الذي حصل ولكنهم عجزوا عن إدراكهم لأنهم ساروا في طريق الهجرة الذي اتخذته النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، ولأن الوليد كان يسوق الناقة سراً وفي الليل (فَدَمِيتَ أَصْبَعُهُ فَقَالَ

هَلْ أَنْتَ إِلَّا أَصْبَعٌ دَمِيتَ ... وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا لَقِيتَ
ثُمَّ قَدِمَ بِهِمَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ) ^(١).
وذات بيت الشعر قاله قبله النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهو في بعض كتائبه ^(٢) .

وقد قتل أبو جهل كافراً في معركة بدر ، واسلم الحارث بن هشام لاحقاً .

الخامس : من مسارعة الذين كفروا بالكفر تماديهم في الإرهاب والمنع من حقوق الإنسان العرفية والعامة ، ويعرف مصطلح حقوق الإنسان في هذا الزمان بأنه الحقوق التي يجب تهيئتها وتوفيرها لكل إنسان بغض النظر عن الدين والجنس والعرق واللون ، وصارت هناك التزامات ومواثيق دولية لحفظها والحيلولة دون إنتهاكها .

ثم صدر الإعلان العالمي لحقوق الإنسان ، وهو من وجوه :

الأول : الحق في الحياة الزوجية .

الثاني : الأمن الشخصي والسلامة من التعدي والظلم .

(١) السيرة لابن هشام ٤٧٦/١.

(٢) سورة الحجرات ١٣.

الثالث : الحق في المساواة .

الرابع : الحق في التعليم .

الخامس : الحق في المساواة بين الناس .

ولا يتعارض هذا المبدأ مع قوله تعالى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾^(١).

والإكرام من الله أسمى مرتبة من المساواة في الحقوق ، وهو حجة على الناس في الحاجة الى التقوى عند المساواة .

السادس : الحق في التعليم والتحصيل الدراسي .

السابع : الحق في الملكية الخاصة ، ومنه قول النبي محمد صلى الله عليه

وآله وسلم (إن الناس مسلطون على أموالهم)^(٢).

الثامن : الأمن من الاعتقال التعسفي ، ومن النفي .

التاسع : الحق في المعتقد والدين .

العاشر : الحق في الزواج والإنجاب وتكوين أسرة ، قال تعالى ﴿الْمَالُ

وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾^(٣).

الحادي عشر : الحق في الضمان الإجتماعي .

الثاني عشر : الحق في الراحة والإستقرار .

الثالث عشر : الحق في التجمع السلمي والإنضمام للجمعيات

والنقابات.

الرابع عشر : حق المشاركة في الحياة الثقافية للمجتمع .

الخامس عشر : الحق في المستوى المعاشي الملائم .

(١) السيرة لابن هشام ٤٧٦/١.

(٢) البحار ٢٧٢/٢.

(٣) سورة الكهف ٤٦.

السادس عشر : حرية الرأي والمعلومات من غير اضرار بالغير لقاعدة لا ضرر ولا ضرار وهي وان كانت مستقرة من حديث نبوي إلا أنها أيضاً قاعدة عقلية للدلالة على موافقة العقل للشرع.

السابع عشر : حرية الحركة والتنقل داخل وخارج البلاد وحق اللجوء.

الثامن عشر : الحق في المشاركة في الشؤون العامة ، قال تعالى ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾^(١).

والحقوق لا تباع ولا تقبل التصرف ، وقد باع الذين كفروا ما هو أسمى من الحقوق المدنية ، فقد باعوا الإيمان الذي هو الناموس الأكبر ومعدن الحياة ، وسر الوجود الإنساني في الأرض إذ ورد في آية السياق قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُوا اللَّهَ شَيْئًا﴾^(٢).

الشعبة الثانية : صلة آية البحث بالآيات المجاورة التالية لها ، ومنها وجهان:

الوجه الأول : صلة آية البحث بقوله تعالى ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا أَنَاءَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾^(٣) وفيه مسائل :

المسألة الأولى : لقد ذكرت آية البحث قانوناً وهو أن الله عز وجل يميز ويفصل بين الخبيث والطيب ، فتتجلى معالم الإيمان في مناهج وسيرة وأفعال المؤمنين ، وتظهر علامات النفاق والخداع في أقوال وأفعال المنافقين

(١) سورة الشورى ٣٨.

(٢) سورة آل عمران ١٧٧.

(٣) سورة آل عمران ١٨٠.

، قال تعالى ﴿وَلَوْ شَاءَ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَغَرَقْتُهُمْ بِسَيِّمَاهُمْ وَكَتَرَفْتُهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ (١).

وبعد آية البحث جاءت آية السياق متعقبة لها لتبين وجهاً من وجوه الخبث الذي عليه الكفار والمنافقون إذ يمتنعون عن إعطاء الصدقات واخراج الحقوق الشرعية ، قال تعالى ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢).

ومن الفصل والتمييز بين الخبيث واطيب وعزل الخبيث اختتام آية البحث بالبشارة للمؤمنين بالثواب العظيم في الآخرة لبيان قانون وهو اختصاص الثواب الحسن بالمؤمنين يوم القيامة ، بينما جاءت آية السياق بالتخويف والوعيد للذين كفروا وأنهم يطوقون بما يخلوا يوم القيامة .

و(عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "ثلاث من جاء بهنّ مع الإيمان دخل من أي أبواب الجنة شاء، وزوج من الحور العين حيث شاء: من عفا عن قاتله، وأدى ديناً خفياً، وقرأ في دبر كل صلاة مكتوبة عشر مرات: "قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ". قال: فقال أبو بكر: أو إحداهن يا رسول الله؟ قال: "أو إحداهن") (٣).

والمراد من قاتله في الحديث أعلاه وجوه :

الأول : إرادة الجراح ، فيكون المجني عليه حياً .

الثاني : المفقصود ولي المقتول عمداً ، فللولي أن يعفو ، قال تعالى

﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ (٤).

(١) سورة محمد ٣٠.

(٢) سورة التوبة ١٠٣.

(٣) تفسير ابن كثير ٥٢٥/٨.

(٤) سورة البقرة ٢٣٧.

الثالث : كتابة الإنسان وصيته بأنه إذا قُتل عمداً فإنه يعفو عن قتله ، ولو عفا المجني عليه عن الجاني في الدنيا فهل يؤاخذ الجاني بذات الذنب في الآخرة ، الجواب لا .

المسألة الثانية : تضمنت آية البحث الإعجاز والتحدي بالإخبار عن التمييز بين المؤمن والكافر ، وبين الطيب والخبيث في عالم الأقوال والأعمال حتى تنكشف للناس سُنْخِية كل واحد منهم ، وابتدأت آية السياق بذكر صفة خبث للذين كفروا وهي حجبهم للحقوق ، لتدل الآية على أن من الخبث الذي يظهر للناس الإمتناع عن إعانة الفقراء وعن الصدقات ، وفيه شاهد على موضوعية إخراج الحقوق الشرعية في سنن الهداية ، وأن الإيمان لا يكتمل إلا بدفع الزكاة (وقال أبو المشفق : لقيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعرفة فدنوت منه حتى اختلفت عنق راحلتي وعنق راحلته فقلت : يا رسول الله انبثني بعمل ينجيني من عذاب الله ويدخلني الجنة؟

قال : اعبد الله ولا تشرك به شيئاً وأقم الصلاة المكتوبة وأد الزكاة المفروضة وحجّ وإعتمر وصمّ رمضان وانظر ما تحب من الناس ان يأتوه إليك فافعله بهم وما تكره من الناس إن يأتوه إليك فذرهم منه) ^(١).

وتدل آية السياق في مفهومها على أن المؤمن هو الذي يخرج زكاة أمواله ، ويبادر لإعانة الفقراء قرابة وطاعة في سبيل الله ، وهذا الإخراج من الطيب والحسن وضد الخبيث .

وقد وعد الله عز وجل بالعوض والخلف عليه ، قال تعالى ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ

مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ خَلْفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ ^(٢) (عن أبي سلمة قال : قال

(١) الكشف والبيان للثعلبي ٢٧٤/١.

(٢) سورة سبأ ٣٩.

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ما نقصت صدقة من مال قط فتصدقوا (١).

المسألة الثالثة : ذكرت كل من آية البحث والسياق لفظ الجلالة ثلاث مرات ، وتبين كل منهما عظيم قدرة الله ، وتخبر عن قانون من الإرادة التكوينية ، وهو أن مقاليد الأمور كلها بيد الله سبحانه ، وفيه حجة على الناس بأن النعم التي عندهم هي من فضل الله وأنه سبحانه يسألهم إخراج الحقوق الشرعية وإعانة الفقراء لتكون هذه الإعانة مصداقاً لقوله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (٢) وهي عون ومدد للفقراء في العبادة والصلاح ، وقد نسبت آية السياق حق الفقراء الذي عند الأغنياء بأنه من فضل الله وأنه كالأمانة الشرعية والمالكية عندهم لبيان أنه من ضروب التمييز بين الطيب والخبيث الذي تذكره آية البحث .

وبينت آية البحث أن الله عز وجل هو الذي يعزل المنافقين والمخادعين عن المؤمنين ، وهو الذي عنده علم الغيب ، والذي يتفضل ويحبّي الرسل والأنبياء ويختار لهم ما يطلعهم عليه من الغيب بما يكون سبيل رشاد لهم ولقومهم .

ويتلو كل مسلم ومسلمة سبع عشرة مرة قوله تعالى ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (٣) للإقتداء بالأنبياء والإنتفاع مما أطلعهم عليه من كنوز الغيب بلحاظ قانون ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ (٤).

(١) الدر المنثور ٣٢١/٢.

(٢) الكشف والبيان للثعلبي ٢٧٤/١.

(٣) سورة الفاتحة ٦.

(٤) سورة النحل ٨٩.

وأختتمت آية البحث بالبشارة بالأجر والثواب العظيم ولا يقدر عليه إلا الله عز وجل ، وفي التنزيل ﴿وَمَا تَقْدُمُوا لَأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا لِلَّهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(١).

المسألة الرابعة : لما ذكرت آية البحث التمييز بين الطيبين والخبيثين بوجوه من الإمتحان والإبتلاء ولطف من الله ، إبتدأت الآية التي بعدها وهي آية السياق بذكر طائفة من الخبيثين وهم الذين ييخلون ويمسكون عن إخراج الحق الشرعي لما آتاهم الله عز وجل من فضله من الزكاة الواجبة والمستحبة والخمس ، وهل يشمل البخل الذي تذكره آية السياق الإمتناع عن أداء حجة الإسلام خشية الإنفاق بلحاظ أن الحج عبادة مالية بدنية ، الجواب نعم .

ليكون من معاني الإستطاعة في قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾^(٢) إقامة الحجة على الناس بأن الله هو الذي يهيئ لهم مستلزمات الحج ويوفر لهم الإستطاعة ، وكذا بالنسبة للفرائض العبادية الأخرى ، فان الله عز وجل يجعل المكلف قادراً على أدائها بأركانها وشرائطها ، كما في فريضة الصوم وإتيانها مع السلامة من المرض ، وعدم السفر ، قال تعالى ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٣).

(١) سورة المزمل ٢٠.

(٢) سورة آل عمران ٩٧.

(٣) سورة البقرة ٢١٦.

المسألة الخامسة : لقد ذكرت آية السياق فضل الله عز وجل على الناس في الأموال بما يكون معه زائد عن المؤونة أو وفرة تترتب عليها الزكاة أو الخمس ، ويكون معه التمييز بين الطيب الذي يخرج الحقوق الشرعية من ماله ، والخبيث الذي يمتنع عن اخراجها .

وليس من حصر لوجوه التمييز بين الطيب والخبيث ، بين المؤمن والمنافق ، إلا أن السؤال هو هل كل فرد من أفراد التمييز بينهما يكون بخصوص النعم وفضل الله عز وجل .

الجواب نعم ، إذ أن ذات الدنيا وخلافة الإنسان فيها كله من فضل الله ، لذا جاءت آيات القرآن بالحث على الشكر لله ، وتعاهد هذا الشكر لأنه من مصاديق الإيمان ، وأسباب الإحتراز والوقاية ، قال تعالى ﴿وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ

عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(١) ، وليان مسألة وهي من الطيب

والحسن أن الإنسان يغبط ولا يحسد ، لأن الحسد مذموم ومكروه ، وهو من رشحات الشح والبخل الذي تذكره آية السياق و(عن أنس قال : قال رسول الله {صلى الله عليه وآله وسلم} «الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب».

وعن يوسف بن الحسين الرازي قال : سمعت ذا النون يقول : الحسود لا يسود.)^(٢)، (قال الثعلبي : وأنشدت لمنصور الفقيه في معناه :

ألا قل لمن كان لي حاسداً

أندري على من أسأت الأدب

أسأت على الله في فعله

إذا أنت لم ترض لي ما ذهب

(١) سورة النساء ٨٣.

(٢) الكشف والبيان-لثعلبي ٤٤٦/٣.

جزاؤك منه الزيادات لي

وأن لا تنال الذي تطلب^(١)

من معاني التمييز بين الطيب والخبيث النعم التي تأتي إلى الغير فيسلم المؤمن أنها من الله ، ويدعو الله لنفسه ولغيره بمثلها ، قال تعالى ﴿وَأَسْأَلُ اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾^(٢).

المسألة السادسة : لقد ابتدأت آية البحث بذكر عظيم قدرة الله بالتمييز بين الطيب والخبيث ، وبين المؤمن والكافر ، وأخبرت بأن الله عز وجل يعلم السرائر ويكشف ما تضرمه النفوس ، وابتدأت آية السياق بما يجذب الناس إلى منازل الهداية والإيمان لبيان فعل مذموم وهو الشح والبخل بحق الفقراء من الأموال التي جعلها عندهم ، ليكون من معاني قوله تعالى ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(٣) ، أي تطهرهم من البخل والشح ، وتفصلهم عن المنافقين ، وتزكيهم من درن الرياء والخداع ، وهي مناسبة لدعاء الرسول للمسلمين بما فيه خير الدنيا والآخرة ، وإخراج الصدقات من مفاهيم قوله تعالى ﴿الَّذِينَ يَخْلُونُ بِآثَانِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾^(٤) ، الوارد في آية السياق ، بتقريب ، وهو أن إخراجها طاعة لله بالجود والإحسان .

(١) الكشف والبيان-للثعلبي ٤٤٦/٣.

(٢) سورة النساء ٣٢.

(٣) سورة التوبة ١٠٣.

(٤) سورة آل عمران ١٨٠.

وعن ابن عباس في قوله تعالى ﴿وآخِرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾^(١)، قال : كانوا عشرة رهط تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في غزوة تبوك .

فلما حضر رجوع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أوثق سبعة منهم أنفسهم بسواري المسجد ، وكان عمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا رجع في المسجد عليهم .

فلما رآهم قال : من هؤلاء الموثقون أنفسهم .

قالوا : هذا أبو لبابة وأصحاب له تخلفوا عنك يا رسول الله ، أوثقوا أنفسهم وحلفوا أنهم لا يطلقهم أحد حتى يطلقهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويعذرهم .

قال : وأنا أقسم بالله لا أطلقهم ولا أعذرهم حتى يكون الله تعالى هو الذي يطلقهم رغبوا عني وتخلفوا عن الغزو مع المسلمين .

فلما بلغهم ذلك قالوا : ونحن لا نطلق أنفسنا حتى يكون الله هو الذي يطلقنا . فأنزل الله عز وجل { وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم }^(٢)

وعسى من الله واجب وهو التواب الرحيم ، فلما نزلت أرسل إليهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأطلقهم وعذرهم ، فجاؤوا بأموالهم فقالوا : يا رسول الله هذه أموالنا فتصدق بها عنا واستغفر لنا . قال : ما أمرت أن آخذ أموالكم .

فأنزل الله عز وجل { خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم }^(٣) يقول : استغفر لهم { إن صلواتك سكن لهم }^(٤) يقول : رحمة لهم ، فأخذ منهم الصدقة واستغفر لهم .

(١) سورة التوبة ١٠٢.

(٢) سورة التوبة ١٠٢.

وكان ثلاثة نفر منهم لم يوثقوا أنفسهم بالسواري فأرجئوا سنة لا يدرون أيعذبون أو يتاب عليهم؟ فأنزل الله عز وجل {لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة} (٣)، إلى آخر الآية {وعلى الثلاثة الذين خلفوا} (٤)، إلى {ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم} (٥)، يعني إن استقاموا (٦).

ويمكن القول بقانون وهو أن الآية القرآنية عون للمسلم لفعل الصالحات والإمتثال لأمر الله عز وجل والإمتناع عن معصيته ، فلما ذكرت آية البحث التمييز بين الطيب والخبيث جاءت آية السياق بالإنذار من البخل والإمساك عن الحقوق الشرعية ، وتقدير آية السياق بلحاظ آية البحث على وجوه :

الأول : يا أيها الذين آمنوا لا تبخلوا بما آتاكم الله من فضله.

الثاني : يا أيها الذين آمنوا اشكروا الله على فضله بعدم البخل بالحقوق الشرعية .

الثالث : يا أيها الناس الإمتناع عن دفع الحقوق شر وأذى في النشاطين.

الرابع : يا أيها الناس من خصال الإيمان إخراج الحقوق الشرعية.

المسألة السابعة : لقد نزلت آيات القرآن على نحو التوالي والتتابع والنجوم فلم ينزل القرآن دفعة واحدة بل تنزل الآية أو الآيات كل يوم أو يومين أو ثلاثة أو أكثر ، فيحفظها المسلمون ويتدبرون في معانيها ، ويتعظون من أسباب النزول .

(١) سورة التوبة ١٠٢.

(٢) سورة التوبة ١٠٢.

(٣) سورة التوبة ١١٧.

(٤) سورة التوبة ١١٨.

(٥) سورة التوبة ١١٨.

(٦) الدر المنثور ١٥١/٥.

فأخبرت آية البحث عن (قانون التمييز) لبيان مسألة وهي أن الإمتحان في الدنيا متصل ومتجدد ، وأن الأمر لا يقف عند دخول الإسلام بل لا بد من إخراج الزكاة من المال الخاص .

وهل في آية السياق بشارة ، الجواب نعم ، إذ تخبر عن توالي النعم على المسلمين والناس جميعاً ، وتدعو لشكر الله عز وجل على هذه النعم بإخراج الزكاة والصدقات الواجبة.

فان قلت تدل آيات الزكاة على وجود فقراء بين المسلمين وعامة الناس ، وهذا صحيح لذا وردت آية السياق بالمعنى الأعم فقد ذكرت فضل الله ولم تذكر خصوص الزكاة وخصوص المال الذي تجب فيه إنما ذكرت فضل الله وهو أعم من المال ومقدار الزكاة ليكون من التمييز وتجلي خصال الإيمان عند الإنسان وجوه :

الأول : دفع الزكاة عند تحقق النصاب سواء في النقدين أو الأنعام أو الحبوب .

الثاني : إيصال الحقوق الشرعية إلى مستحقيها .

الثالث : السماحة والوثام ، وإختيار الصلح .

الرابع : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

الخامس : دفع الصدقات المستحقة .

السادس : التحلي بالأخلاق الحميدة والكرم والتهذيب ، والتأدب

بسنن القرآن ، قال تعالى ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾^(١).

السابع : الإمتناع عن رذائل الأخلاق كالغيبة والنميمة والشح ، قال

تعالى ﴿وَأَخْضِرْتُ الْأَنْفُسَ الشُّحَّ﴾^(٢).

(١) سورة الإسراء ٩.

(٢) سورة النساء ١٢٨.

الثامن : زجر الذي يدعو الى الإمتناع عن دفع الحقوق الشرعية ووعظ ونهي الذي يقوم بالتحريض على البخل ، قال تعالى ﴿الَّذِينَ يَخْلُونِ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾^(١).

المسألة الثامنة : لقد جاء الأنبياء بالأمر من عند الله بالإنفاق في سبيله تعالى ، وإعانة الفقراء للترغيب بالإيمان والتذكير بالآخرة ، ونشر شآبيب المودة بين الناس .

وفي هذا الزمان أدرك الأغنياء والدول الغنية الحاجة إلى إعانة الدول الفقيرة ، وفيه تثبيت للأمن فيها والسلم العام ، ومنع من الهجرة الجماعية ، وهذه الإعانة حرب على الإرهاب وبرزخ دون الإحباط .
ليكون من معاني آية السياق إرادة الخصوص والعموم ، لذا وردت الآية بصيغة الجمع ﴿الَّذِينَ يَخْلُونِ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾^(٢) ، فيكون من معاني البخل في الآية أعلاه وجوه :

الأول : الذي يبخل بما آتاه الله من فضله ، وهل يدخل الإرث في وجوه فضل الله في الآية ، الجواب نعم .
الثاني : التي تبخل بما آتاه الله من فضله .

ولو منعت الزوجة زوجها عن إخراج الحقوق الشرعية والصدقات ، أو العكس بأن يكون الزوج هو الذي يمنع زوجته من إخراجها ، أو منع الولد أباه من دفع الحقوق أو بالعكس ، فهل هو من البخل بما آتاه الله أم من الأمر بالبخل .

(١) سورة النساء ٣٧ .

(٢) سورة آل عمران ١٨٠ .

الجواب إنه منهما معاً قال تعالى ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾^(١) والمنع عن الزكاة قسوة على الفقراء وحرمان الثواب ، ومحاولة لتعطيل الأحكام ، فجاءت آية البحث والسياق للتحذير منه ، قال تعالى ﴿الشَّيْطَانُ يُعِدُّكُمْ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ﴾^(٢) ، وقد يتعلق المنع والنهي بمصداق الفقر والمسكنة ، كما لو قال له لا تدفع لفلان لحنقه عليه لذا جاء القرآن بالإخبار بأن الله عز وجل هو الذي يقبض الصدقات .

وعن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تصدقوا فإن أحدكم يعطي اللقمة أو الشيء فتقع في يد الله عز وجل قبل أن تقع في يد السائل ، ثم تلا هذه الآية { ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات }^(٣) فيريها كما يربي أحدكم مهره أو فصيله فيوفيها إياه يوم القيامة^(٤).

الثالث : المناجاة بالبخل والشح وحجب الصدقة واعمال البر والصلاح ، لذا جاء القرآن بالبعث على المسارعة في الصالحات ، وجاءت آية البحث بالحث على الإيمان والتقوى ، وفي الثناء على المتقين قال تعالى ﴿أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾^(٥) فالمسارعة في الخيرات من أسباب قهر الطمع والشره والشح والبخل ، وهي باب لمضاعفة الرزق والنماء في المال .

(١) سورة النساء ٣٧ .

(٢) سورة البقرة ٢٦٨ .

(٣) سورة التوبة ١٠٤ .

(٤) الدر المنثور ١٥٧/٥ .

(٥) سورة المؤمنون ٦١ .

(عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال: كان في بني إسرائيل رجل وكان محتاجاً فألحت عليه امرأته في طلب الرزق، فابتهل إلى الله في الرزق، فرأى في النوم:

أيما أحب إليك: درهمان من حل أو ألفان من حرام؟ فقال: درهمان من حل، فقال: تحت رأسك، فانتبه فرأى الدرهمين تحت رأسه فأخذهما واشترى بدرهم سمكة فأقبل إلى منزله .

فلما رآته المرأة أقبلت عليه كاللائمة، وأقسمت أن لا تمسها .
فقام الرجل إليها فلما شق بطنها إذا بدرتين فباعهما بأربعين ألف درهم.)^(١).

المسألة التاسعة : من وجوه التمييز بين الطيب والخبيث إتصاف الطيب بخصال حميدة منها بلحاظ آية السياق :

الأولى : الشكر لله على فضله وإحسانه .

الثانية : المبادرة الى إخراج الزكاة والحقوق الشرعية ، وعدم التسويف والتأخير فيها .

الثالثة : إجتنب الشح والتقتير .

الرابعة : التنزه عن المنّ على الفقير في الصدقات ، قال تعالى ﴿لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾^(٢) .

وهل تبث آية البحث المسلمين على التحلي بالصفات الحسنة والتقيد بسنن التقوى ، الجواب نعم ، لذا تعقبتها آية السياق بضم البخل والشح والإمتناع عن دفع الزكاة .

وعن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : ما من رجل لا يؤدي زكاة ماله إلا مثل له يوم القيامة شجاعاً أقرع يفر منه وهو

(١) البحار ١٤/٤٩٣.

(٢) سورة البقرة ٢٦٤.

يتبعه فيقول : أنا كنتك حتى يطوق في عنقه ، ثم قرأ علينا النبي صلى الله عليه وسلم مصداقه من كتاب الله ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ (١)(٢).

ومن الشواهد على آية البحث والسياق ما ورد بخصوص قصة ثعلبة بن حاطب^(٣) ، وهو صحابي من الأنصار من الأوس ومن شهد بدرأ ، وتوفي في السنة الثالثة للهجرة وقد آخى النبي صلى الله عليه وآله وسلم بينه وبين معتب بن الحمراء الخزاعي .

وقيل أن قصة منع الزكاة الآتية والمروية عن أبي أمامة الباهلي تخص ثعلبة آخر غيره ، واليه ذهب ابن حجر العسقلاني في كتابه الإصابة في تمييز الصحابة وقال أنه يحمل ذات الاسم ثعلبة بن حاطب أو أبو حاطب الأنصاري وأنه من الذين بنوا مسجد ضرار ، إذ أن ثعلبة بن حاطب بن عمرو بدري مات في السنة الثالثة للهجرة ، وقال ابن الكلبي أنه قُتل بأحد ، واستدل ابن حجر بما قيل (أن النبي صلى الله عليه وسلم مات ولم يقبض منه الصدقة ولا أبو بكر ولا عمر وأنه مات في خلافة عثمان)^(٤).

وقد ورد عن أبي أمامة أن ثعلبة بن حاطب جاء الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال : يا رسول الله أدع الله أن يرزقني مالاً ، قال رسول الله (ويحك يا ثعلبة ، أما ترضى أن تكون مثلي؟ فلو شئت أن يسير ربي هذه الجبال معي لسارت)^(٥).

(١) سورة آل عمران ١٨٠.

(٢) الدر المنثور ٤/٣.

(٣) أنظر الدر المنثور ١٢٠/٥.

(٤) الإصابة في معرفة الصحابة ١٣٣/١.

(٥) الدر المنثور ١٢٠/٥.

ليبان حاجة المؤمنين إلى الصبر ، والرضا بما قسم الله عز وجل وشكرهم لله على بلوغ النبي أشرف المنازل فلا يسبقه بالفضل من عند الله أحد .

وقد يأتي المال الوافر الى الإنسان فيكون برزخاً دون أدائه الوظائف العبادية ، أو يكون سبباً في الغرر ، والإغراء في المعصية ، أو البخل والشح عن أداء الحقوق الشرعية ، فليس على الفقير أداء الزكاة ، ولا يجب عليه حج البيت الحرام ما لم تتحقق الإستطاعة .

ومن معاني قوله تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾^(١) ، بخصوص هذه المسألة التأسى بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم في عدم إدخاره للأموال مع أن الغنى قريب منه ، فقد كان يتفق المائتين والثلاثمائة ألف في النهار لبيت وعياله من غير عشاء أو لا أقل لم تشعل عندهم نار تحت قدر ، مع أن إشعال النار وتهيئة الزاد له شأن خاص عند أفراد الأسرة ويبحث الغبطة والسكينة في النفوس ، ولكن سعادة أهل بيت النبوة باطعام وإعانة الآخرين ، ليوثق القرآن هذه السجايا الحميدة بقوله تعالى ﴿وَيُطْعَمُونَ عَلَىٰ حَيْثُ مَسْكِنًا وَيَتِيمًا وَاسِيرًا﴾^(٢) .

ونزلت الآية أعلاه في علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام لتبين تنزه أهل البيت عن البخل الذي تذكره آية السياق وتدعو سيرتهم المسلمين الى التحلي بشمائل الطيبين الذي تبعث اليها آية البحث ، واجتناب البخل والشح الذي تنهى عنه آية السياق .

لقد رغب النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ثعلبة بالصبر والرضا بما قسم الله خشية الإفتتان بالمال والإنشغال به ، والحرص الشديد عليه ، ودعاه للتحلي بالصفات التي يتحلى بها رسول الله فهي نعمة عظيمة ،

(١) سورة الأحزاب ٢١.

(٢) سورة الأنسان ٨.

ولكن ثعلبة لم يرض بهذا الترغيب ، وقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

ويحك يا ثعلبة قليل تؤدّي شكره خير من كثير لا تطيقه.

ثم أتاه بعد ذلك. فقال : يا رسول الله أدع الله أن يرزقني مالا.
فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : {لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ} ^(١).

فأظهر ثعلبة التقوى وعاهد النبي على إخراج الحقوق الشرعية كاملة من المال الذي سيكون نعمة عليه وعلى ذوي قرياه والمؤمنين ، وقال (فوالذي بعثك بالحق إن آتاني الله مالا لأعطين كل ذي حق حقه) ^(٢) ، حينئذ رفع النبي صلى الله عليه وآله وسلم يديه بالدعاء وقال : اللهم ارزقه مالا .

فعمل ثعلبة بالكسب والتجارة ، واشترى غنماً فجعل الله فيها البركة ، وسارع فيها النمو ، وتكاثرت وصارت تزدد وحتى ضاقت بها أزقة المدينة ، فخرج بها ثعلبة وتنحى عن المدينة الى مكان رحب ، فكان يحضر لصلاة الظهر والعصر مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .
وقد يحضر صلاة الصبح ولكنه لا يحضر صلاة المغرب والعشاء لأنه ينشغل بعودة السرح من المرعى وجمعها وإيوائها .

ثم تضاعفت غنمه بسرعة فاحتاج الى مكان أوسع والى المراعي فابتعد عن المدينة ، فكان لا يشهد الصلاة لا بالنهار ولا بالليل إلا من جمعة إلى جمعة مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ثم نمت كما ينمو الدود فضاق به مكانه فتنحى به ، فكان لا يشهد جمعة ولا جنازة مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فجعل يتلقى الركبان ويسألهم عن الأخبار .

(١) الكشف والبيان ١٨٢/٦.

(٢) الدر المنثور ١٢٠/٥.

وفقده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فسأل عنه ، فأخبروه أنه اشترى غنماً ، وأن المدينة ضاقت به وأخبروه بخبره . فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ويح ثعلبة بن حاطب ^(١) .

لقد حرم ثعلبة نفسه من اللقاء خمس مرات في اليوم مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والتبرك بالطلعة البهية ، وأداء الصلاة بامامته وهي نعمة فتحها الله لأهل بيته وأصحابه ثم انقطعت بانتقاله الى الرفيق الأعلى ، ولم تتجدد أو تأتي أختها الى يوم القيامة ، قال تعالى ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ ^(٢) .

ونزلت آية الصدقات وأمر الله عز وجل النبي محمداً أن يأخذ من المسلمين زكاة أموالهم وينفقها على الفقراء قال تعالى ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلَّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ^(٣) ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رجلين أحدهما من جهينة ، والآخر من بني سلمة يأخذان الصدقات ، وكتب لهما أسنان الغنم والإبل وكيف يقبضان مال الزكاة إذ تجب الزكاة في الإبل إذا كانت سائمة في المرعى المباح ، وبلغت النصاب ، ودار عليها الحول ، وأقل نصاب للإبل الذي تجب فيه الزكاة خمسة .

وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : ليس فيما دون خمسة أوسق من التمر صدقة ، وليس فيما دون خمس

(١) الدر المنثور ١٢٠/٥ .

(٢) سورة الأحزاب ٤٠ .

(٣) سورة التوبة ١٠٣ .

أواق من الورق صدقة ، وليس فيما دون خمس ذود من الإبل صدقة .
وفي لفظ لمسلم : ليس في حب ولا تمر صدقة حتى يبلغ خمسة أوسق^(١) .
وأمرهما النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يمرا على كل من :
الأول : ثعلبة بن حاطب .

الثاني : رجل من بني سليم^(٢) .

إذ صار ثعلبة من أصحاب الأموال بركة دعاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد وعد باعطاء كل ذي حق حقه ، والزكاة حق الفقراء في مال الأغنياء ، فخرج الرجلان ومرا بثعلبة وهما يظنان أنه يبادر الى دفع الزكاة شكراً لله ولبعث الآخرين للاقتداء به ، فسألاه زكاة ماله .
وفيه شاهد بأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يرسل الأمير وجامع الصدقات وغيره إلا بكتاب ، ويبين في الكتاب التفاصيل والشرائط لمنع البجالة والغرر والضرر .

وطلب ثعلبة منهما الذهاب الى غيره لأخذ الزكاة ثم الرجوع إليه ، فانطلقا ، وسمع بهما الرجل الآخر من بني سليم فاستقبلهما بخيار إبله فقالا له : انما يقبل منك أدنى من هذه الإبل إذ يتجنب المصدق أخذ خيار المال لقاعدة لا ضرر ولا ضرار ، ونفي الحرج في الدين ، فقال : ما كنت أتقرب إلى الله إلا بخير مالي ، فقبلا منه ماله ، وأخذ ما يجب عليه من الزكاة وفي طريق العودة إلى المدينة مرا على ثعلبة ، وسألاه زكاة ماله كما أمرهما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (فقال : ارياني كتابكما)^(٣) أي الكتاب الذي كتب لهما رسول الله ويأذن لهما به قبض الصدقات ، وصفات وأسنان وعدد الإبل التي تتعلق بها الزكاة يريد ثعلبة معرفة مقدار الزكاة وعدد الإبل والغنم التي يجب عليه دفعها من مجموع إبله وغنمه التي

(١) الدر المنثور ٢/١٩٠ .

(٢) أنظر الدر المنثور ٥/١٣٠ .

(٣) الدر المنثور ٥/١٢٠ .

ترعى بنفسها الحول كله أو أكثر في النباتات البرية من غير نفقة أو عوض يدفع عن العلف ، ومضي الحول شرط في الزكاة وإذا كانت الغنم أقل من أربعين شاة فلا زكاة فيها ، ولو كانت بين ٤٠ إلى ١٢٠ فزكاتها شاة واحدة وإذا كانت بين ١٢١-٢٠٠ شاة فزكاتها شاتان وهكذا .

لقد نظر ثعلبة بكتاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في المرة الأولى عندما قدم عليه الأنصارى ولكن طلب النظر فيه مرة أخرى عند عودتهما ، وهو ينظر إلى إبل الصدقة التي سلمها لهما السلمي كما أخبراه بأنه دفع لهما خير إبله بقصد القرية إلى الله عز وجل .

ومع أن ثعلبة يدرك بأن الخير الذي عنده بفضل الله وبدعاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم فإن حرصه على المال حال دون أدائه الزكاة الواجبة . ولما نظر ثعلبة بكتب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال (ما هذا إلا جزية . انطلقا حتى أرى رأيي) ^(١).

وفي رواية (ما هذه إلا أخت الجزية ،
إذهبا حتى أرى رأيي) ^(٢) .

فلم يوبخ الأنصارى ثعلبة ، إنما تركاه وعادا إلى المدينة فلما رآهما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال قبل أن يكلمهما : ويل ثعلبة بن حاطب ودعا للمسلمين بالبركة .

وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ * فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ

(١) الدر المنثور ١٢٠/٥ .

(٢) الكشف والبيان للثعلبي ١٨٥/٦ .

مُعْرَضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِم إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١﴾ .

لتبقى قصة ثعلبة هذه دعوة يومية للمسلمين لإخراج الزكاة وزاجراً عن الإمتناع عن دفعها ، أو تسويفه إذ أن الفقراء بانتظار حقهم في مال الغني ومن الإعجاز في الزكاة أن زكاة الغني الواحد قد تكفي لعدة عوائل من الفقراء من غير أن يكون فيها ضرر عليه إنما يحرم نفسه من البركة والثواب العظيم بالإمتناع عن الدفع ويعزل نفسه عن الطيبين والمؤمنين بهذا الإمتناع ، وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال (من أدى زكاة ماله فقد أدى الحق الذي عليه) (٢) .

وبعد نزول الآيات ومعرفة الناس لسببها واستهجانهم لما فعل ثعلبة بادر بعض أقاربه وذهب إليه ، فقال : ويحك يا ثعلبة أنزل الله فيك هذه الآيات وتلاها عليه ، فأصابته الرجفة والندم ثعلبة وقدم على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بزكاة ماله إذ أنه قرأ كتاب النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم مرتين ، وقال : يا رسول الله هذه صدقة مالي .

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إن الله تعالى قد منعني أن أقبل منك ، فجعل ثعلبة يبكي ويحشي التراب على رأسه لهول المصيبة التي حلت به ، وهو يعلم أن ما يلقاه يوم القيامة أشد ، لقد ظن ثعلبة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم يأخذ الإبل منه لحاجة ونحوها ، ولكن النبي امتنع بالوحي عن أخذها لبيان أن الصدقات نفع لصاحبها ، قال تعالى ﴿ هَآأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَخِلُّ وَمَنْ يَخِلُّ

(١) سورة التوبة ٧٥-٧٧.

(٢) الكشف والبيان للثعلبي ١٢٢/٦.

فَإِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْغَنِيُّ وَأَتَمُّ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ^(١).

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لثعلبة قد أمرتك فلم تطعني ، فرجع ثعلبة إلى منزله والحسرة تملأ قلبه ، وقال بعض الفقهاء من لزمته زكاة فمنعها أو غلبها أي كتمها وخان فيها أخذ الإمام أو الساعي الفرض منه (وأما مانع الزكاة فيعزر على كل تقدير إلا أن يكون قريب عهد بالإسلام يخفى عليه وجوبها أو نحوه^(٢)).

والصحيح أنه لا يؤخذ من ماله ولا يعزر إلا أن يرى الإمام والحاكم الشرعي أخذ مقدار الزكاة وماله ، ويدل حديث ثعلبة على عدم الأخذ من ماله ، كما جاءت آية السياق بالذم والتوبيخ لمانع الزكاة ، والوعيد على هذا المنع بالعذاب في الآخرة .

(عن أبي جعفر عليه السلام قال: كان في بني إسرائيل جبار وإنه أقعد في قبره ورد إليه روحه ، فقيل له: إنا جالدوك مائة جلدة من عذاب الله ، قال: لا أطيعها ، فلم يزالوا ينقصونه من الجلد وهو يقول: لا أطيع حتى صاروا إلى واحدة ، قال: لا أطيعها ، قالوا: لن نصرفها عنك ، قال: فلماذا تجلدونني ؟ قالوا: مررت يوما بعبد لله ضعيف مسكين مقهور فاستغاث بك فلم تغثه ولم تدفع عنه قال: فجلدوه جلدة واحدة فامتلا قبره نارا)^(٣).

(١) سورة محمد ٣٨ .

(٢) أنظر النووي (٦٣١-٦٧٦) هجرية / المجموع شرح المذهب .

(٣) البحار ٤٩٢/١٤ .

وبعد أن انتقل النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى الرفيق الأعلى جاء ثعلبة إلى أبي بكر فقال (قد علمت منزلتي من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم موضعي من الأنصار فاقبل صدقتي، فقال أبو بكر : لم يقبلها منك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأنا أقبلها؟

فلم يقبل،

وقبض أبو بكر فلم يقبلها) ^(١).

ثم جاء إلى عمر بن الخطاب وسأله أن يقبل صدقات ابله وغنمه ، ولكن عمر أجابه بذات جواب أبي بكر مع إضافة إذ قال له (لم يقبلها منك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولا أبو بكر، أنا لا أقبلها،

فقبض عمر ولم يقبلها،

ثم ولي عثمان فاتاه فسأله أن يقبل صدقته فقال : لم يقبلها منك رسول الله ولا أبو بكر ولا عمر، أنا لا أقبلها منك،

فلم يقبلها منه وهلك في خلافة عثمان.

وقال ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة : أتى ثعلبة مجلساً من الأنصار فأشهدهم فقال : لئن آتاني الله من فضله أتيت منه كل ذي حق حقه، وتصدقت منه،

ووصلت القرابة،

فمات ابن عم له فورثه مالاً فلم يوف بما قال،

فأنزل الله عز وجل هذه الآية.

وقال مقاتل : مر ثعلبة على الأنصار وهو محتاج،

(١) الكشف والبيان للثعلبي ١٨٦/٦.

فقال : لئن آتاني الله من فضله لأصدقن ولأكونن من الصالحين فاتاه الله من فضله وذلك أن مولى لعمر بن الخطاب قتل رجلاً من المنافقين خطأ فدفع النبي { صلى الله عليه وسلم } ديته إلى ثعلبة ، وكان قرابة المقتول فبخل ومنع حق الله فأنزل الله عز وجل هذه الآية . وقال الحسن ومجاهد : نزلت هذه الآية في ثعلبة بن حاطب ومعتب بن قشير وهما رجلان من بني عمرو بن عوف خرجا على ملأ قعود فقالا : والله لئن رزقنا الله لنصدقن ، فلما رزقهما الله تعالى بخلا (١) .

والآية هي ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (٢) .

وهل البخل بالصدقات من الخبث الذي تذكره آية البحث ، الجواب نعم .

المسألة العاشرة : البخل لغة المنع والإمساك ، ومن أسباب البخل والشح أمور :

الأول : قلة الإيمان .

الثاني : الخشية من الفقر والفاقة .

الثالث : الغفلة عن قانون العوض والبدل من عند الله ، قال تعالى

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٣) .

الرابع : حب المال واستدامة تملكه .

(١) الكشف والبيان للثعلبي ١٨٦/٦ .

(٢) سورة التوبة ٧٥ .

(٣) سورة البقرة ٢٦١ .

الخامس : الظن بأن حجب الحقوق الشرعية نوع فطنة وذكاء .
السادس : إرادة التوفير للأبناء ، والظن بأن الإنفاق قد يؤدي إلى فاقتهم (قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : الولد مبخله محزنة مجبنة) ^(١).
 (وخرج أبو داود حديثاً في مصنفه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يخطب يوم الجمعة على المنبر حتى جاء الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران يجرانهما ، يعثران ويقومان ، فنزل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن المنبر حتى أخذهما ، وصعد بهما ، ثم قرأ ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ ^(٢) الآية ، وقال : إني رأيت هذين فلم أصبر ، ثم أخذ في خطبته) ^(٣).

السابع : حب الحياة وتعدد الأمل فيها .
الثامن : تشعب الأعمال مع كثرة الأموال ، فقد ترى فقيراً قنوعاً راضياً بما قسم الله له ، وترى غنياً يسعى لتحقيق أمل كبناء عمارة وي بذل جهداً ويمسك على نفسه ويمتنع عن إعطاء الحقوق ، ويرجو أن يتم انشاؤها ، ولا يطمع ويرجو غيرها ، حتى إذا ما تم العمل فيها وتحقق له مورد منها سعى في عمل تجاري ومالي جديد أكبر منها ، وهذا الفعل ليس بحرام ولكن بشرط اخراج الزكاة والحقوق الشرعية وتعاهد الفرائض والعبادات ، قال تعالى ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ ^(٤).

(١) النكت والعيون ٢٨٣/٤.

(٢) سورة التغابن ١٥.

(٣) تفسير الثعالبي ١٠٢/٤ .

(٤) سورة النور ٣٦.

التاسع : غلبت الطمع والشح على النفس بما يحبس الجوارح عن إخراج الحقوق ، وبين الشح والبخل عموم وخصوص مطلق ، فكل شح هو بخل وليس العكس ، إذ أن الشح هو البخل مع الحرص .
وفي وصف البخيل ومراتب البخل (رجل بخيل ثم مسك إذا كان شديد الإمساك لماله ، عن أبي زيد .

ثم لحز إذا كان ضيق النفس شديد البخل ، عن أبي عمرو .
ثم شحيح إذا كان مع شدة بخله حريصاً ، عن الأصمعي .
ثم فاحش إذا كان متشدداً في بخله ، عن أبي عبيدة ثم حلز إذا كان في نهاية البخل ، عن ابن الأعرابي^(١) .

ومن البخل منع السائل والمسترفد مع إمكان رفده وقضاء حاجته ، إذ أن الرشد في المقام أعم من المال ، فقد يكون البخل بالجاء ، وقد جاء القرآن والسنة بدم البخل والبخيل .

وعن ابن مسعود قال : لما أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصدقة تصدق أبو عقيل بنصف صاع وجاء إنسان بشئ أكثر منه فقال المنافقون إن الله لغني عن صدقة هذا وما فعل هذا الآخر إلا رياء فنزلت^(٢) .

ومن مصاديق خلافة الإنسان في الأرض أن البخل مذموم في كل ملة وعند كل أمة وقوم ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَشَخَّ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ﴾^(٣) ، فجاءت آية البحث والسياق لتنزيه المسلمين عن البخل والشح .
(قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ثلاثة ييغضهم الله ، ملك كذاب ، وعائل مستكبر ، وغني بخيل)^(٤) .

(١) فقه اللغة ٣٠/١ .

(٢) سنن النسائي ٣٢/٢ .

(٣) سورة السجدة ٩ .

المسألة العاشرة : لقد ذكرت آية البحث متضادين وهما الطيب والخبيث ، وكذا آية السياق فانها ذكرت متضادين وهما الخير والشر مع الاختلاف وهو التعدد في أفراد الطيب والخبيث بينما يتعلق الخير والشر في آية السياق في موضوع متحد ، وهو البخل إذ أخبرت آية السياق عن ظن الذين يبخلون ويمتنعون عن إخراج الزكاة والصدقات بأن هذا البخل خير وفيه حرص على المال وبقائه في ملكيتهم ولم يعلموا أنه وبال عليهم لأنه حق الله الذي فرض إخراجَه ودفعه إلى الفقراء .

ولو شاء الله عز وجل يجعل هذا المال رزقاً يذهب إلى الفقراء من غير أن يمر على أيدي الأغنياء ، ويتوقف على دفعهم وإخراجهم له لفعل ، وقيل تشمل الآية الذين عندهم العلم والبشارة ببعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأخفوا هذه البشارة .

وهل البخل الذي تذكره آية السياق من الخبيث الذي ورد في آية البحث أم أن القدر المتيقن منه هم المنافقون . المختار هو الأول ، فالشر الذي تذكره آية السياق يترتب على البخل ، وهو أعم من أن يختص بعالم الآخرة .

وهل من الشر الذم الوارد للخبيث في آية البحث والسياق ، الجواب نعم ، وذات البخل مذموم ، أما البخل بالحقوق الشرعية وحبس الزكوات فهو حرام مما يدل على أنه من أشد ضروب الخبيث .

المسألة الحادية عشرة : لما أخبرت آية البحث على التمييز بين الطيب والخبيث ، وفصل وعزل الخبيث عن أهل الإيمان والتقوى ، جاءت آية السياق للدلالة على وجوب زكاة الأموال إذ أنها أحد أركان الإسلام ، وإجماع المسلمين على وجوبها وحرمة تركها ، ونعت الذي ينكر وجوبها مع علمه به كافراً ، ووردت أحاديث نبوية تدل على الضرر الفادح الذي ينزل بمن يمتنع عن الزكاة ، كما وردت أحاديث بالترغيب بدفعها .

(وأخرج أبو داود والطبراني عن عبد الله بن معاوية الفاخري قال : قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : ثلاث من فعلهن فقد طعم طعم الإيمان : من عبد الله وحده وأنه لا إله إلا الله ، وأعطى زكاة ماله طيبة بها نفسه وافرة عليه كل عام ، ولم يعط الهرمة ، ولا الذرية^(١) ، ولا المريضة ، ولا الشرط اللثيمة^(٢) ، ولكن من وسط أموالكم فإن الله لم يسألكم خيره ولا يأمركم بشره^(٣)).

وعن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم (كل ما أدت زكاته فليس بكنز)^(٤).

(ما فضل من مال الرجل عن حاجة نفسه فهو كنز)^(٥). وفيه تخفيف عن المسلمين ودعوة لتعاهد أموالهم التي يدفعون زكاتها من غير حرج عليهم ، لتكون عضداً لهم وميراثاً لذريتهم ، وفي قوله تعالى ﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾^(٦) وجوه منها : إخراج رب المال جزءاً من ماله أكثر من حد الزكاة وبما يكون إجحافاً في حقه .

(وقد روى سعد بن سنان عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : الْمُعْتَدِي فِي الصَّدَقَةِ كَمَا نَعَهَا وَقِيلَ : إِنَّهَا نَزَلَتْ فِي ثَابِتِ بْنِ قَيْسِ بْنِ شِمَاسٍ وَقَدْ تَصَدَّقَ بِجَمِيعِ ثَمَرَتِهِ حَتَّى لَمْ يَبْقَ فِيهَا مَا يَأْكُلُهُ)^(٧).

(١) أي الهزيلة ، والرذني : الضعيف من كل شئ.

(٢) اللثيمة أي الرديئة.

(٣) الدر المنثور ٢/٢٠٠ .

(٤) المحرر الوجيز ٢/٢٤٨.

(٥) المحرر الوجيز ٣/٢٤٨.

(٦) سورة الأنعام ١٤١.

(٧) سورة الأنبياء ١٠٧.

وهل الإسراف في الأكل والإنفاق بما يمنع من تحقق النصاب واخراج زكاته من البخل بالحقوق الشرعية الذي تذكره آية السياق ، والخبث الذي تذكره آية السياق .

الجواب لا دليل عليه لأن تحصيل مقدمة الواجب ليس بواجب إلا أن يكون هذا الإسراف عن عمد بقصد حرمان الفقراء حقوقهم ، وما يحرم صاحب المال نفسه من الثواب على دفع الزكاة أعظم ، لذا قالت الآية قبل السابقة ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(١).

فصحيح أن الآية أعلاه ذكرت الذين اختاروا الكفر بالتفريط بالإيمان الواجب والمقرون بالفطرة وأصل الخلقة ، وهو علة وجود الإنسان على الأرض ، إلا أن عدم القدرة أعم فيشمل الذين ييخلون بفضل الله من باب الأولوية القطعية .

المسألة الثانية عشرة : ذكرت آية السياق فضل الله على الناس ومنهم أصحاب الأموال بقوله تعالى ﴿الَّذِينَ يَخْلُونِ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾^(٢) فهل الخبيث أو الخبثاء الذين تذكرهم آية البحث من الذين آتاهم الله من فضله وإحسانه .

الجواب نعم ، إذ أن بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم نعمة ورحمة ، قال تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٣)

وتضمنت آية البحث البعث على الإيمان بالله والتصديق بالأنبياء والرسل على نحو العموم الإستغراقي ، قال تعالى ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾^(١) .

(١) سورة آل عمران ١٧٧.

(٢) سورة آل عمران ١٨٠.

(٣) سورة آل عمران ١٧٧.

وهل الإيمان بالله ورسله الذي تذكره آية البحث حرز وواقية من البخل وحبس الزكاة والحقوق الشرعية ، الجواب نعم ، وهو من الإعجاز في معاني ورشحات الإيمان إذ أن الإيمان بالله تصديق بكتابه وعمل بالأحكام السماوية ، والتصديق بالرسل وبعثة الأنبياء .
وقيل أن الزكاة غير واجبة على الأنبياء وادعي عليه الإجماع واستدل عليه بأمور :

الأول : الزكاة تطهير من الدنس ، والأنبياء منزهون عنه .

الثاني : عصمة الأنبياء عن الرذائل والكسب الحرام .

الثالث : إنما الزكاة مفروضة على أمم الأنبياء .

الرابع : ما في أيدي الأنبياء ودائع الله .

الخامس : ليس من ملك للأنبياء .

والمختار وجوب الزكاة على الأنبياء لقوله تعالى ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فَعَلِ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ﴾^(١) ، ومن خصائص الأنبياء أنهم الأئمة في أداء الفرائض والعبادات.

ولو دار الأمر في الآية أعلاه بين شمول الأنبياء بالزكاة أو عدمه ، فالمختار هو الأول ، وفرض الصلاة والزكاة تشريف وإكرام للعباد لذا فإن الأنبياء أولى بهما لتضاف لهذا التشريف إكرام الله عز وجل لهم بالنبوة . وفي عيسى ورد قوله تعالى ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾^(٢) .
والأصل عدم التفكيك بين الصلاة والزكاة في الآية أعلاه ، وتقديرها على وجوه :

الأول : أمرني الله بأدائي للصلاة ودفعي للزكاة عند تحقق النصاب .

(١) سورة آل عمران ١٧٩.

(٢) سورة الأنبياء ٧٣.

(٣) سورة مريم ٣١.

الثاني : أوصاني الله بالدعوة إلى الصلاة والزكاة .

الثالث : أوصاني الله بأمر أنصاري واتباعي بإقامة الصلاة وإتيان

الزكاة ، ليكون من معاني ما ورد في التنزيل على لسان عيسى ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾^(١).

أي أنصار الله في إقامة الصلاة وإخراج الزكاة وأمر الناس بهما.

(عن محمد بن ليلى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للنقباء :

أنتم كفلاء على قومكم ككفالة الخواريين لعيسى ابن مريم)^(٢).

والخواريون الخواص والأصفياء (وأخرج عبد بن حميد وعبد الرزاق

وابن المنذر عن قتادة في قوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ﴾^(٣) ، قال : قد

كان ذلك بحمد الله جاءه سبعون رجلاً فبايعوه عند العقبة ، فنصروه وآووه

حتى أظهر الله دينه ولم يسمّ حيّ من السماء قط باسم لم يكن لهم قبل

ذلك غيرهم ، وذكر لنا أن بعضهم قال :

هل تدرون ما تباعون هذا الرجل ، إنكم تباعونه على محاربة العرب

كلها أو يسلموا ، وذكر لنا أن رجلاً.

قال : يا نبي الله اشترط لربك ولنفسك ما شئت ، فقال : أشرتط لربي

أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأشرتط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه

أنفسكم وأبناءكم ، قالوا : فإذا فعلنا ذلك فما لنا يا نبي الله .

قال : لكم النصر في الدنيا والجنة في الآخرة : ففعلوا ، ففعل

الله.. الحديث^(٤).

(١) سورة الصف ١٤.

(٢) الدر المنثور ٩/٤٩٨.

(٣) سورة الصف ١٣.

(٤) الدر المنثور ٩/٤٩٨.

ولقد أمر الله عز وجل المؤمنين والناس جميعاً بالإقتداء بالأنبياء ، قال تعالى ﴿فَبِهْدَاهُمْ أَقْدَهُ﴾^(١).

وإن قيل هل أخرج النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم زكاة ماله ، والجواب ليس عنده مال يدور عليه الحول لا عن فقر وفاقة ولكنه يوزع ما يأتيه من الخمس والأنفال ، قال تعالى ﴿الْأَنْفَالُ قُلُوبُ الْأَنْفَالِ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(٢).

وكان يقبض النبي صلى الله عليه وآله وسلم ما قسم الله له فيرده على المسلمين .

وعن الإمام الباقر عليه السلام قال : كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله مؤمن فقير شديد الحاجة من أهل الصفة ، وكان ملازماً لرسول الله صلى الله عليه وآله عند مواقيت الصلاة كلها ، لا يفقده في شئ منها ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يرق له وينظر إلى حاجته وغربته ، فيقول : يا سعد لو قد جاءني شئ لا غنيتك ، قال : فأبطأ ذلك على رسول الله صلى الله عليه وآله فاشتد غم رسول الله صلى الله عليه وآله لسعد ، وهو غير الصحابي سعد بن أبي وقاص .

فعلم الله سبحانه ما دخل على رسول الله صلى الله عليه وآله من غمه لسعد ، فأهبط عليه جبرئيل ومعه درهمان فقال له : يا محمد إن الله عز وجل قد علم ما قد دخلك من الغم بسعد أفتحب أن تغنيه ، فقال : نعم ، فقال له : فهالك هذين الدرهمين فأعطهما إياه ، ومره أن يتجر بهما ، قال : فأخذهما رسول الله صلى الله عليه وآله ثم خرج إلى صلاة الظهر ، وسعد قائم على باب حجرات رسول الله صلى الله عليه وآله ينتظره .

(١) سورة الأنعام ٩٠.

(٢) سورة الأنفال ١.

فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وآله قال : يا سعد أتحسن التجارة ، فقال له سعد : والله ما أصبحت أملك مالا أتجر به ، فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وآله الدرهمين وقال له : اتجر بهما وتصرف لرزق الله تعالى ، فأخذهما سعد ومضى مع النبي صلى الله عليه وآله حتى صلى معه الظهر والعصر .

فقال له النبي صلى الله عليه وآله : قم فاطلب الرزق فقد كنت بحالك مغتما يا سعد ، قال : فأقبل سعد لا يشتري بدرهم شيئا إلا باعه بدرهمين ولا يشتري شيئا بدرهمين إلا باعه بأربعة .

وأقبلت الدنيا على سعد فكثر متاعه وماله وعظمت تجارته ، فاتخذ على باب المسجد موزعا وجلس فيه وجمع تجايره إليه ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا أقام بلال الصلاة يخرج وسعد مشغول بالدنيا لم يتطهر ولم يتهيأ كما كان يفعل قبل أن يتشاغل بالدنيا ، فكان النبي صلى الله عليه وآله يقول : يا سعد شغلتك الدنيا عن الصلاة .

فكان يقول : ما أصنع اضيع مالي ، هذا رجل قد بعته فأريد أن أستوفي منه ، وهذا رجل قد اشتريت منه فأريد أن أوفيه ، قال : فدخل رسول الله صلى الله عليه وآله من أمر سعد غم أشد من غمه بفقره ، فهبط عليه جبرئيل عليه السلام .

فقال : يا محمد إن الله قد علم غمك بسعد ، فأيا أحب إليك ، حاله الأولى أو حاله هذه ، فقال له النبي صلى الله عليه وآله : يا جبرئيل بل حاله الأولى قد ذهبت دنياه بآخرته ، فقال له جبرئيل عليه السلام : إن حب الدنيا والاموال فتنة ومشغلة عن الآخرة ، قل لسعد : يرد عليك الدرهمين اللذين دفعتهما إليك ، فإن أمره سيصير إلى الحال التي كان عليها أو لا .

قال فخرج النبي صلى الله عليه وآله فمر بسعد فقال له : يا سعد أما تريد أن ترد علي الدرهمين اللذين أعطيتكهما ، فقال سعد : بلى ومأتين فقال له

: لست أريد منك يا سعد إلا الدرهمين، فأعطاه سعد درهمين، قال: فأدبرت الدنيا على سعد حتى ذهب ما كان جمع وعاد إلى حاله التي كان عليها^(١).

المسألة الثالثة عشرة : اختتمت آية البحث بالإخبار عن الأجر والثواب للمسلمين إذا آمنوا واتقوا الله .

وأخرج الاصبهاني في الترغيب عن ابن أبي نجيح قال : قال سليمان بن داود عليهما السلام : أوتينا مما أوتي الناس ومما لم يؤتوا ، وعلمنا مما علم الناس وما لم يعلموا ، فلم نجد شيئاً هو أفضل من تقوى الله في السر والعلانية ، والعدل في الرضا والغضب ، والقصد في الغنى والفقر .
وأخرج الأصبهاني عن زيد بن أسلم قال : كان يقال : من اتقى الله أحبه الناس وإن كرهوا^(٢).

والمراد من الأجر العظيم في الآية الإقامة الدائمة في الجنة وذكرت آية السياق يوم القيامة ، ولكن بصيغة الإنذار للذين يخلون بما آتاهم الله ، ويمتنعون عن أداء الزكاة .

ومن إعجاز آية السياق أن ذكرهم للآخرة لم ينحصر بالوعيد للذين كفروا والعذاب الذي يلقيه الذين يمسكون الحقوق الشرعية بخلاً وعناداً ، إنما يشمل الوعد الكريم للذين يخرجون زكاة أموالهم بقصد القربة إلى الله إذ ورد في آية السياق ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٣).

وهل في قوله أعلاه دعوة للناس لإخراج زكاة أموالهم والإمتناع عن البخل والشح ، الجواب نعم ، إذ أن أموال الإنسان وإن كثرت فلا بد أن تفارقه أو يفارقها .

(١) البحار ٢٢/١٢٢.

(٢) الدر المنثور ١/٤٤٤.

(٣) سورة الحديد ١٠.

فان قلت قد يفارقها وتكون تركة لورثته المتعديدين ، الجواب ذات حكم المفارقة نفسه ينطبق على الورثة مع زيادة في الإلتعاض من قبل الورثة (عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "يقبض الله الأرض ويطوي السموات يمينه، ويأخذ الأرضين بيده الأخرى، ثم يقول: أنا الملك، أنا الديان، أين ملوك الأرض، أين الجبارون، أين المتكبرون")^(١).

المسألة الرابعة عشرة : أختتمت آية السياق بقوله تعالى ﴿وَاللَّهُ بِمَا

تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾^(٢) ليكون من معانيها بلحاظ آية البحث وجوه :

الأول : يعلم الله عز وجل بوجود أمة مؤمنة يعملون الصالحات .

الثاني : الإختلاط العام بين المؤمنين والمنافقين وغيرهم .

الثالث : حرص المنافقين على إخفاء ما يضمرون من الكفر والحسد

للمؤمنين ، وتمني غلبة وظهور المشركين .

الرابع : يفضل الله عز وجل بفصل وعزل المنافقين عن المؤمنين .

وهل يقدر غير الله عز وجل على فصل الخبيث عن الطيب ، الجواب

لا ، لذا تبين آية البحث إعجازاً في الخلق والحال الإجتماعية بين الناس ،

وهذا الفصل والتمييز مستمر الى يوم القيامة ، وهو من مصاديق صيغة

المضارع التي جاءت بها آية البحث .

والتمييز بين الطيب والخبيث مطلوب لذاته ولغيره ، وأيهما أكثر في

المقام الذات أم الغير ، الجواب هو الثاني ، وهو من عمومات قوله تعالى

﴿سُئِرِهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ

أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾^(٣).

(١) تفسير ابن كثير ١/١٣٤.

(٢) سورة آل عمران ١٨٠.

(٣) سورة فصلت ٥٣.

الخامس : تنبيه المؤمنين أنه بعد الفصل والعزل بينهم وبين غيرهم لابد لهم من العمل الصالح وتعاهد الواجبات العبادية ، لقد فصل الله بينهم وبين المنافقين كيلا يقعدوا عن الدفاع وعن أداء الصلاة في أوقاتها وعن دفع الزكاة وصيام شهر رمضان إذ تجب المبادرة إليه حالما تتم رؤية هلاله ، قال تعالى ﴿فَنَسِْءَ شَهْرٍ مِّنْكُمْ الشَّهْرَ فَلْيَصْنَعُوْهُ﴾^(١).

الوجه الثاني : صلة آية البحث بقوله تعالى ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللّٰهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللّٰهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْاَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلُ ذُوْقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾^(٢) وفيه مسائل :

المسألة الأولى : لقد نزلت آيات القرآن بوجوب دفع الزكاة ، والحث على الصدقات ، وأن الله عز وجل هو الذي يأخذها بيده قبل أن تصل إلى الفقير ، وفيها الثواب العظيم ، وأخبرت الآيات عن الصدقة ، وكأنها إقراض لله عز وجل يكون وفاؤه بالثواب العظيم في الآخرة ، فقال تعالى ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللّٰهَ قَرْضًا﴾^(٣).

وعن ابن عباس فنحاص بن عازوراء قال : ان الله فقير يستقرض منا ونحن أغنياء^(٤).

وهل هذا القول من تمييز وعزل الخبيث عن الطيب ، الجواب نعم فتفضل الله عز وجل وأخبر عنه في آية السياق لحث المسلمين على المبادرة

(١) سورة البقرة ١٨٥.

(٢) سورة آل عمران ١٨١.

(٣) سورة الحديد ١١.

(٤) أنظر الكشف والبيان ٣/٣٠٢.

إلى طاعة الأوامر الإلهية ، قال تعالى ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾^(١) وهذه المبادرة من الطيب في القول والفعل .

المسألة الثانية : من معاني الجمع بين آية البحث والسياق تلقي المؤمنين الأوامر الإلهية بالقبول والرضا والإمثال ، ولا يقولون إلا ما يرضي الله عز وجل ، وهم يعلمون أنه سامع لكل كلام ، وفي التنزيل ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنْ أَلَّ اللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^(٢) .

ومن معاني آية البحث بلحاظ آية السياق وجوه :
الأول : المؤمنون لا يقولون أن الله فقير ، إنما يسلمون بالغنى المطلق له سبحانه ، ويقرون بأن بيده خزائن السموات والأرض ، والتي لا تنفذ أبداً .

الثاني : يتفضل الله عز وجل بأخبار المسلمين عن القول الخبيث لإجتنابه .

الثالث : إرادة قيام المسلمين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .
الرابع : جعل الله آيات القرآن مدداً للمسلمين في تعيين الخبيث لبعث النفرة منه (وأخرج أحمد وأبو داود عن معاوية بن سفيان : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن أهل الكتابين افترقوا في دينهم على إثنتين وسبعين ملة ، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة ، يعني الأهواء كلها في النار إلا واحدة . وهي الجماعة)^(٣) .

(١) سورة آل عمران ١٣٢ .

(٢) سورة غافر ٢٠ .

(٣) الدر المنثور ٤٠٢/٢ .

الخامس : يسمع الله كلام المنافقين فيفضحهم ، وهذا الفضح رحمة بهم وبغيرهم فهو سبيل لتوبتهم ، وتحذير للناس منهم ، وفيه عزل لهم ، ودم لأفعالهم.

السادس : التحذير للمسلمين والمسلمات بأن الله عز وجل يسمع كلام الإنسان ، مما يملئ عليه التنزه عن الخبيث ، قال تعالى ﴿وَإِنْ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾^(١) ، وقال أبو مجلز: جاء رجل من مراد إلى علي، رضي الله عنه، وهو يصلي، فقال: احترس، فإن ناساً من مراد يريدون قتلك .

فقال: إن مع كل رجل ملكين يحفظانه مما لم يقدر، فإذا جاء القدر خليا بينه وبينه، وإن الأجل جنة حصينة^(٢).

ليكون من مصاديق ومنافع آية السياق عزل المسلمين والمسلمات عن الكلام الخبيث لأن كل واحد منهم يريد ان يسمع الله عز وجل منه الكلام الطيب.

السابع : أخبرت الآية عن كتابة وتدوين أقوال الذين استهزءوا بالتنزيل بسبب الأمر بالزكاة ، مما يدل على قانون حفظ الله عز وجل لأقوال بني آدم ، وفيه بعث على قول الحق والخير والصدق والأمر بالمعروف ، قال تعالى ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾^(٣) .

المسألة الثالثة : تقدير الجمع بين آية البحث والسياق : لقد سمع الله قول الذين قالوا أن الله فقير فما كان الله ليذر المؤمنين على ما انتم عليه ، لبيان حاجة المسلمين وأهل الأرض إلى عزل الخبيث عن الطيب .

(١) سورة الطلاق ١٠-١٢.

(٢) تفسير ابن كثير ٤/٤٢٩.

(٣) سورة البقرة ٨٣.

لقد أحب الله عز وجل الناس فرزقهم الخلافة في الأرض ، وهل هذه الخلافة من أسباب حب الله عز وجل للناس ، الجواب نعم ، ولا يلزم الدور بينهما ، فلما جعل الله عز وجل الإنسان خليفة في الأرض فانه سبحانه أحب الناس .

وما اختيار الرسل من بينهم ونزول الملائكة بالوحي والكتاب عليهم إلا من حب وإكرام الله لجنس البشر .

وبين الوحي والكتاب عموم وخصوص مطلق ، فكل كتاب هو وحي وليس العكس ، ولما سمع الله قول الذين ردوا على الوحي بالإستهزاء وقول أن الله فقير تفضل الله عز وجل وأخبر المسلمين عن هذا القول ليكون هذا الإخبار من مصاديق قوله تعالى ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَيْثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾^(١).

ولما قال بعضهم ان الله فقير ، لم يترك الله عز وجل هذا الكلام بل أنزله بالقرآن ليكون وثيقة إلى يوم القيامة ولتحذر آية السياق منه ، وتكون يوم القيامة شاهداً عليه ، وفيه زجر للناس في كل زمان عن هذا القول ، وفيه دعوة لهم للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومن معاني ودلالات آية السياق أنها استتصلت القول ان الله فقير.

المسألة الرابعة : من أسماء الله عز وجل (الغني) وورد في القرآن ثماني عشرة مرة منها قوله تعالى ﴿ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَاءُ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴾^(٢) لبيان أن الله غني كريم ، وأن غناه رحمة للناس والخلائق ، ومن رحمته تعالى فصل المؤمنين عن المنافقين بحمل المنافقين على إظهار وكشف ما يضمرون من الخبث

(١) سورة آل عمران ١٧٩.

(٢) سورة الأنعام ١٣٣.

والكفر ، إذ أن النفاق لا ينحصر باخفاء الكفر وحده مع إعلان الإسلام ،
فما يخفيه المنافقون في نفوسهم على وجوه :

الأول : الكفر والجحود بالربوبية .

الثاني : عدم التصديق بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم والتردد فيه .

الثالث : إنكار المعجزات ونسبتها إلى السحر .

الرابع : الإفتراء ، قال تعالى ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾^(١).

الخامس : بث الإشاعات المغرضة ، قال تعالى ﴿ لَنْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴾^(٢) أي يفترون الكذب ويشيرون الشكوك في حياة المسلمين ، وإذا خرجت كتيبة أو سرية دفاع (يوقعون في الناس أنهم قتلوا وهزموا ، وكانوا يقولون : قد أتاكم العدو ونحوها)^(٣).

والغني في كلام العرب صاحب المال والسعة والذي لا يحتاج غيره في المال ، ولكن ليس بين الناس من يكون غناه متعدداً ومطلقاً ولو آن ما ، فحتى الملك صاحب الأموال فانه يحتاج الأموال والمال والأنصار والجنود ، ومن يضبط له مملكته ويدير أمورها ، ويحتاج إلى المشورة والرأي السديد ، وفي ذات الوقت يخشى منهم على نفسه وملكه ، وقد يبطش بهم .
وقد يصاب الغني بالفقر والفاقة ، فمن ضروب الإبتلاء في الحياة الدنيا أن أموال الإنسان في زيادة أو نقصان ، وقد تتعرض للتلف .

(١) سورة الصف ٧.

(٢) سورة الأحزاب ٦٠.

(٣) الكشف والبيان للثعلبي ١١/١٧٧.

فجاءت آية البحث لتبث على الإيمان ، وتبين أن دفع الزكاة والحقوق الشرعية أمر حسن وفعل محمود ، وواقية من البخل والشح وسلامة من الخبث.

لقد جعل الله عز وجل الحاجة ملازمة لعالم الإيمان ، ليكون حال الإنسان وفق القياس الإقتراني :

الكبرى : كل ممكن محتاج .

الصغرى : الإنسان ممكن .

النتيجة : الإنسان محتاج .

والله هو الغني ، وينفرد بالغنى المطلق المتصل والدائم ، وفي التنزيل ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾^(١).

(عن أبي ذر عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما روى عن الله عز وجل أنه قال يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم. يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم.

يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً.

يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئاً يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد وسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المحيط إذا أدخل البحر.

يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه^(١).

ومن غنى الله سبحانه جعل المؤمنين غير محتاجين للمنافقين وأهل الخبث والفسوق والفجور ، وهو من معاني فصل وعزل الخبيثين والخبائث عنهم ، قال تعالى ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(٢).

فإن الله عز وجل هو الغني الذي يجعل أوليائه في غنى في الدنيا ، ومن يحرم من الغنى في الدنيا منهم يرزقه الله في الآخرة النعيم الدائم ويجعله مقيماً في الجنة (عن سليم بن عامر عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: الجنة مائة درجة : فأولها من فضة أرضها فضة ، ومسكنها فضة ، وآنياتها فضة ، وترابها مسك .

والثانية من ذهب أرضها ذهب ، ومسكنها ذهب ، وآنياتها ذهب ، وترابها مسك .

والثالثة لؤلؤ أرضها لؤلؤ ، وآنياتها لؤلؤ ، وترابها مسك . وسبع وتسعون بعد ذلك ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر^(٣).

وهل من معاني الإيمان في آية ﴿وَإِنْ تُؤْمِنُوا﴾^(١) أي وان تؤمنوا بأن الله الله هو الغني أم يكفي الإيمان الإجمالي ، الجواب هو الأول وكل انسان

(١) الجمع بين الصحيحين ١٥٧/١.

(٢) سورة الأعراف ١٥٧.

(٣) الدر المنثور ١٢٢/٥.

على هذا الفهم والتدبر فلذا وجبت القراءة في الصلاة وما فيها من الشواهد والدلالة على غنى الله ، وندب النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم المسلمين والمسلمات إلى معرفة الأسماء الحسنی ، وفيها تفقه في الدين ونوع عبادة وقربة إلى الله .

(عن ابن عباس وابن عمر قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة غير واحد ، من أحصاها دخل الجنة .

(وأخرج أبو نعيم عن ابن عباس وابن عمر قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لله تسعة وتسعون اسماً ، من أحصاها دخل الجنة وهي في القرآن .

وأخرج أبو نعيم عن محمد بن جعفر قال : سألت أبي جعفر بن محمد الصادق عن الأسماء التسعة والتسعين التي من أحصاها دخل الجنة؟ فقال : هي في القرآن .

ففي الفاتحة خمسة أسماء . يا الله ، يا رب ، يا رحمن ، يا رحيم ، يا مالك .

وفي البقرة ثلاثة وثلاثون اسماً : يا محيط ، يا قدير ، يا عليم ، يا حكيم ، يا علي ، يا عظيم ، يا تواب ، يا بصير ، يا ولي ، يا واسع ، يا كافي ، يا رؤوف ، يا بديع ، يا شاکر ، يا واحد ، يا سمیع ، يا قابض ، يا باسط ، يا حي ، يا قيوم ، يا غني ، يا حميد ، يا غفور ، يا حلیم ، يا إله ، يا قريب ، يا مجيب ، يا عزيز ، يا نصير ، يا قوي ، يا شديد ، يا سريع ، يا خبير .

وفي آل عمران : يا وهَّاب ، يا قائم ، يا صادق ، يا باعث ، يا منعم ، يا متفضل .

وفي النساء : يا رقيب ، يا حسيب ، يا شهيد ، يا مقيت ، يا وكيل ، يا علي ، يا كبير .

وفي الأنعام : يا فاطر ، يا قاهر ، يا لطيف ، يا برهان .

وفي الأعراف : يا محيي ، يا مميت .

وفي الأنفال : يا نعم المولى ، يا نعم النصير .

وفي هود : يا حفيظ ، يا مجيد ، يا ودود ، يا فعال لما يريد .

وفي الرعد : يا كبير ، يا متعال .

وفي إبراهيم : يا منان ، يا وارث .

وفي الحجر : يا خلاق .

وفي مريم : يا فرد .

وفي طه : يا غفار .

وفي قد أفلح : يا كريم .

وفي النور : يا حق ، يا مبين .

وفي الفرقان : يا هادي .

وفي سبأ : يا فتاح .

وفي الزمر : يا عالم .

وفي غافر : يا غافر ، يا قابل التوبة ، يا ذا الطول ، يا رفيع .

وفي الذاريات : يا رزاق ، يا ذا القوة ، يا متين .

وفي الطور : يا بر .

وفي اقتربت : يا ملك ، يا مقتدر .

وفي الرحمن : يا ذا الجلال والإكرام ، يا رب المشرقين ، يا رب

المغربين ، يا باقي ، يا مهيمن .

وفي الحديد : يا أول ، يا آخر ، يا ظاهر ، يا باطن .

وفي الحشر : يا ملك ، يا قدوس ، يا سلام ، يا مؤمن ، يا مهيمن ، يا

عزیز ، يا جبار ، يا متكبر ، يا خالق ، يا باریء ، يا مصور .

وفي البروج : يا مبدىء ، يا معيد ، وفي الفجر : يا وتر .
وفي الإخلاص : يا أحد ، يا صمد ^(١) .

المسألة الخامسة : أخبرت آية البحث عن فصل وعزل المنافقين والفساق عن المؤمنين ، وبالإمكان التدبر في آية السياق ، وهل فيها مصداق لتمييز الخبيث عن الطيب ، والمنافقين عن المؤمنين ، الجواب نعم .
وأبتدأت الآية بمصداق لهذا التمييز باخبارها عن سماع الله عز وجل لقول المنافقين الذين احتجوا على امر الله عز وجل بالزكاة والترغيب فيها والإخبار بأنها إقراض لله عز وجل ، ليكون المراد من قوله تعالى ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ ^(٢) وجوه :

الأول : مجئ البدل والقضاء والوفاء من الله في الحياة الدنيا ، وهل هو من عمومات قوله تعالى ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ مَثَلًا﴾ ^(٣) الجواب نعم ، وتأتي هذه الأمثال في الدنيا وتنتظر صاحب الحسنة أضعافها في الآخرة .
(عن جابر بن عبد الله قال : إن آدم لما أهبط إلى الأرض ، هبط بالهند وإن رأسه كان ينال السماء ، وإن الأرض شكت إلى ربها ثقل آدم ، فوضع الجبار تعالى يده على رأسه ، فانحط منه سبعون ذراعاً ، وهبط معه بالعجوة ، والاترنج ، والموز ، فلما أهبط .

قال : رب هذا العبد الذي جعلت بيني وبينه عداوة ، إن لم تعني عليه لا أقوى عليه .

قال : لا يولد لك ولد إلا وكلت به ملكاً قال : رب زدني قال : أجازي بالسيئة السيئة ، وبالحسنة عشر أمثالها إلى ما أزيد قال : رب زدني قال : باب التوبة له مفتوح ما دام الروح في الجسد .

(١) الدر المنثور ٤/٣٧٦ .

(٢) سورة البقرة ٢٤٥ .

(٣) سورة الأنعام ١٥٩ .

قال إبليس : يا رب هذا العبد الذي أكرمته إن لم تعني عليه لا أقوى عليه قال : لا يولد له ولد إلا ولد لك ولد قال : يا رب زدني قال : تجري منه مجرى الدم ، وتتخذ في صدورهم بيوتاً قال : رب زدني قال ﴿ أَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخُلُكٍ وَرَجَلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ﴾^{(١)(٢)}.

الثاني : الترغيب بالإنفاق في سبيل الله ، وإعانة الفقراء .

الثالث : الوعد الكريم من عند الله ، ويحتمل الجزاء والمضاعفة وجوهاً :

الأول : المراد الجزاء والثواب في الحياة الدنيا .

الثاني : إرادة الجزاء والثواب في الآخرة ، وهي دار الثواب .

الثالث : المعنى والعنوان الجامع في الدنيا والآخرة .

ولا تعارض بين هذه الوجوه وكلها من مصاديق الآية الكريمة ، فإن قيل الدنيا دار عمل من غير جزاء ، والآخرة دار جزاء من غير عمل الجواب إن المضاعفة بالمال للمؤمنين مناسبة للعمل الصالح وللتحضيض على فعل الخير .

لقد أخبرت آية السياق عن سماع الله عز وجل لقول الذين قالوا (إن الله فقير) فنزلت هذه الآية بفضحهم ولبعث المؤمنين على إعلان التسليم بأن الله هو الغني ، وحثهم على المبادرة إلى الإنفاق في طاعة الله ، واحتسابه قرضاً وتجارة مع الله ، قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ﴾^(٣).

(١) سورة الاسراء ٦٤ .

(٢) الدر المنثور ٨٥/١ .

(٣) سورة فاطر ٢٩ .

إعجاز الآية الذاتي

ابتدأت آية البحث بصيغة النفي لتأكيد قانون وهو إحاطة الله عز وجل بكل شئ علماً ، وقدرته على كشف الحقائق في الدنيا والآخرة ، ومعرفة الإنسان لنفسه من جهة الإيمان أو ضده ، وإطلاع الناس على هذه الحقيقة ، وتحتمل النسبة بينهما وجوهاً :

الأول : نسبة التساوي ، فما يعرفه الإنسان عن نفسه مما يضره ويعلنه يعرفه الناس أيضاً .

الثاني : نسبة العموم والخصوص المطلق ، وهو على شعبتين :
الأولى : ما يعرفه الإنسان عن نفسه أكثر وأعم مما يعلمه الناس عنه .

الثانية : ما يعلمه الناس عن الفرد الواحد منهم أكثر مما يعرفه عن نفسه .

الثالثة : نسبة العموم والخصوص من وجه ، فهناك مادة للإلتقاء وأخرى للإفتراق بينهما ، فهناك أمور يعرفها الإنسان وغيره عن نفسه ، وهناك أمور يعرفها صاحبها ، ولا يعلم بها غيره ، قال تعالى ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾^(١) وهناك أمور تخصه يعلم بها الناس وهو لا يعلمها وأن كانت من سجاياء .

والصحيح هو الشعبة الأولى من الوجه الثاني أعلاه سترأ من الله عز وجل للناس جميعاً ، ودعوة لهم للتدارك والإنابة والله وحده هو الذي يعلم ما في النفوس عسى وتذره الى الله ورد في التنزيل ﴿تَعْلَمُ مَا فِي

نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ^(١)، لذا تتضمن آية البحث دعوة كل إنسان أن يعرف نفسه وأن يحرص على بلوغ مراتب الإيمان ، وتؤكد آية البحث عدة قوانين منها :

الأول : قانون الإمتحان والابتلاء حتى التمييز والفصل .

الثاني : قانون التمييز بين المؤمن والمنافق في عالم الأفعال .

الثالث : قانون الحجة والبرهان ، قال تعالى ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ

الْبَالِغَةُ﴾^(٢).

الرابع : قانون تفضل الله باختيار الأنبياء والرسل .

الخامس : قانون انفراد الله عز وجل بالإحاطة بعلوم الغيب .

السادس : قانون وجوب الإيمان بالله ورسله .

السابع : قانون الأجر العظيم على الإيمان والتقوى .

ومن الخبيث عبادة الأصنام والميل إليها ، فنزل القرآن بدم هذه العبادة ، وجاهد النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه لتنزيه الأرض منها ، وليكون في آية البحث مصداق لدعوة إبراهيم ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾^(٣)، لذا أختتمت آية البحث بالأمر باخلاص العبادة لله عز وجل.

ويمكن تسمية آية البحث آية (ليذر) ولم يرد هذا اللفظ والفعل (يذر) من

غير لام في القرآن إلا في آية البحث .

(١) سورة المائدة ١١٦.

(٢) سورة الأنعام ١٤٩.

(٣) سورة إبراهيم ٣٥.

إعجاز الآية الغيري

لقد بدأ الإسلام غريباً نزل الوحي على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في مكة فآمن به نفر من أهل بيته ، ومن أهل مكة ، وتلقته قريش بالإنكار من جهات :

الأول : الجحود بالربوبية

الثاني : تقديس وعبادة الأصنام والإنتقطاع عليها ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّوهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾^(١).

الثالث : تكذيب التنزيل.

الرابع : التشكيك بنبوّة محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

الخامس : الإعراض عن معجزات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم الحسية .

السادس : رمي النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالسحر والجنون ، وفي التنزيل ﴿قَالُوا مَعَلَمٌ مَجْنُونٌ﴾^(٢) .

السابع : منع الناس من دخول الإسلام .

الثامن : إيذاء الذين يدخلون الإسلام ، وسعي الكفار للإضرار بهم ، قال تعالى ﴿لَنْ يَضُرَّكُمْ إِلَّا أَذًى﴾^(٣) .

التاسع : ضرب الحصار لثلاث سنوات على بني هاشم فليس من مبايعة أو نكاح معهم .

العاشر : العزم على قتل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

(١) سورة البقرة ١٦٥.

(٢) سورة الدخان ١٤.

(٣) سورة آل عمران ١١١.

ومع هذا الأذى الشديد فقد كان الناس يدخلون الإسلام ، ويخلصون الإيمان .

مما جعل التضاد يشتد ويظهر المشركون خبثهم ، هذا الخبث الذي حذرت منه آية البحث فاقترح النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم على طائفة من أصحابه الهجرة إلى الحبشة ، تلك البلاد البعيدة لأن فيها ملكاً لا يظلم عنده أحد ، ويدين ملكها بالنصرانية ، قال تعالى ﴿وَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَن مِّنْهُمْ قَسِيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (١) .

وأمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم طائفة أخرى من أصحابه بالهجرة إلى المدينة بعد أن ضمن وجود الناصر والعضد فيها ، قبل أن يخرج بنفسه من مكة مهاجراً ، ولم يغادرها إلا بعد أن عزم المشركون على قتله في ذات الليلة التي هاجر فيها ، قال تعالى ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا نَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٢) .

وهل الهجرة من مصاديق ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ (٣) الجواب فيه وجوه :

الأول : القدر المتيقن من الآية إرادة زمان ما بعد نزول الآية الكريمة .

الثاني : شمول الآية لحال المسلمين قبل نزولها وما بعده .

(١) سورة المائدة ٨٢ .

(٢) سورة التوبة ٤٠ .

(٣) سورة آل عمران ١٧٩ .

الثالث: إرادة الإطلاق الزماني، ولكن مسألة الهجرة غير مشمولة بالمقام. والصحيح هو الثاني، فإن الهجرة إختبار وامتحان للمسلمين والذين اختاروها سلموا بدينهم، ومن الآيات في النجاة في الهجرة أنها سلامة في الإبدان مع الذكر الحسن.

وقد أنعم الله عز وجل عليهم بصفة (المهاجرين) وهي صفة لم ينلها قوم أو طائفة قبلهم أو بعدهم، وسواء بقيت الهجرة بعد فتح مكة أو انقطعت بالفتح فانهم اختصوا بصفة (المهاجرين) من بين الأولين والآخرين، قال تعالى ﴿وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُمْ رُءُوفٌ رَحِيمٌ﴾^(١).

وهل ينقطع التمييز بالهجرة، الجواب لا، فإن ضروب الإمتحان مستمرة ومتصلة منها أداء الوظائف العبادية بقصد القرية، والنتزه عن الرياء، فقصد القرية من الطيب الذي ذكرته آية البحث، والرياء من الخبيث المذموم.

فان قلت هل يختص التمييز الذي تذكره آية البحث بالأمر الظاهرية، الجواب لا، إنما يشمل السرائر، ويكون من معاني الآية وجوه:

الأول: اللسان والقول.

الثاني: عالم الأفعال.

الثالث: ما يضمرة الإنسان في نفسه من النوايا والمقاصد.

ويمكن تسمية الحياة الدنيا (دار التمييز) وفيه بعث للناس للهداية والصلاح والرشد، ليتجلى إعجاز، وهو تعدد أسماء ومعاني الحياة الدنيا بلحاظ مضامين آيات القرآن، فمثلاً هل يمكن تسمية الحياة الدنيا (دار الجدال) كما في قوله تعالى ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرُ شَيْءٍ جَدَلًا﴾^(٢) وقوله

(١) سورة التوبة ١١٧.

(٢) سورة الكهف ٥٤.

تعالى ﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابُ﴾^(١) ونحوها من آيات الجدل بخصوص الذين كفروا ، وقال تعالى ﴿هَآأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾^(٢) ، الجواب لا .

والجدال بالحق من وظائف الأنبياء ، وفي نوح قال تعالى ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾^(٣) .

وإن قلت أو ليس الدار الآخرة هي دار التمييز الجلي ، الجواب نعم هذا صحيح ، قال تعالى ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(٤) ولكن اثبات شي لشي لا يدل على نفيه عن غيره ، والمدار على آيات وأحكام القرآن والسنة النبوية إذ تشهد آية البحث بأن الدنيا دار التمييز بين جهتين ، أمة تؤمن بالله وتعمل الصالحات ، وفرقة تتصف بالخبث ، وهذا الخبث أعم من أن يختص بالمنافقين .

لقد جعل الله عز وجل الحياة الدنيا مزرعة للآخرة ، ففضح الخبيث فيها مقدمة للتمييز والفصل في الآخرة بين أهل الجنة وأهل النار قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(٥) .

(١) سورة غافر ٥ .

(٢) سورة النساء ١٠٩ .

(٣) سورة هود ٣٢ .

(٤) سورة الدخان ٤٠ .

(٥) سورة يونس ٢٣ .

الآية سلاح

لقد ذكرت آية البحث نعمة الله عز وجل على المؤمنين ببلوغهم مرتبة الإيمان، وهدايتهم إلى التصديق بالنبوة والتنزيل ، قال تعالى ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُشَاءُ﴾^(١) وتبعث الآية المسلمين على معرفة أحوال الناس ودلالات القول والفعل وأنها امتحان من عند الله .
وتبين الآية رحمة الله عز وجل بالمسلمين والناس بالفصل بين الطيب والخبيث ، بين المؤمن والكافر ، والصالح والطالح ليتخذها المسلمون واقية من الأشرار ، ويحترزوا من الظلم والتعدي عليهم ، فالتمييز بين الطيب والخبيث مطلوب لذاته ولغايات حميدة في الدنيا والآخرة .
وتبعث آية البحث المسلمين إلى الدعاء وسؤال نيل مرتبة الطيب وفعل الحسنات ، وإتيان الصالحات .

فمن معاني التمييز في آية البحث الإخبار عن كون الدنيا دار امتحان واختبار ، وتوالي ضروب الإبتلاء التي تكشف عما يضمرة الإنسان في نفسه وما يعتقد به .

ومن الشواهد أن المسلم إذا دخل الإسلام توجهت له أمور :
الأول : أداء التكاليف العبادية من الصلاة والصيام والزكاة والحج والخمس ونحوها من الواجبات تجاه خالقه ، قال تعالى ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تَقْدِمُوا لَأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنْ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾^(٢) .
الثاني : صدق الإيمان والتنزّه عن النفاق والرياء .
الثالث : الصبر على الأذى الذي يأتي من المشركين .

(١) سورة القصص ٥٦ .

(٢) سورة البقرة ١١٠ .

الرابع : الدفاع عن بيضة الإسلام لإصرار الذين كفروا على القتال ، مع ان الذي يدفعه ويمحوه الله من القتال أكثر من الذي وقع ، قال تعالى ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾^(١).

وأخبرت الآية أعلاه عن انسحاب الأحزاب في غزوهم للمدينة في معركة الخندق دون أن يصيبوا من النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه إذ سخر الله عز وجل جنوداً من الريح بعثها على معسكر المشركين إلى جانب الرعب والخوف الذي يملأ قلوبهم ، كما قال تعالى ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبَشِّرِ الظَّالِمِينَ﴾^(٢).

(عن سعيد بن المسيب قال : لما كان يوم الأحزاب حصر النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه بضع عشرة ليلة حتى خلص إلى كل امرئ منهم الكرب ، وحتى قال النبي صلى الله عليه وآله : اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك ، اللهم أنك إن تشأ لا تعبد : فبينما هم على ذلك إذ جاءهم نعيم بن مسعود الأشجعي ، وكان يأمنه الفريقان جميعاً ، فخذل بين الناس ، فانطلق الأحزاب منهزمين من غير قتال . فذلك قوله { وكفى الله المؤمنين القتال }^{(٣)(٤)}).

(عن زيد عن مرة قال أقرأنا ابن مسعود هذا الحرف : { وكفى الله المؤمنين القتال } بعلي بن أبي طالب)^(٥).

(١) سورة الأحزاب ٢٥.

(٢) سورة آل عمران ١٥١.

(٣) سورة الأحزاب ٢٥.

(٤) الدر المنثور ٨/١٤٧.

(٥) النكت والعيون ٣/٣٦٩.

وجاءت آية البحث ليحرص المسلمون مجتمعين ومتفرقين على المكث في منازل الهدى والإيمان .

وتتضمن الآية الأمر إلى المسلمين والناس بالإيمان بالله والأنبياء والرسل ، لتكون سلاحاً في الجدل والاحتجاج ، وواقية من الإنغماس في مستنقع الرذيلة ، إذ تكون آية البحث حاضرة في الوجود الذهني عند الإقدام على فعل ما ، والتدبر فيه هل هو من العمل الصالح فيأتيه أم أنه من الخبيث المكروه فيتجنبه كما في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(١).

وقال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنْ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾^(٢).

وقد يرمى الإنسان بالخُبث والنفاق بسبب شبهة كما لو دافع عن المنافقين فهل تسقط الشبهة العقوبة مثلما أنها تسقط في الحدود ، الجواب نعم.

(قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ادرؤا الحدود عن المسلمين ما استطعتم فان وجدتم للمسلم مخرجاً فخلوا سبيله فان الامام ان يخطئ في العفو خير له من ان يخطئ في العقوبة)^(٣)، وهل الدرء في الحديث أعلاه خاص بالمسلمين أم أنه للناس عامة الجواب هو الثاني .

(١) سورة المائدة ٩٠.

(٢) سورة الحجرات ١٢.

(٣) السنن الكبرى البيهقي ٢٣٨/٨.

مفهوم الآية

إبتدأت آية البحث بقانون وهو ان الله عز وجل لا يترك المؤمنين ومن خالطهم من المنافقين ونحوهم على حالهم بل يميز ويفصل المنافق والخبيث عنهم لبيان مسألة وهي أن بلوغهم لمرتبة ﴿خَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(١) بفضل ورحمة من عند الله عز وجل ، إذ أن تمييز المؤمن عن الخبيث مدد وعون من عند الله سبحانه.

ومن معاني الآية أن الله عز وجل يحصن المؤمنين ويدعوهم للإمتثال لأوامره سبحانه بالإتحاد والتمسك بأحكام القرآن ، قال تعالى ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾^(٢).

ومن مفاهيم الآية بيان قانون من الإرادة التكوينية وهو استحالة التداخل بين المؤمنين والمنافقين أو عدم كشف المنافقين فلا بد من كشفهم ومعرفة النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين والناس لهم ، قال تعالى ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾^(٣).

ومن خصائص المؤمنين حب الله عز وجل لهم ، ومن مصاديق هذه المحبة كشف أهل الريب والشك الذين بين ظهرانيهم . وهل انسحاب عبد الله بن أبي بن أبي سلول وثلاثمائة من أصحابه في الطريق إلى معركة أحد من التمييز والفصل الذي تذكره الآية أم أن القدر المتيقن منه القضية الشخصية والأفراد ، الجواب هو الأول .

لذا قال الله تعالى ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّتْيِ الْجَعْنَانِ فَيَا ذُنِبِ اللَّهِ﴾^(٤).

(١) سورة آل عمران ١١٠.

(٢) سورة آل عمران ١٠٣.

(٣) سورة محمد ٣٠.

(٤) سورة آل عمران ١٦٦.

فان قلت إن الله عز وجل قادر على الفصل والتمييز بين الطيب والخبيث من غير أن تصل النوبة إلى الشقاق والقتال ، والجواب هذا صحيح ، ولكن لإقامة الحجة على الذين كفروا ، ولإرادة تمحيص المؤمنين ، وزيادة الأجر والثواب بشدة الإبتلاء ، وبيان صدق إيمان المهاجرين والأنصار .

لقد عزم الذين كفروا على استئصال الإسلام ، وقد خططوا لقتل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من جهات :

الأولى : إرادة قتل النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو في مكة .

الثاني : عزم المشركين على قتل النبي صلى الله عليه وآله وسلم على فراشه كما في ليلة المبيت ، ونزل قوله تعالى في الإمام علي عليه السلام ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾^(١).

الثالث : نفي قريش لقتل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في طريق الهجرة إلى المدينة ، ووضع الجوائز لمن يأتي به حياً أو ميتاً.

وفي ليلة الهجرة اختارت قريش عشرة من شبابها الأقوياء لقتل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بضربه ضربة رجل واحد ، وهو في فراشه ، فنزل جبرئيل وأمره بالهجرة وبات علي في فراشه ، وقبيل الفجر هجموا عليه وهم يظنون أنه النبي محمد ، وفوجئوا بأنه الإمام علي ، فلم يأسوا ، إنما بادروا للخروج خلفه وجعلوا جائزة لمن يقتله .

وعن (سُرَاقَةُ بْنُ مَالِكٍ بْنِ جُعْشُمٍ ، قَالَ لَمَّا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ مَكَّةَ مُهَاجِرًا إِلَى الْمَدِينَةِ ، جَعَلَتْ قُرَيْشٌ فِيهِ مِائَةَ نَاقَةٍ لِمَنْ رَدَّهُ عَلَيْهِمْ .

قَالَ فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ فِي نَادِي قَوْمِي إِذْ أَقْبَلَ رَجُلٌ مِنَّا ، حَتَّى وَقَفَ عَلَيْنَا ، فَقَالَ وَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُ رَكْبَةً ثَلَاثَةَ مَرَّاتٍ عَلَى أَنْفَا ، إِنِّي لَأَرَاهُمْ مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ قَالَ فَأَوَمَّاتُ إِلَيْهِ بَعِينِي : أَنْ أَسْكُتُ ثُمَّ قُلْتُ : قَلِيلًا ، إِنَّمَا هُمْ بَنُو فُلَانٍ يَتَّبِعُونَ ضَالَّةً لَهُمْ قَالَ لَعَلَّهُ ثُمَّ سَكَتَ .

قَالَ ثُمَّ مَكَثْتُ ثُمَّ قُمْتُ فَدَخَلْتُ بَيْتِي ، ثُمَّ أَمَرْتُ بِفَرَسِي ، فَقَيْدَ لِي إِلَى بَطْنِ الْوَادِي ، وَأَمَرْتُ بِسِلَاحِي ، فَأَخْرَجَ لِي مِنْ دُبُرِ حَجْرَتِي ، ثُمَّ أَخَذْتُ قِدَاحِي الَّتِي أَسْتَقْسِمُ بِهَا ، ثُمَّ انْطَلَقْتُ ، فَلَبِستُ لَامَتِي ثُمَّ فَخَرَجَ السَّهْمُ الَّذِي أَكْرَهَ لَا يَضُرُّهُ .

قَالَ وَكُنْتُ أَرْجُو أَنْ أُرْدَهُ عَلَى قُرَيْشٍ ، فَأَخَذَ الْمَاءَةَ النَّاقَةَ .
قَالَ فَرَكِبْتُ عَلَى أَثَرِهِ فَبَيْنَمَا فَرَسِي يَشْتَدُّ بِي عَثَرِي ، فَسَقَطَتْ عَنْهُ .
فَقُلْتُ : مَا هَذَا ، ثُمَّ أَخْرَجْتُ قِدَاحِي فَاسْتَقْسَمْتُ بِهَا فَخَرَجَ السَّهْمُ الَّذِي أَكْرَهَ لَا يَضُرُّهُ .

قَالَ فَأَبَيْتُ إِلَّا أَنْ أَتَّبِعَهُ . قَالَ فَرَكِبْتُ فِي أَثَرِهِ فَبَيْنَا فَرَسِي يَشْتَدُّ بِي ، عَثَرِي ، فَسَقَطَتْ عَنْهُ .

فَقُلْتُ : مَا هَذَا ، ثُمَّ أَخْرَجْتُ قِدَاحِي فَاسْتَقْسَمْتُ بِهَا فَخَرَجَ السَّهْمُ الَّذِي أَكْرَهَ " لَا يَضُرُّهُ فَأَبَيْتُ إِلَّا أَنْ أَتَّبِعَهُ فَرَكِبْتُ فِي أَثَرِهِ . فَلَمَّا بَدَأَ لِي الْقَوْمُ وَرَأَيْتَهُمْ عَثَرِي بِفَرَسِي ، فَذَهَبَتْ يَدَاهُ فِي الْأَرْضِ وَسَقَطَتْ عَنْهُ ثُمَّ انْتَزَعَ يَدَيْهِ مِنَ الْأَرْضِ وَتَبِعَهُمَا دُخَانٌ كَالْإِعْصَارِ .

فَعَرَفْتُ حِينَ رَأَيْتُ ذَلِكَ أَنَّهُ قَدْ مَنَعَ مِنِّي ، وَأَنَّهُ ظَاهِرٌ .
فَنَادَيْتُ الْقَوْمَ فَقُلْتُ : أَنَا سَرَاقَةٌ بَنُ جَعْشَمٍ : أَنْظِرُونِي أَكَلِمَكُمُ فَوَاللَّهِ لَا أَرِيكُمْ وَلَا يَأْتِيكُمْ مَعِيَ شَيْءٌ تَكْرَهُونَهُ .

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَبِي بَكْرٍ : قُلْ لَهُ وَمَا تَبْتَغِي مِنَّا .
فَقَالَ ذَلِكَ أَبُو بَكْرٍ .

قُلْتُ : تَكْتُبُ لِي كِتَابًا يَكُونُ آيَةً بَيْنِي وَبَيْنَكَ . قَالَ أَكْتُبُ لَهُ يَا أَبَا بَكْرٍ فَكَتَبَ لِي كِتَابًا فِي عَظْمٍ أَوْ فِي رُقْعَةٍ أَوْ فِي خَزَفَةٍ ثُمَّ أَلْقَاهُ إِلَيَّ فَأَخَذْتَهُ ، ^(١) فَجَعَلْتَهُ فِي كِنَانَتِي ، ثُمَّ رَجَعْتُ .

فَسَكَتَ فَلَمْ أَذْكُرْ شَيْئًا مِمَّا كَانَ حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ مَكَّةُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَفَرَّغَ مِنْ حَنِينٍ وَالطَّائِفِ ، خَرَجْتُ وَمَعِيَ الْكِتَابُ لِلأَلْقَاءِ فَلَقِيْتَهُ بِالْجَعْفَرَانَةِ .

فَدَخَلْتُ فِي كِتَابِيَةِ مَنْ خِيلَ الْأَنْصَارِ . فَجَعَلُوا يَقْرَعُونَنِي بِالرِّمَاحِ وَيَقُولُونَ إِلَيْكَ إِلَيْكَ ، مَاذَا تُرِيدُ . فَدَنَوْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ عَلَى نَاقَتِهِ وَاللَّهُ لَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى سَاقِهِ فِي غَرَزِهِ كَأَنَّهُا جُمَارَةٌ .

فَرَفَعْتُ يَدَيَّ بِالْكِتَابِ ثُمَّ قُلْتُ (يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا كِتَابُكَ لِي) ^(٢) . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ وَفَاءٍ وَبِرٍّ أَدْنَاهُ قَالَ فَدَنَوْتُ مِنْهُ فَأَسْلَمَ .

ثُمَّ تَذَكَّرْتُ شَيْئًا أَسْأَلُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَمَا أَذْكُرُهُ إِلَّا أَنِّي قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ الضَّالَّةُ مِنَ الْإِبْلِ تَغْشَى حِيَاضِي ، وَقَدْ مَلَأْتُهَا لِلْإِبْلِ ، هَلْ لِي مِنْ أَجْرٍ فِي أَنْ أُسْقِيَهَا . قَالَ نَعَمْ فِي كُلِّ ذَاتِ كَبِدٍ رَطْبَةٌ أَجْرٌ .

قَالَ ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى قَوْمِي ، فَسُقْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَدَقْتِي ^(٣) .

وتبعث الآية الخوف في قلوب المنافقين ، إذ أنها إنذار وتحذير لهم ، فمهما بذلوا من الجهد لإخفاء الكفر الذي يضمرون في أنفسهم فإن الله عز وجل يظهره ويفضحه

(١) هذه الجملة ساقطة من النسخ بالأصل ، ولكنها موجودة في السيرة النبوية لابن

هشام ٤٩٠/١ .

(٢) الروض الأنف ٣٢١/٢ .

ليكون من مفاهيم الآية دعوة المنافقين إلى التوبة ، وجعلهم يدركون قانوناً وهو أن التوبة حاجة.

ابتدأت آية البحث بقانون وهو أن الله عز وجل لا يترك المؤمنين في حال تداخل واختلاط تام مع المنافقين ، فلا بد من منع اللبس في المقام ، ولا يقدر على هذا المنع إلا الله عز وجل ، ليكون من أسرار قوله تعالى ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(١) الفصل والتمييز بين المؤمنين والمنافقين في الحياة اليومية .

وذكرت الآية قانوناً وهو إنفراد الله عز وجل وحده بعلم الغيب وأسراره وكنوزه ، وفيه دعوة للمسلمين للتسليم والانقياد لأمر الله عز وجل .

ومن معاني ومصاديق الربوبية المطلقة لله عز وجل ملكيته وإطلاعه على الغيب ، وفي التنزيل ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابِ مُبِينٍ﴾^(٢).

ومن مفاهيم آية البحث دعوة المسلمين للتصديق ببعثة الأنبياء والرسل وبما جاء به الرسل من عند الله عز وجل .

وفي هذا التصديق الأجر والثواب العظيم ، وتتجلى التقوى باتيان الفرائض والطاعات ، واجتناب ما فيه الضرر للذات والغير ، قال تعالى ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ إِنْ تَوَمَّنَا وَيُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلُكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾^(٣).

(١) سورة البقرة ٣٠.

(٢) سورة سبأ ٣.

(٣) سورة محمد ٣٦.

إفاضات الآية

لقد جعل الله عز وجل الدنيا دار امتحان واختبار ، وهي وعاء جامع للمتضادين من الأفعال والأقوال ، ومن الناس من يهتدي بفضل من الله عز وجل إلى الإيمان والعمل الصالح ، ويكون أسوة لغيره وينعم الله عليه مع السكينة والطمأنينة على حاله وعلى مستقبله وما يلقاه في عالم الآخرة ، قال تعالى ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْشَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(١) .

وتتضمن آية البحث الإخبار عن كشف المنافقين وأهل النوايا والمقاصد السيئة ليحذرهم المؤمنون ، وفيه سلامة من الخوف والقلق والجزع في باب الصلات الإجتماعية ، وهو من التخفيف من عند الله عن المؤمنين ، ومنع الفتنة والشك فيما بينهم .

ليكون من إفاضات الآية شكر المسلمين لله عز وجل على نعمة الهدى والإيمان وعزل الذين في قلوبهم ريب عنهم بالتعيين والتشخيص وان بقوا بين ظهرائهم ، ويحضرون معهم في متدياتهم .
وشكا رجل إلى قوم ضيقاً في رزقه فقال له بعضهم : شكوت من يرحمك إلى من لا يرحمك).

وتنمي آية البحث الأخلاق الحميدة عند المسلمين ، إذ تدل على إقتران الطيب بالإيمان لقوله تعالى ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾^(٢) .

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (كل سلامي من الناس عليه صدقة كل يوم تطلع الشمس قال ما تعدل بين اثنين صدقة ، وتعين

(١) سورة النحل ٩٧ .

(٢) سورة آل عمران ١٧٩ .

الرجل في دابته وتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة ، والكلمة الطيبة صدقة وكل خطوة تمشيها إلى الصلوة صدقة ، وتميط^(١) الأذى عن الطريق صدقة^(٢).

ترى لماذا لم تقل الآية (حتى يميز الله المنافق من المؤمن) الجواب المراد من الآية المعنى الأعم الشامل ، لكل من :
الأول : عالم الأفراد والأشخاص .

الثاني : القول .

الثالث : عالم الفعل .

الرابع : الكسب الحلال والتصدق من المال الحلال ، وذم الذي يصدّ ويمنع من الصدقات.

وعن (رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : لا يتصدق أحد بتمرة من كسب طيب ، ولا يقبل الله إلا طيباً ، إلا أخذها الله بيمينه ثم لم يزل يربّيها كما يربّي أحدكم فلوله أو قلوصله حتى يكون مثل الجبل أو أعظم اللفظ الآخر : إن الله عز وجل يقبل الصدقات ، لا يقبل منها إلا الطيب ، ويأخذها بيمينه ، ثم يربّيها لصاحبها كما يربّي الرجل مهره أو فصيله ، حتى إن اللقمة لتصير عند الله مثل أحد ، وتصدق ذلك في كتاب الله المنزل (يحق الله الربا ويربي الصدقات)^(٣).

الخامس : أداء العبادات والإنفاق بقصد القرية إلى الله ، والإحتراز من الرياء وفعل الخير ليراه الناس ، ويظنوا به خيراً (عن أنس بن مالك ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حج على رجل رث وقطيفة ، كنا

(١) تميط الأذى أي تزججه وتنحيه .

(٢) السنن الكبرى للبيهقي ١٨٨/٤ .

(٣) الإبانة لكبرى لابن بطّة ٢٤٢/٦ .

نرى ثمنها أربعة دراهم ، فلما استوت به راحلته قال : لييك بحجة لا سمعة فيها ولا رياء^(١).

وتحث آية البحث على العمل الصالح وعلى طلب العلم ، فصحيح أن الله اختص لنفسه بعلم الغيب إلا أنه سبحانه دعا إلى إكتساب العلوم ، وفصل وعزل المنافقين عن المؤمنين مناسبة للتدبر في بديع صنع الله عز وجل والإجتهاد في طاعة الله ، وفي التنزيل ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾^(٢).

وتبين آية البحث أن بعثة الأنبياء نعمة من عند الله ، ولا يجوز الجحود بالنبوة ، قال تعالى ﴿أَفِينِعْمَةَ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾^(٣).

و(عن عبد الله بن مسعود ، قال : سألت رجلاً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : يا رسول الله أي العمل أفضل ، فقال : العلم ، فقال : يا رسول الله ، أسألك عن العمل فتخبرني بالعلم . فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إن قليل العمل مع العلم كثير ، وكثير العمل مع الجهل قليل)^(٤).

الآية لطف

من إعجاز القرآن بيان كل آية منه لمصاديق من لطف الله عز وجل بالناس ، وهل فرض الواجبات العبادية من هذا اللطف ، الجواب نعم ، وجاءت آية البحث لتبين الفصل والعزل بين المؤمنين والمنافقين ، وفصح المنافقين بأشخاصهم وما يثيرونه من أسباب الريب والشك ، والتخويف من الذين كفروا ، ومن إنكار البعث ، وعالم الجزاء في الآخرة ، فتفضل

(١) الترمذي / الشمائل المحمدية ٣٨١/١ .

(٢) سورة فاطر ١٠.

(٣) سورة النحل ٧١.

(٤) مسند الشهاب ٥٩/٤.

الله عز وجل وأخبر في آية البحث عن قانون من حكمته وهو عدم بقاء
الإتحاد والتقارب بين المؤمنين والمنافقين .

ومن منافع الفصل والعزل بينهم أمور :

الأول : تجلي معاني العز والشأن الرفيع للمؤمنين ، قال تعالى ﴿إِنَّ
الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾^(١).

الثاني : صيرورة المنافقين في حال إرباك وحرَج .

الثالث : تسليم المنافقين بانكشاف خدعهم ومكرهم وخبثهم .

الرابع : تنزيه مجتمعات المسلمين عن الفتن .

الخامس : خذلان الكافرين ، وظهور اليأس عليهم لإدراكهم عجز

المنافقين عن إثارة الفتنة والريب بين المسلمين .

فلما هاجر النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة ، ودعا أهلها إلى
الإسلام ، واستجاب أكثرهم لدعوته ، بقى بعضهم على الكفر ، ومنهم
من هاجر إلى مكة ليحرض قريشاً على قتال النبي صلى الله عليه وآله وسلم
إذ خرج أبو عامر في بضعة عشر رجلاً من أصحابه إلى مكة .

(فقالوا لقريش: نحن معكم حتى نستأصل محمداً. قال أبو سفيان: هذا
الذي أقدمكم ونزعكم .

قالوا : نعم ، جئنا لنحافلكن على عداوة محمد وقتاله .

قال أبو سفيان : مرحباً وأهلاً ، أحب الناس إلينا من أعاننا على عداوة
محمد . قال كعب^(٢) : فأخرج خمسين رجلاً من بطون قريش كلها أنت يا
أبا سفيان فيهم ، وندخل نحن وأنتم بين أستار الكعبة حتى نلصق أكبادنا

(١) سورة يونس ٦٥ .

(٢) كذا في تاريخ دمشق ٢٧٣/٥٥ أما في مغازي الواقدي ١٧٤/١ قال النفر .

وما في تاريخ دمشق هو الأصح ، وفيه أيضاً فأخرج ستين رجلاً بدل خمسين .

بها، ثم نحلف بالله جميعاً لا يخذل بعضنا بعضاً، ولتكونن كلمتنا واحدةً على هذا الرجل ما بقي منا رجل.

ففعلوا فتحالفوا على ذلك وتعاهدوا.

ثم قالت قريش بعضها لبعض: قد جاءكم رؤساء أهل يثرب وأهل العلم والكتاب الأول، فسلوهم عما نحن عليه ومحمد؛ ديننا خير أم دين محمد.

فنحن عمار البيت، وننحر الكوم، ونسقي الحجيج، ونعبد الأصنام. قالوا: اللهم، أنتم أولى بالحق منه؛ إنكم لتعظمون هذا البيت، وتقومون على السقاية، وتنحرون البدن، وتعبدون ما كان عليه آبائكم، فأنتم أولى بالحق منه. فأنزل الله تعالى في ذلك ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾^(١).

فاتعدوا لوقت وقته، فقال صفوان بن أمية: يا معشر قريش، إنكم قد وعدتم هؤلاء القوم لهذا الوقت وفارقوكم عليه، ففوا لهم به، لا يكون هذا كما كان، وعدنا محمداً بدر الصفراء فلم نف بموعده، واجترأ علينا بذلك، وقد كنت كارهاً لميعاد أبي سفيان يومئذ^(٢).

وعن ابن هشام أن عدد الذين خرجوا مع أبي عامر من الأوس (خَمْسُونَ غُلَامًا مِنَ الْأَوْسِ، وَبَعْضُ النَّاسِ كَانَ يَقُولُ كَانُوا خَمْسَةَ عَشَرَ رَجُلًا)^(٣).

وكان أبو عامر يعد قريشاً وهو في مكة وفي الطريق إلى معركة أحد بأن قومه من الأوس إذا سمعوا به لا يختلف عليه اثنان وأنهم سيميلون إلى

(١) سورة النساء ٥١.

(٢) مغازي الواقدي ١/١٧٤.

(٣) السيرة لابن هشام ٦٦/٢.

معسكر قريش ، ولما ﴿التَّقَى الْجُمُعَانَ﴾^(١) حرص أبو سفيان على تقديم أبي عامر ليعلن بين الصنفين عن نفسه ، ويدعو قومه (فَنَادَى : يَا مَعْشَرَ الْأَوْسِ ، أَنَا أَبُو عَامِرٍ قَالُوا : فَلَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِكَ عَيْنًا يَا فَاسِقُ وَكَانَ أَبُو عَامِرٍ يُسَمَّى فِي الْجَاهِلِيَّةِ الرَّاهِبَ فَسَمَّاهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْفَاسِقُ.

فَلَمَّا سَمِعَ رَدَّهُمْ عَلَيْهِ قَالَ لَقَدْ أَصَابَ قَوْمِي بَعْدِي شَرٌّ ، ثُمَّ قَاتَلَهُمْ قِتَالًا شَدِيدًا ، ثُمَّ رَاضَهُمْ بِالْحِجَارَةِ)^(٢).

ليبان أن من مصاديق التمييز والفصل بين الخبيث والطيب ، وتجلي مصاديق الطيب والحسن ثبوت المهاجرين والأنصار في ميدان الدفاع يوم أحد ، فمن التمييز ووضوح الخبيث قيام بعض المنافقين بالذهاب إلى مكة وتحريض قريش على النبي ، وإنخزال ثلاثمائة من جيش النبي صلى الله عليه وآله وسلم من وسط الطريق إلى معركة أحد .

وورد لفظ (يجتبي) مرتين في القرآن ، إحداهما في آية البحث وتتعلق باختيار الله للأنبياء والرسل من بين الناس.

أما الآية الأخرى فقوله تعالى ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾^(٣) ليبان مصداق عظيم من اللطف الإلهي بالناس عامة والمؤمنين خاصة ، وهو أن الإجتباء والاختبار لا ينحصر بالأنبياء والرسل إنما يشمل عامة المؤمنين وفيه دعوة للناس جميعاً للإجتهد في طاعة الله ، لأن هذه الطاعة من مصاديق الإيمان كما أنها تقرب العبد من رحمة الله عز وجل.

(١) سورة آل عمران ١٥٥.

(٢) السيرة لابن هشام ٦٦/٢.

(٣) سورة الشورى ١٣ .

الآية بشارة

من خصائص الأنبياء أنهم مبشرون بكل خير في الدنيا والآخرة ، قال تعالى ﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مَبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾^(١).

ومن الإعجاز في الآية أعلاه أنها قدمت البشارة على الإنذار لبيان قانون وهو مجئ الإنذار في طول البشارة ليجتهد المؤمنون في طلب البشارة ومصدقها والذي يتضمن الإمتناع عما فيه الإنذار والوعيد .

وابتدأت آية البحث بالبشارة بعزل المنافقين عن المؤمنين ، فان قلت سلمنا أن الآية بشارة للمؤمنين ، فهل هي بشارة للمنافقين والكافرين ، الجواب أنها إنذار لهم إلا أن يتوبوا ، وإذا تغير الموضوع تبدل الحكم ، وكأن الآية تقول : لقد انقضى زمان التداخل بين المؤمنين والمنافقين وابتدأت أيام الفصل بينهم ، وكأنه من التدرج والنسخ في الأحوال العامة ، وللسنة النبوية موضوعية في التمييز والفصل بين الطيب والخبيث.

وتدل الآية على أن هذا الفصل بالتدرج والتعاقب والتوالي ، ففي كل يوم وكل واقعة تنكشف حقيقة صدق إيمان طائفة من المسلمين ، وزيف إدعاء أفراد من المنافقين .

وفي معركة أحد نزل قوله تعالى ﴿ إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾^(١).

وعن جابر بن عبد الله قال (نَحْنُ : هُمْ بَنُو حَارِثَةَ وَبَنُو سَلَمَةَ". وَرَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٍ، وَالشَّعْبِيِّ، وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ، وَقَتَادَةَ، وَسَعِيدِ بْنِ أَبِي هِلَالٍ نَحْوَ ذَلِكَ)^(٢).

لَقَدْ أَخْبَرَتْ آيَةُ الْبَحْثِ عَنْ إِفْرَادِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِالْإِحَاطَةِ بِعِلْمِ الْغَيْبِ وَلِأَنَّهُ جَعَلَ الْإِنْسَانَ ﴿فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(٣) تَفْضُلَ بَرَشَّةٍ مِنْ وَعُلُومِ الْغَيْبِ بِوَسْطَةِ الْأَنْبِيَاءِ ، وَتَتَجَلَّى هَذِهِ الْعُلُومُ بِطَرِيقَيْنِ :

الأول : آيات التنزيل ، وما فيها من الأحكام وقصص الأنبياء وأسرار الخلق .

الثاني : السنة النبوية القولية والفعلية ، ليكون من مصاديق قوله تعالى ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُجِيبُ مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾^(٤) ، فيبشر الأنبياء المؤمنين بالثواب العظيم .

وَأَخْتَمَتْ آيَةُ الْبَحْثِ بِالْبَشَارَةِ الْعَظْمَى بِقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا وَلَوْ أَنَّهُمْ أَجْرُ عَظِيمٍ﴾^(٥) . وَهَلْ هَذِهِ الْبَشَارَةُ مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ الَّذِي تَرُشِّحُ عَنْ اجْتِبَاءِ وَاخْتِيَارِ اللَّهِ لِلْأَنْبِيَاءِ ، الْجَوَابُ نَعَمْ .

(١) سورة آل عمران ١٢٢.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ١٥٥/٣.

(٣) سورة البقرة ٣٠.

(٤) سورة آل عمران ١٧٩.

(٥) سورة آل عمران ١٧٩.

الآية إنذار

من صفات الأنبياء مجيئهم بالإنذار لقومهم والناس جميعاً ، فلا يميلون إلى مهادنة الفاسقين ، ولا يخشون الكافرين ، قال تعالى ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِّأَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾^(١).

لقد احتج الملائكة على جعل الإنسان ﴿فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(٢) فأجابهم الله ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٣) ومن علم الله عز وجل مجيئ الإنذار إلى كل أمة وطائفة من الناس ، قال تعالى ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾^(٤) ترى ما هي النسبة بين النبي والنذير الذي تذكره الآية أعلاه ، فيه وجوه :
الأول : نسبة التساوي وأن المراد من النذير في الآية أعلاه هو النبي والرسول .

الثاني : نسبة العموم والخصوص المطلق ، وهو على شعبتين :
الأولى : صفة النبوة أعم من النذير ، والأنبياء أكثر من المنذرين الذين تذكرهم الآية أعلاه.

الثانية : المنذرون هم الأكثر من الأنبياء .

الثالث : نسبة العموم والخصوص من وجه ، فهناك مادة للإلتقاء وأخرى للإفتراق بين النبي والذي يتولى الإنذار .

والمختار هو الشعبة الثانية من الوجه الثاني أعلاه فاشخاص المنذرين أكثر من الأنبياء ، إذ يقوم أتباع وأنصار الأنبياء بالإنذار ، ويرثون هذه

(١) سورة النساء ١٦٥.

(٢) سورة البقرة ٣٠.

(٣) سورة البقرة ٣٠.

(٤) سورة فاطر ٢٤.

الصفة المباركة عنهم ، قال تعالى ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾^(١) وقال تعالى ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(٢).

وعن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم (إياكم والخيانة فإنها بثست البطانة)^(٣).

الآية موعظة

من أسماء القرآن التي سماها الله عز وجل بها في آيات متعددة أنه موعظة إذ قال تعالى ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَلَائِكٍ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قُلُوبِكُمْ وَمَلَائِكٍ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قُلُوبِكُمْ وَمَوْعِظَةٍ لِلْمُتَّقِينَ﴾^(٤) وقال تعالى ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾^(٥).

وتحتمل منافع الموعظة بخصوص القرآن وجوهاً :

الأول : تجلي منافع الموعظة القرآنية بعمل المؤمنين والمؤمنات على نحو الخصوص.

الثاني : إنتفاع عموم المسلمين والمسلمات من مواعظ القرآن .

(١) سورة آل عمران ١١٣-١١٤.

(٢) سورة التوبة ٧١.

(٣) الدر المنثور ٢/٢١٣.

(٤) سورة النور ٣٤.

(٥) سورة آل عمران ١٣٨.

الثالث : النفع العام للناس جميعاً من الموعظة القرآنية .
 والمختار هو الأخير ، نعم الإيعاز من آيات القرآن من الكلي المشكك
 الذي يكون على مراتب متفاوتة قوة وضعفاً ، وهذه الموعظة سبب للتوبة
 والإنابة والهداية إلى سنن الإيمان .
 وهناك مسألتان :

الأولى : قد ورد الخصوص في قوله تعالى ﴿ذِكْرُكُمْ يُعْظَبُ مِنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾^(١) .

الثانية : ورد في قصة النبي هود وقومه ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنْ الْوَاعِظِينَ﴾^(٢) .

أما المسألة الأولى فمورد الآية خاص ، ويتضمن النهي عن العضل
 ولييان حرمة العضل ، وهو منع رجوع المطلقة إلى من طلقها ، وجاءت
 الموعظة بما يشبه الأمر لإرادة الإنزجار أي ﴿ذِكْرُكُمْ يُعْظَبُ﴾ أي يؤمر به
 الذين يؤمنون بالله والوقوف بين يديه للحساب يوم القيامة .

وقيل نزلت في جابر بن عبد الله الأنصاري إذ كانت له أخت طلقها
 زوجها ، وخرجت من العدة ، ثم أراد زوجها الأول مراجعتها (فمنعها
 جابر ، وقال : تركتها وأنت أملك بها لا زوجتكها أبداً)^(٣) .

ومن إعجاز القرآن أن كل آية منه موعظة يومية متجددة ، وجامعة
 حاضرة عند الإنسان ، وشاء الله عز وجل أن يتدبر المسلم بهذه الموعظة
 خمس مرات في اليوم بتلاوته القرآن في الصلاة على نحو الوجوب العيني ،
 لتكون الموعظة من الغايات الحميدة لأداء الصلاة .

(١) سورة الطلاق ٢ .

(٢) سورة الشعراء ١٣٦ .

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي ١٥٤/١ .

(عن أبي أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : مثل الصلوات الخمس كمثل نهر عذب يجري عند باب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات ، فماذا يبقى عليه من الدرن) (١).

لقد ذكرت آية البحث المؤمنين بالنص ، وبصيغة الإكرام ، وفيه ترغيب بالإيمان ، ودعوة للإستقامة والصلاح ، وجعل المسلم يتدبر في عمله وهل هو من المؤمنين ، قال تعالى ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ (٢).

وفي طائفة من الأعراب قال تعالى ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٣) ، لبيان أن الإيمان أعلى مرتبة من

وذكرت آية البحث متضادين وهما الطيب والخبيث لينبذ الناس الخبيث والأفعال المذمومة ، ومن الموعظة في القرآن لزوم التسليم بأن الله عز وجل استأثر بعلم الغيب ، واختص لنفسه هذه الإحاطة وحجب الخلائق عنها ، ويسمى في الإصطلاح الغيب المطلق ، قال تعالى ﴿عَالَمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهَرُ عَلَيْهِ غَيْبٌ أَحَدًا﴾ (٤) .

و(عن أنس قال : بينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جالس مع أصحابه إذا جاءه رجل ليس عليه ثياب السفر يتخلل الناس حتى جلس بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فوضع يده على ركة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : يا محمد ما الإسلام).

(١) الدر المنثور ٥/٣٥٧.

(٢) سورة القيامة ١٤.

(٣) سورة الحجرات ١٤ .

(٤) سورة الجن ٢٦.

قال : شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم شهر رمضان ، وحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً .

قال : فإذا فعلت فأنا مؤمن ، قال : نعم . قال : صدقت . قال : يا محمد ما الإحسان .

قال : أن تحشى الله كأنك تراه فإن لم تره فإنه يراك . قال : فإذا فعلت ذلك فأنا محسن ، قال : نعم . قال : صدقت . قال : يا محمد متى الساعة . قال : ما المسؤول عنها بأعلم من السائل .

وأدبر الرجل فذهب . فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : عليّ بالرجل ، فاتبعوه يطلبونه فلم يروا شيئاً . فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ذاك جبريل جاءكم ليعلمكم دينكم^(١) .

الآية رحمة

تتجلى معاني الرحمة في آيات القرآن وأثرها بلحاظ دراسة مقارنة بين حال العرب قبل نزول القرآن وحالهم بعده ، ولم تكن مدة النزول طويلة في سنن التأريخ وحال التبدل في الأخلاق والأعراف والقيم ، إذ كانت ثلاثاً وعشرين سنة .

ولم يحدث التغيير عند اختتام نزول آيات القرآن بل بدأ هذا التغيير من نزول السور المكية الأولى خاصة وأنها تتضمن التخويف والوعيد ، فدخلت طائفة من أهل مكة الإسلام من الأسياد والعبيد ، وأكثرهم في سن الشباب ليكونوا نواة سرايا الدفاع عن النبوة وذات القرآن وأهل المدينة ، وانقطع بنزول القرآن كل من :
الأول : الغزو بين القبائل .

الثاني : وأد البنات ، قال تعالى ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾^(١).

الثالث : منع الجرأة في القتل ، والإقدام على الثأر ، للأجر والاكتفاء بآية القصاص التي تزجر عن القتل العمدي ، وتجعل الإنسان في حذر من القتل الخطأ ، لقد كان في قوله تعالى ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾^(٢) رحمة بالناس جميعاً ، وتفقهاً عاماً بلزوم احترام حياة الآخرين ، وحرمة سفك الدماء .

ومن الخبيث الذي تذكره آية البحث الذي يمتنع عن العمل بأحكام الشريعة ، والذي يلجأ إلى الظلم والتعدي والجور ، فجاءت آية البحث رحمة بالناس لتنزيهم عن كل من :
الأول : القتل على نحو القضية الشخصية.

الثاني : مقدمات القتل وأسباب الفتنة ، ولا يعلم الناس أن هذه المقدمات قد تكون أشد من ذات القتل ، لولا نزول قوله تعالى ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنْ الْقَتْلِ﴾^(٣).

الثالث : الجناية بالجرح والكسر .

الرابع : القتل المتعدد من جهات :

الأولى : اشتراك جماعة في قتل شخص .

الثانية : قيام شخص بقتل اثنين أو أكثر .

الثالثة : القضية الشخصية بطرفيها القاتل والمقتول .

الخامس : القتل العشوائي .

(١) سورة التكوين ٨-٩.

(٢) سورة البقرة ١٧٩.

(٣) سورة البقرة ١٩١.

فبين القرآن أن أفراد هذا القتل من الفعل الخييث والمذموم ، قال تعالى ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾^(١).

إن عزل المنافق والفاسق والفاجر عن أهل الإيمان والتقوى رحمة من عند الله عز وجل ، وهذا العزل ليس مكانياً فقد يجلسون معاً ويلتقون في المسجد والسوق والمنتدى ، ولكن المؤمنين يعلمون من هو الخييث والمنافق ، وفيه رحمة بالمؤمن وغيره .

أما المؤمن فانه يشكر الله عز وجل على نعمة الإيمان والفصل بينه وبين المنافق ، ويكون في حيلة منه ، ومما يئشه من السموم والأقاويل ، وأما المنافق فان العزل تبكيت له ، ودعوة له للتوبة والإنابة ، لأن هذا العزل لا يتعلق بشخصه إنما بسنخية الفعل والسلوك ، وهذا الفصل والعزل مناسبة لإجتهاد المؤمنين في طاعة الله والسلامة من الشك والريب ، وبما يبعث اليأس والقنوط في نفوس المنافقين ، قال تعالى ﴿هَآأَنْتُمْ أَوْلَآءُ تُحِبُّهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَمَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾^(٢).

واختيار الله لأشخاص الرسل وأوانهم ، ومحل بعثتهم رحمة بالناس وأجيالهم المتعاقبة ، فمن خصائص الرسالة أن النبي يبعث إلى قوم ، ولكن بركات نبوته تتغشى الأجيال اللاحقة كلها ، لذا ييشر كل رسول بالرسول الذي يأتي بعده ، وفي عيسى عليه السلام ورد قوله تعالى ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِيهِ مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾^(٣).

(١) سورة المائدة ٣٠.

(٢) سورة آل عمران ١١٩.

(٣) سورة الصف ٦.

الحاجة لآية البحث

من خصائص الحياة الدنيا أنها دار حاجة الإنسان إلى حين وفاته ، وحتى في دفنه ومواراته التراب ، ومن الآيات أن قابيل عندما قتل أخاه هابيل ، قام بدفنه بارشاد من عند الله ، قال تعالى ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سَوْءَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾^(١) ، وقد أكرم الله عز وجل الإنسان بالخلافة في الأرض ، ففضل الله وجعل بينه وبين أهل الأرض حبلاً ممدوداً ، وهو الوحي والتنزيل ، وشاء الله المنع من انقطاع هذا الحبل ، إذ جعل التنزيل سالماً من التحريف والتبديل .

وهل يدل قوله تعالى ﴿وَاغْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾^(٢) على هذه السلامة ، الجواب نعم ، لتكون حاجة الناس متصلة ومستمرة إلى آيات التنزيل ، وفيها أحكام الحلال والحرام ، والأمر والنهي ، والثواب والعقاب ، وتبين آية البحث حاجة الناس لعزل وفصل المنافقين والفجار عن المؤمنين ، وحجب الطالح عن التأثير في مجتمع الصالحين ، ولا يقدر على قضاء هذه الحاجة الناس أنفسهم .

ففضل الله عز وجل وتولاها بنفسه إنجازاً ووعداً ، مما يدل على أن هذا العزل ضرورة ، وأن في بقاء الإختلاط والتداخل بين المؤمنين والمنافقين وعدم معرفة المسلمين والمسلمات بأشخاص المنافقين أذى وضراً ، وأبى الله عز وجل إلا أن يدفع الضرر عن المؤمنين ، قال تعالى ﴿لَنْ يَضُرَّكُمْ إِلَّا أَذًى﴾^(٣) .

(١) سورة المائدة ٣١ .

(٢) سورة آل عمران ١٠٣ .

(٣) سورة آل عمران ١١١ .

وأخبرت آية البحث عن قانون وهو أن الله عز وجل لا يطلع المسلمين على الغيب ولا يجعل علامة في وجه المنافق تدل عليه فيحذره المؤمنون ولكنه سبحانه ينزل آيات القرآن لتتضمن ما يكشف المنافقين من جهات منها :

الأولى : ذكر القرآن للخصال الحميدة للمؤمنين فمثلاً نزلت سورة المؤمنون لتبين عدداً من هذه الخصال ، بقوله تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١﴾

إذ تضمنت هذه الآيات لزوم تعاهد المؤمنين لحق الله عليهم ، وذكرت أعمال الجوارح العبادية ، وتقاء القلوب والإقامة في مقامات التقوى .

وبدأت بذكر الصلاة وحرص المسلمين والمسلمات على أدائها بخشوع وخضوع لله عز وجل لأنها عمود الدين ، إذ ورد عن ابن عمر (قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : الدين خمس لا يقبل الله منه شيئاً دون شيء : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والجنة والنار والحياة بعد الموت ، هذه واحدة ، وصلاة الخمس عمود الدين ، لا يقبل الله الإيمان إلا بالصلاة ، والزكاة مطهرة من الذنوب ، لا يقبل الله الإيمان ولا الصلاة إلا بالزكاة ، فمن فعل هؤلاء ، ثم جاء رمضان فترك صيامه متعمداً لم يقبل الله منه الإيمان ، ولا الصلاة ولا الزكاة إلا بالصيام .

فمن فعل هؤلاء الأربع ، ثم تيسر له الحج فلم يحج أو يحج عنه بعض أهله^(١) ، أو يوصي بحجه لم يقبل الله منه الإيمان ولا الصلاة ولا الزكاة ولا الصيام إلا بالحج ، لأن الحج فريضة من فرائض الله ، ولن يقبل الله شيئاً من الفرائض بعضها دون بعض^(٢) .

ومن أسباب عزل المنافق في الصلاة أنه لا يقوم إلى الصلاة وهو كسلان وليس عنده خشوع فيه .

الثانية : ذكر القرآن لصفات النفاق المذمومة والنهي عنها ، والدعوة إلى التوبة عنها ، وجعل بيان قبحها من مصاديق هذه الدعوة .

الثالثة : بيان القرآن لأحكام الحلال والحرام ، ولزوم التقيد بها .
الرابعة : لزوم التصديق بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من عند الله ، وإجتنب الريب والشك ، لذا ورد في سورة المؤمنون إعراض المؤمنين والمؤمنات عن اللغو ، وقال تعالى ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾^(٣) .

والنسبة بين اللغو والنفاق هو العموم والخصوص من وجه ، فهناك مادة للإلتقاء وأخرى للإفتراق بينهما ، وجاءت آية البحث للإحتراز منهما معاً بحصن الإيمان بالله ورسوله ، فقوله تعالى ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾^(٤) أمر من عند الله يتضمن الوجوب والقطع ، وهو حاجة للناس في ذات الأمر والفعل والإمثال المترتب عليه .

(١) يدل الحديث على جواز حج النيابة عن الحي مع أدنى عذر ، وفي التنزيل ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ سورة البقرة ١٨٥ .

(٢) الإبانة الكبرى لابن بطة ٣٥٠/٢ .

(٣) سورة الفرقان ٧٢ .

(٤) سورة التغابن ٨ .

النعم التي تذكرها آية البحث

من خصائص الآية القرآنية أنها نعمة من عند الله ، وهبة لأهل الأرض ، وشاهد على ربوبيته المطلقة وأنه سبحانه لا يترك الناس من غير إمامة ، قال تعالى ﴿وَإِنَّ لِكَلِّابِ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾^(١).

و(عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فضل العالم على الشهيد درجة ، وفضل الشهيد على العابد درجة ، وفضل النبي صلى الله عليه وآله وسلم على العالم درجة ، وفضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على خلقه ، وفضل العالم على سائر الناس كفضلي على أدناهم)^(٢).
وابتدأت آية البحث بنعمة الوعد من عند الله ، ويمكن تأليف مجلدات بقانون (وعد الله في القرآن حصن من الإرهاب)^(٣).

ومن نعم الله عز وجل على الناس وجود أمة مؤمنة في كل زمان تحفظ سنن الإيمان ، وتجعله تركة للأجيال التي تأتي بعدهم ، وجاءت آية البحث لإرادة العموم في أجيال المؤمنين .

والدنيا دار إبتلاء ، وحجب الله عز وجل عن المؤمنين الإرتداد ، ومنعهم من ولوج مداخله بأن كشف عن الخبيث الذي بين ظهرائهم الذي لا يتمنى لهم الخير ، مع أن الإيمان خير محض ، وتدل الآية بالدلالة التضمنية على أن الله عز وجل مطلع على السرائر ، ويرى العباد وأفعالهم

(١) سورة فصلت ٤١-٤٢.

(٢) الكشف والبيان للثعلبي ١٧٣/١٣.

(٣) أنظر الجزء التالي من هذا السفر وهو الثاني والثمانون بعد المائة .

، ويفصل بين الفعل الخبيث العمدي وبين السهو والنسيان ، من غير بينه أو قرينة فيفضل ويحجب الخبيث عن التأثير في عالم الإيمان .
ومع أن الله عز وجل استأثر لنفسه بعلم الغيب فقد تفضل باطلاع المؤمنين على بعض علوم الغيب ببركة بعثة الأنبياء والرسل .
ليكون من مصاديق قوله تعالى ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾^(١) الوارد في آية البحث : فآمِنُوا بِاللَّهِ ورسوله الذين أخبروا عن بعض علوم الغيب بأذن الله ، ومنها أسرار وقصص الأمم السالفة ، قال تعالى ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾^(٢).

مفهوم الموافقة

تبين آية البحث قانوناً وهو تفضل الله عز وجل بعزل المنافقين والمخادعين وأهل الشك والريب عن أصحاب الإيمان والتقوى ، وهذا العزل ليس مكانياً ، إنما بالتعيين بلحاظ عالم الأفعال والأقوال وإن كانت له رشحات على المكان أيضاً ، فمن منفعه إنزواء الذين نافقوا حتى أنهم كانوا يخشون نزول آية قرآنية تفضحهم وتذكرهم باسمائهم .
وتبعث آية البحث المسلمين إلى التحلي بالخصال الحميدة ، وفعل الصالحات ، والإمتناع عما هو مذموم ومناف للشرع ، قال تعالى ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾^(٣) ، فمن الطيب الذي تذكره آية البحث الإمتثال للأوامر الإلهية والإمتناع عما نهى الله عز وجل عنه ، ومن ستر الله عز وجل للناس عدم كشف المنافقين بأشخاصهم ولكنه ينزل آيات

(١) سورة التغابن ٨.

(٢) سورة هود ٤٩.

(٣) سورة الحشر ٧.

القرآن ويبين الأحكام بما يجعل المنافقين يتخلفون عن الإمتثال لضعف إيمانهم ، وسوء سرائرهم .

وعن أبي مسعود عقبة بن عمرو قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن منكم منافقين ، فمن سميت فليقم .

ثم قال : قم يا فلان ، قم يا فلان ، قم يا فلان ، حتى سمي ستة وثلاثين رجلاً ثم قال : إن فيكم أو : منكم ، فاتقوا الله ، قال : فمر عمر برجل ممن سمي مقنع قد كان يعرفه ، فقال : ما لك ، فحدثه بما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : بعداً لك سائر اليوم^(١) .

لقد أمرت آية البحث بالإيمان بالله ورسله ، ثم أخبرت عن كون الإيمان والتقوى سبب للفوز بالأجر العظيم من عند الله .

مفهوم المخالفة

تدل آية البحث في مفهومها على حقوق الأذى بالمؤمنين والناس لو لم يفصل الله عز وجل المنافقين عن المؤمنين ، وتبين قانوناً وهو لا بد من هذا الفصل ، وهل يأتي دفعة أو تدريجياً ، الجواب لا تعارض بين الأمرين ، إذ يكون هذا الفصل والعزل بما يتضمن أموراً :

الأول : التخفيف عن المؤمنين .

الثاني : فتح باب التوبة للناس ، ومنهم المنافقون .

الثالث : تجلي معجزة للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بذات العزل وبتحقق مصداق آية البحث ، وهو وسيلة وسبب لترغيب الناس بالإسلام .

وتدفع آية البحث الناس عن الخبث ومصاديقه ، وعن الدسائس والمكر الضار ، وتبين آية البحث أن الجحود بالنبوة سبب للحرمان من الفوز العظيم ، وطريق إلى العذاب في الآخرة.

بوجوب الإيمان بالله ورسله ، مما يدل على حرمة الكفر والضلالة ، وإذا كان الإيمان سبب للأجر والثواب العظيم فإن الكفر سبب لنزول العذاب الأليم بالذين كفروا قال تعالى ﴿وَقَوْمُ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾^(١).

ويشهد الرسل يوم القيامة بأنهم لا يعلمون من الغيب في أثر دعوتهم بين الناس قال تعالى ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾^(٢) ، وبعد أن أختتمت آية البحث بالبشارة للمؤمنين بالثواب العظيم ابتدأت الآية التالية لها بالإنذار للذين يمتنعون عن دفع الحقوق الشرعية ، قال تعالى ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾^(٣).

ومن مفهوم المخالفة في آية البحث عدم كفاية الإيمان وهو اعتقاد وكيفية نفسانية فلا بد أن يترشح على الجوانح والجوارح بالقول والفعل وهما من مصاديق التقوى.

وعن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه : من المؤمن قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : المؤمن الذي لا يموت حتى يملأ الله مسامعه مما يجب ، ولو أن عبداً اتقى الله في جوف بيت إلى سبعين بيتاً على كل بيت باب من حديد لألبسه الله رداء عمله حتى يتحدث به الناس

(١) سورة الفرقان ٣٧.

(٢) سورة المائدة ٩.

(٣) سورة آل عمران ١٨٠.

ويزيدون ، قالوا : وكيف يزيدون يا رسول الله ، قال : لأن التقى لو يستطيع أن يزيد في بره ل زاد .

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من الكافر ، قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : الكافر الذي لا يموت حتى يملأ الله مسامعه مما يكره ، ولو أن فاجراً فجر في جوف بيت إلى سبعين بيتاً على كل بيت باب من حديد لألبسه الله رداء عمله حتى يتحدث به الناس ويزيدون . قالوا : وكيف يزيدون يا رسول الله ، قال : لأن الفاجر لو يستطيع أن يزيد في فجوره ل زاد ^(١).

الصلة بين أول وآخر الآية

ابتدأت آية البحث بصيغة القطع والجزم بالحفظ من الله عز وجل للمؤمنين في مجتمعهم وتجلي معاني سنخية الإيمان بأن يفصل ويعزل عنهم المنافقين والفساقين الذين يريدون شراً بالنبوة والتنزيل .

وهل هذا الحفظ من مصاديق قوله تعالى ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ ^(٢) ، أم أن القدر المتيقن من الآية أعلاه حفظ وسلامة الأشخاص .

الجواب هو الأول ، وهو من مصاديق اسم التفضيل ﴿خَيْرٌ﴾ في الآية أعلاه ، فالله سبحانه يحفظ الأنبياء ، والتنزيل والمؤمنين والعقائد الحقّة التي يتفضل بها الله تعالى ، ولا يقدر على هذا الحفظ إلا هو سبحانه ، ومنه علم الغيب الذي تذكره آية البحث ، ومنه سلامة المؤمنين في أشخاصهم وأبدانهم وصلاتهم وصيامهم ونجاتهم من دسائس المنافقين وشماتة الأعداء ، والآية أعلاه من سورة يوسف وهي مكية .

(١) الدر المنثور ١/١٤٠.

(٢) سورة يوسف ٦٣.

وهل فيها بشارة نصر المسلمين يوم معركة بدر ، وسلامة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من القتل في غزو المشركين للمدينة يوم معركة أحد ، الجواب نعم ، ويكون من معاني تقدير الآية أعلاه على وجوه :

الأول : والله خير حافظاً في حال السلم والحرب .

الثاني : والله خير حافظاً وهو الذي يحفظ رسوله .

الثالث : والله خير حافظاً فيدفع عن المسلمين شرور الذين كفروا .

وابتدأت الآية بصيغة الغائب بخصوص المؤمنين ثم انتقلت إلى لغة الخطاب بقوله تعالى ﴿عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾^(١) وفيه مسائل :

الأولى : بيان إكرام الله عز وجل للمؤمنين ، وفيه مصداق لقوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢).

الثانية : الإخبار عن حقيقة ، وهي اختلاط وتداخل المنافقين مع المؤمنين لولا فضل الله بفصل وتشخيص المنافقين .

الثالثة : اقامة الحجة بأن المؤمنين كانوا يظنون بأشخاص المنافقين بأنهم منهم في الإيمان والتصديق بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم خاصة وأنهم يخرجون معهم إلى ميادين القتال .

فحينما زحف ثلاثة آلاف من المشركين على المدينة في شهر شوال من السنة الثالثة للهجرة ، وصاروا على بعد ثمانية كيلومترات عن المسجد النبوي وأقل من هذه المسافة بالنسبة لأطراف المدينة ، وتعرضوا لبعض الأنصار الذين كانوا في زرع لهم .

وصاروا يتلفون المزروعات ، ويسرحون إبلهم وخيلهم فيها بقصد الإضرار ، ويهددون بغزو المدينة دعا النبي صلى الله عليه وآله وسلم أصحابه للخروج للتصدي للغزاة المشركين ، فخرج معه ألف من المهاجرين

(١) سورة آل عمران ١٧٩.

(٢) سورة المنافقون ٨.

والأنصار ، ولأن الله عز وجل أبى إلا عزل المنافقين قام ثلاثمائة منهم بالإنحزال من وسط الطريق إلى المعركة .

ولو لم ينخزل المنافقون من وسط الطريق إلى معركة أحد ، فهل يتلون في ذات المعركة بما يعزلهم ويكشف نفاقهم ، أم تأتي مناسبة أخرى كما في كتيبة المريسيع ، الجواب هو الأول ، لبيان قانون وهو حاجة المؤمنين إلى فضح المنافقين .

الرابعة : بعث السكينة في نفوس المؤمنين بأن الله عز وجل يرحمهم ، ويكشف الذين يسعون في الإضرار بهم ممن هو بين ظهرانيهم ، وهو من مصاديق حب الله عز وجل للمؤمنين .

لقد جعل الله عز وجل التمييز والفصل بين المؤمنين والمنافقين بلغة وغاية فهي على وجوه :

أولاً : سلامة وأمن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه .

ثانياً : إنها وسيلة سماوية لتثبيتهم في مقامات الإيمان .

ثالثاً : فيها زجر للمنافقين ومنع من تماديهم في الغي والمكر .

رابعاً : بعث اليأس والقنوط بي قلوب الذين كفروا من الإنتفاع من وجوه المنافقين بين ظهرائي المؤمنين .

وتقدير الآية : على ما اتم عليه أيها المؤمنون ، وهل هذا التمييز من التدرج في التخفيف عن المؤمنين الجواب نعم إذ صار هذا العزل حاجة للمؤمنين .

فبعد أن اشتد عضد المسلمين ، وقويت شوكة الإسلام ، وصارت له دولة في المدينة وبعد أن تحقق النصر للنبي صلى الله عليه وآله وسلم في معركة بدر ، وعجز المشركون عن هزيمته وصحابته في معركة أحد ، صارت هناك طائفة من المنافقين الذين يظهرون الإيمان ولكنهم يخفون الكفر، فنزل الأمر والبشارة من عند الله بفصلهم وعزلهم عن المؤمنين ، لتكون آية البحث عيداً لأجيال المسلمين ، وأمناً لهم من الغواية والضلالة .

لقد كفاهم الله عز وجل شر الكيد والمكر من بين صفوفهم بفضح المنافقين الذين لم يعودوا قادرين على ستر حقدهم والكدورة والحسد الذي يتصفون به .

وأخبرت الآية عن استئثار الله عز وجل بالعلم بما في قلوب الناس ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ فمن الناس من يمتلأ قلبه إيماناً ، ومنهم من يدب الشك الى قلبه ، فيفضل الله عز وجل بانزال آيات القرآن ، ويوحى الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم بما يجب عمله لعزل المنافقين فيكون كشف وعزل المنافقين في عالم الأفعال والواقع اليومي ، وليس من الإطلاع على ما في قلوبهم ، وفي التنزيل ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾^(١) ، ليضمر المسلمون في أنفسهم شكر الله عز وجل على نعمة تعاهد ألفتهم في طاعتهم.

وأختتمت الآية أعلاه بالإخبار عن تفضل الله عز وجل بالمغفرة وأنه سبحانه هو الحليم الذي يمهّل المنافقين وغيرهم ، وهل تدل آية البحث على هذا الإمهال .

الجواب نعم لقوله تعالى ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ ولكن هذا الإمهال لا يضر المؤمنين إذ يسبق العزل والفصل التنبيه والإنذار.

ولقد تكرر لفظ الجلالة أربع مرات في آية البحث لبيان حاجة المسلمين والناس الى رحمته تعالى في حياتهم العامة ، كما تكرر لفظ (رسله) مرتين مع أمر الله عز وجل بوجوب الإيمان به سبحانه ، وبالرسل الذين بعثهم للعباد ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾.

وذكرت آية البحث الإيمان بالرسول لبيان قانون وهو أن هذا الإيمان وافية من النفاق ، وأمن من المكر والكيد.

وأختتمت الآية بصيغة الجملة الشرطية ﴿وَإِنْ تَوَمَّنُوا وَيَتَّقُوا﴾ فلم تقل الآية (وان تؤمنوا) وتقف ، ولم تقل (وان تتقوا) انما جمعت بين الإيمان والتقوى وفيه حث للمسلمين على تعاقد مقامات الإيمان شكراً لله عز وجل على نعمة عزل المنافقين عنهم ، ودعوة لتزكية النفوس ، وتطهير المجتمعات من درن الرياء والكذب ، قال تعالى ﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌ كَرِيمٌ﴾^(١).

ولم يكن عدد الذين انخزلوا من المعركة قليلاً ، إذ كانوا ثلث الجيش بتحريض من قبل رئيس النفاق عبد الله بن أبي بن أبي سلول ، وكانت حجته أن النبي محمدا صلى الله عليه وآله وسلم استمع إلى أقوال الذين أصرروا على الخروج للقاء العدو خارج المدينة ، بينما أراد عبد الله بن أبي البقاء والدفاع فيها .

(وقال : أطاعهم وعصاني والله ما ندري علام تقتل أنفسنا ههنا ، فرجع بمن اتبعه من أهل النفاق وأهل الريب ، واتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام من بني سلمة يقول : يا قوم أذكركم الله أن تخذلوا نبيكم وقومكم عندما حضرهم عدوهم .

قالوا : لو نعلم أنكم تقتلون ما أسلمناكم ، ولكن لا نرى أن يكون قتال) ^(٢).

(١) سورة النمل ٤٠.

(٢) سورة النمل ٤٠.

وتكشف تلك القاعدة حقيقة وهي أن عزل الله للمنافقين بما كسبت أيديهم وبسوء اختيارهم عند الإبتلاء ، قال تعالى ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾^(١).

ولو لم ينسحب المنافقون في الشوط وسط الطريق إلى معركة أحد ، فهل يأتيتهم ابتلاء آخر بعزلهم عن المؤمنين ، الجواب نعم ، فلا يقاتل المنافق في المعركة ، مع أن هذا القتال دفاع محض عن كل من :
الأول : النبوة ومنهاجها وستنها .

الثاني : إرادة طمس آيات القرآن التي نزلت قبل معركة أحد لما فيها من الوعيد لهم بالنار ، مع أنهم غير مقصودين باشخاصهم بهذا الوعيد ، إنما جاء الوعيد للذي كفروا ، ومن معاني الوعيد كقوله تعالى ﴿وَيُلْكَلُّ هُمْزَةً لُّمَّةً﴾^(٢) دعوة المشركين إلى التوبة والإنابة ، وعدم تسخير أموالهم في محاربة النبوة والتنزيل .

الثالث : هجرة المشركون في معركة أحد لوقف نزول آيات وسور القرآن المتتالية والمتتابعة .

وقد أدركوا أنه لا سبيل إلى وقفها إلا بقتل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من جهات :

الأولى : لم ولن ينزل القرآن على غير النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

الثانية : لا يمتنع النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم عن الدعوة إلى الله والإجهار بنبوته ، وهو الأمر الذي تجلّى لكفار قريش عندما كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم في مكة .

(١) سورة النحل ١١٨.

(٢) سورة الهمة ١.

الثالثة : توالي دخول الناس الإسلام ويبعثهم للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

الرابعة : سلامة المسلمين من القتل أو الأسر والمسلمات من السبي ببركة وجود النبي صلى الله عليه وآله وسلم بين ظهرانيهم ، فهو الإمام في كتائب الدفاع ، وهو الذي يسير السرايا .

الخامسة : شاء الله عز وجل أن يتم نزول القرآن وبيان أحكام الحلال والحرام للناس قبل أن يغادر النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم الدنيا ، فكل آية من القرآن يحتاجها الناس ، وكذا بالنسبة لحاجتهم إلى أفراد السنة النبوية القولية .

وهل هذه الأفراد من مصاديق قوله تعالى ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ ^(١) لذا فقد حفظ الله عز وجل النبي محمداً حتى نزول تمام آيات القرآن عليه وبيانه للسنة التي هي فرع الوحي .
وهناك مسألتان :

الأولى : ترى ما هي الصلة بين أول آية البحث ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ ^(٢) وقوله تعالى ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ ^(٣) .

الثانية : ما هي الصلة بين أول آية البحث قوله تعالى ﴿وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ ^(٤) .

(١) سورة المائدة ٣ .

(٢) سورة آل عمران ١٧٩ .

(٣) سورة آل عمران ١٧٩ .

(٤) سورة آل عمران ١٧٩ .

أما المسألة الأولى فإن العلوم وأسرار التنزيل التي جاء بها الأنبياء والرسول من علوم الغيب ، ومما يساعد المسلمين فيما يخص أمور الدين والدنيا .

وأما المسألة الثانية فإن أول الآية يبين فضل الله في تهيئة مقدمات ومستلزمات الإيمان ومنها فصل وفضح المنافقين ، ليتعاون المسلمون في أداء الوظائف العبادية وعدم الإنشغال بالدسائس ، للتسليم بأن الغيب الذي هو كل ما غاب عن الحواس ولا يمكن العلم به إلا أن طريق الوحي والتنزيل .

من غايات الآية

في الآية مسائل :

الأولى : بيان فضل الله على المؤمنين في مجتمعاتهم .

الثانية : التخفيف عن المسلمين بعزل المنافقين .

الثالثة : لقد كان المسلمون مستضعفين في مكة ، يحيط بهم الذين كفروا ، فصاروا في المدينة أعزة ، ويخشاهم عدوهم ، ويميل المنافق للانضمام اليهم ، والتستر على حاله بالإدعاء أنه منهم ، مع نطقه بمفاهيم الإيمان خلافا لما قلبه .

فأخبر الله عز وجل بأنه يكشف زيف إدعائه ويفضحه ، وهذا الفضح نوع طريق لتوبته وصلاحه ، وهل من حصر لضروب هذا الفضح ، الجواب لا ، قال تعالى ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾^(١).

الرابعة : تبين آية البحث اللطف الإلهي بالمسلمين بأن يخرج من بينهم الذي يضمرك الكفر في نفسه ، والذي يريد لهم الخسارة ويشيع الأخبار الكاذبة بخصوص الذين يخرجون للدفاع والتصدي للمشركين في تعديدهم وإرادتهم غزو المدينة .

الخامسة : تنزيه مجتمعات ومنتديات المسلمين من مفاهيم الضلالة ، ومن صفات المنافقين تولي كفار قريش ونصرتهم ، قال تعالى ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا * الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَلْيَتُهُمْ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ ^(١).

السادسة : لقد خسر المسلمون معركة أحد بسبب ترك الرماة مواضعهم التي جعلهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيها ، مع إيمانهم وإخلاصهم ، فجاءت خيل المشركين من خلف جيش المسلمين ، فكيف لو كان المنافقون في الميدان ، فلا يعلم هول الخسارة التي يتلقاها المسلمون إلا الله .

السابعة : دعوة المسلمين للشكر لله عز وجل على نعمة التخفيف عنكم في مجتمعاتهم .

الثامنة : إشعار المنافقين بقبح فعلهم وكشف سوء سريرتهم ، وبعثهم على الإحتراز من النفاق ، وهذا الإحتراز مقدمة ونوع طريق لأمر :

الأول : كف أذى المنافقين .

الثاني : الخسارة أذى وضرر للمنافقين .

الثالث : ديبب الخوف إلى قلوب المنافقين .

الرابع : توبة المنافقين وحرصهم على إصلاح أنفسهم ، إذ يدركون مجتمعين ومتفرقين أن الله عز وجل يعلم ما في نفوسهم من النوايا السيئة وأنه سبحانه يفضحهم ويخزيهم ، قال تعالى ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ ^(٢).

(١) سورة النساء ١٣٨-١٣٩.

(٢) سورة البقرة ١٠.

التاسعة : أخبرت آية البحث عن حجب الله عز وجل علوم الغيب عن المسلمين ، وهذا الحجب رحمة بهم ، وفي التنزيل ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١).

العاشر : تحذير المسلمين من خيانة المنافقين مع حثهم على التوبة والإنبابة .

الحادية عشرة : في الآية وعد من الله عز وجل بعزل المنافقين عن المؤمنين .

ومن مصاديق هذا العزل ما يكون معه بعض المنافقين مكشوفاً بشخصه مثل عبد الله بن أبي بن أبي سلول ، فاراد الله عز وجل بآية البحث تحلي المسلمين بالصبر في المعاملة معهم ، قال تعالى ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُتَأَفِّقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُتَأَفِّقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾^(٢).

الثانية عشرة : قطع الطريق على الكافرين ، وإبطال شبهاتهم ، فقد يقول بعضهم إذا كان النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم رسولاً من عند الله فلماذا لا يخبرنا عن الوحي وأسرار السماء .

الثالثة عشرة : إصلاح المسلمين للاحتجاج على الذين كفروا والمنافقين ، ومنعهم من بث السموم والشكوك .

الرابعة عشرة : ثناء الله عز وجل على الأنبياء والرسل ، وبيان قانون وهو أن الله عز وجل استخلصهم لنفسه فأكرمه بالرسالة ، وهو فضل عظيم عليه وعلى الناس جميعاً .

(١) سورة البقرة ٢١٦.

(٢) سورة المنافقون ١.

فلا ينشغل المسلمون والناس بعلم الغيب وأسراره بل ليعملوا بما جاء به الأنبياء ، وهل فيه نهى عن الإشتغال بعلوم الفلك والنجوم بحثاً عن الغيب وأخباره ، الجواب نعم .

الخامسة عشرة : بيان آية البحث لسبيل النجاة وهو الإيمان بالله ورسله ، والإقرار بأنه وحده علام الغيوب ، وقد تفضل الله عز وجل على كل مسلم ومسلمة بتلاوة قوله تعالى ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾^(١).

السادسة عشرة : إعانة المسلمين لإجتنب اتخاذ بطانة ووليعة من المنافقين والمخادعين ، قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْمُرُكُمْ بِحَالٍ وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾^{(٢)(٣)}.

السابعة عشرة : تأكيد آية البحث لوجوب الإيمان بالله عز وجل إلهاً واحداً أحداً فرداً صمداً حياً قيوماً دائماً ابداً ، والتصديق برسله الذين اجتباهم واختارهم من بين الناس ، فما دام الله عز وجل هو الذي اختارهم للرسالة فيجب التصديق بهم .

الثامنة عشرة : اختتام آية البحث بعدم انحصار الوجوب بالإيمان ، فلا بد أن تقترن معه التقوى والخشية من الله بالسر والعلانية ، قال تعالى ﴿ وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ ﴾^(٤).

التاسعة عشرة : اختتمت آية البحث ببيان منافع عزل المنافقين وحجبهم عن التأثير والأثر في اختيار وفعل المؤمنين .

(١) سورة الفاتحة ٦.

(٢) سورة آل عمران ١١٨.

(٣) أنظر جزء الخامس والسبعين من هذا السفر .

(٤) سورة آل عمران ١١٨.

أسباب النزول

وفي قوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾^(١)،
(قيل إن سبب نزول هذا أن قوماً من المشركين قالوا : إن
كان محمد صادقاً فليخبرنا من يؤمن ومن لا يؤمن ، فنزلت
هذه الآية.

قال السدي : ما أطلع الله نبيه على الغيب ، ولكنه اجتبه فجعله
رسولاً)^(٢).

ومن خصائص المنافقين الجidal والمغالطة واثارة الشك والريب
، وكما أراد الكفار في مكة من النبي محمد صلى الله عليه وآله
وسلم قبل الهجرة أن يجعل لهم جبل الصفا ذهباً فان المنافقين في
المدينة أرادوا من النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يخبرهم بمن هو
مؤمن ومن هو غير المؤمن ، ومن سيدخل الإسلام ويحسن اسلامه
من الناس .

فنزل قوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾^(٣) لبيان سعة
فضل الله عز وجل وعمومات قوله تعالى ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ
الْكِتَابِ﴾^(٤) .

وهذا المحو والإثبات من مصاديق علم الغيب التي لا يحيط بها إلى الله
عز وجل .

(١) سورة آل عمران ١٧٩.

(٢) التكت والعيون ١/٢٦٥.

(٣) سورة آل عمران ١٧٩.

(٤) سورة الرعد ٣٩.

التفسير

قوله تعالى ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾

إبتدأت آية البحث بالخبر بصيغة النفي الذي يفيد القطع بان الله لا بد وأن يعزل المنافقين عن المؤمنين ، ويحتمل الخطاب في الآية وجوهاً :
الأول : توجه الخطاب للمؤمنين .

الثاني : المقصود في الخطاب عامة المسلمين والمسلمات .

الثالث : إرادة الوعيد للمنافقين .

الرابع : الإنذار للذين كفروا ، وبيان فضل الله في اصلاح حال المسلمين .

الخامس : المعنى العام بتوجهه للمسلمين والناس جميعاً .

ولا تعارض بين هذه الوجوه ، وكلها من مصاديق الآية الكريمة ، وهو من معاني قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(١) ، فلا يقدر البشر على الإتيان بكلام تتلون وتتعدد الجهات التي يتوجه إليها مع التباين الموضوعي .

وهل تدل الآية على أن الله عز وجل هو الذي سخر الذين كفروا لقتال المسلمين حتى يتميز المؤمن من الكافر ، الجواب لا ، إنما أصر الذين كفروا على القتال ، كما أن موارد هذا التمييز أعم من أن تنحصر بهذا القتال ، ففي كل ساعة يكون هناك تمييز وفصل بين المؤمن والكافر ، ومن الإعجاز في الشرائع السماوية الأمر من الله عز وجل للعباد بالصلاة ، وقد أنعم الله عز وجل على المسلمين بالصلاة خمس مرات في اليوم ، وقال الله تعالى في ذم المنافقين ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ﴾^(٢) .

(١) سورة الأنبياء ١٠٧ .

(٢) سورة النساء ١٤٢ .

وعن قتادة عن خلاص بن عمرو قال : كنا جلوسا عند علي بن أبي طالب إذ أتاه رجل من خزاعة فقال يا أمير المؤمنين هل سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ينعت الإسلام.

قال نعم سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول بني الإسلام على أربعة أركان على الصبر واليقين والجهاد والعدل.

وللصبر أربع شعب الشوق والشفقة والزهادة والترقب فمن اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات ومن أشفق من النار رجع عن الحرمات ومن زهد في الدنيا تهاون بالمصيبات ومن ارتقب الموت سارع في الخيرات.

ولليقين أربع شعب تبصرة الفطنة وتأويل الحكمة ومعرفة العبرة واتباع السنة فمن أبصر الفطنة تأول الحكمة ومن تأول الحكمة عرف العبرة ومن عرف العبرة اتبع السنة ومن اتبع السنة فكأنما كان في الأولين.

وللجهاد أربع شعب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصدق في المواطن وشنآن الفاسقين فمن أمر بالمعروف شد ظهر المؤمن ومن نهى عن المنكر أرغم أنف المنافق ومن صدق في المواطن قضى الذي عليه وأحرز دينه ومن شنأ الفاسقين فقد غضب الله ومن غضب الله يغضب الله له.

وللعدل أربع شعب غوص الفهم وزهرة العلم وشرائع الحكم وروضة الحلم فمن غاص الفهم فسر جمل العلم ومن رعى زهرة العلم عرف شرائع الحكم ومن عرف شرائع الحكم ورد روضة الحلم ومن ورد روضة الحلم لم يفرط في أمره وعاش في الناس وهم في راحة.

كذا رواه خلاص بن عمرو مرفوعا وخالف الرواة عن علي فقال الإسلام ورواه الأصبغ بن نباتة عن علي عليه السلام مرفوعا فقال الإيمان^(١).

وتقدير آية البحث على وجوه :

الأول : ما كان الله ليذر المؤمنين متداخلين مع المنافقين .

الثاني : ما كان الله ليترك المؤمنين يحسبون المنافقين منهم ، قال تعالى ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ^(١)﴾ .

الثالث : ما كان الله ليذر المؤمنين والمؤمنات على ما أنتم عليه حتى يخفف عنكم بفضح المنافقين ، ومن إعجاز القرآن ذكره للمؤمنات كما ذكر المنافقات ، قال تعالى ﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا^(٢)﴾ ، والآية أعلاه هي الآية الوحيدة في القرآن التي تجمع بين كل من :

الأول : المؤمنون والمؤمنات .

الثاني : المشركون والمشركات .

الثالث : المنافقون والمنافقات .

وبينت الآية التباين والتضاد بين حال المؤمنين والمؤمنات بفوزهم بالتوبة والرحمة من عند الله عز وجل ، وحال أهل الشرك والنفاق من نزول العذاب بهم ، ليكون من معاني آية البحث أن التمييز والفصل الذي تذكره آية البحث يترتب عليه الجزاء ، والثواب للمؤمنين ، والعذاب للمنافقين والمشركين ، وجاء قوله تعالى ﴿لِيُعَذِّبَ﴾ بلام التعليل ، ليكون من وجوه تقدير الجمع بين الآيتين : حتى يميز الخبيث من الطيب ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات .

فلما ذكر العذاب في الآية أعلاه من سورة الأحزاب ورد تعيين الذين ينزل بهم بلغة البيان وعدم اللبس أو التردد ، فلم تقل الآية ليعذب الخبيثين والخبيثات مع أنه ورد في آية واحدة في القرآن وعلى نحو التكرار

(١) سورة التوبة ٥٦ .

(٢) سورة الأحزاب ٧٣ .

لكل منها بقوله ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾^(١).

والخبيث الفاسد والردئ والفعل الباطل وسوء الخلق ، ومن يأتي المحرمات.

(الخبيث: ضد الطيب. وقد خَبِثَ الشيء خَبَاثَةً، وخَبِثَ الرجل خُبْنًا، فهو خبيث، أي خَبٌّ رديء. وأخْبَثَهُ غيره، أي عَلَّمَهُ الخُبْثَ وأفسده. وأخْبَثَ أيضاً، أي اتخذ أصحاباً خبثاء، فهو خبيثٌ مُخْبِثٌ ومُخْبَثَانٌ. وقول عنتره:

نُبِّتُ عَمْرَأً غَيْرَ شَاكِرٍ نِعْمَتِي ... وَالْكَفْرُ مَخْبِثَةٌ لِنَفْسِ الْمُنْعَمِ
أي مفسدة. ويقال: فلانٌ لَخْبِثَةٌ، كما يقال لَزْنِيَّةٌ. ويقال في النداء: يا خُبْثُ، كما يقال يا لُكْعُ تريد يا خبيثُ. وللمرأة: يا خُبَاثُ، بُني على الكسر مثل يا لُكَاعَ. وخَبِثَ الحديد وغيره: ما نَفَاهُ الكِيرُ^(٢).

وورد ذكر ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ في آية البحث ، ويحتمل وجوهاً :

الأول : إرادة عامة المسلمين والمسلمات الذين أقاموا الصلاة وأدوا الفرائض.

الثاني : الذين نطقوا بالشهادتين .

الثالث : خصوص المؤمنين والمؤمنات الذين أسلموا ، وآمنوا بقلوبهم وجوانحهم .

وهل يحتمل أن لفظ ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ قد يطلق على عموم المسلمين بلحاظ القرائن مع الإقرار بأن الأصل هو اختصاصه بالذين صدقوا بجوانحهم وجوارحهم ، مع بيان مسألة وهي ورود آيات باختصاص لفظ

(١) سورة النور ٦٢.

(٢) الصحاح في اللغة ١/١٦١.

الإيمان كما في قوله تعالى ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾^(١).

والجواب هذا أمر ممكن إذ تم اثباته بقراءة لفظ ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ في القرآن ودلالاته ومعانيه يحسب الموضوع والحكم ونظم الآية .
ويولي علماء الاجتماع عناية فائقة لأحوال الشعوب والجماعات ، ويشترك معهم رجال السياسة في تنظيمها وبناء منظومة الأخلاق بما يبعث على الإستقرار ، أما بالنسبة لأهل الإيمان فقد تكفل الله عز وجل نفسه تنقيح مجتمعاتهم من درن الخبث .

وتنزل آيات من القرآن وهي تتضمن التحذير من النفاق والمنافقين ، أما النفاق فتتجلى معانيه وتعيينه بآيات القرآن وأحاديث السنة النبوية ، قال تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ * يَخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمَنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ * وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنُوا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ﴾^(٢)، ونزلت سورة كاملة من القرآن باسم سورة المنافقون ، ويستحب قراءتها في الصلاة يوم الجمعة.

(١) سورة النساء ١٦٢.

(٢) سورة البقرة ٨-١٤.

وتتضمن آية البحث بيان عظيم قدرة الله ، وسعة سلطانه ، فهو وحده القادر على التمييز بين الطيب والخبيث ، فان قلت قد يميز السلطان والقائد وأهل الفراسة بينهما ، الجواب نعم ، ولكن تمييزهم يتصف بالنقصان واللبس والإرباك ، وقد يبدو له الطيب خبيثاً وبالعكس ، لذا قد تقع الخيانة والضرر في حاشيته ، وعليه شواهد في كل زمان .

ولكن الله عز وجل وحده الذي يطلع على علوم الغيب ، ويعلم سرائر النفوس ليكون هذا العلم من معاني ذكر الآية لعلم الغيب بقوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾^(١) ، وفيه نكتة وهي أن المؤمنين لا يستطيعون التمييز بين الصالح والطالح ، بين المؤمن والمنافق ، ولكن الله عز وجل يمدّهم بالأسباب للفصل والتمييز ومعرفة أحوال الناس ، ومن هذه الأسباب :

الأول : مجيئ آيات القرآن ، وأحكام الحلال والحرام.

الثاني : نزول الوحي بتعيين صفات المنافقين.

الثالث : حدوث وقائع تكشف أحوال الناس ، كما في قوله تعالى

﴿أَشْحَةَ عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِالسِّنَةِ حَدَادٍ أَشْحَةَ عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾^(٢) ، وكما في قوله تعالى ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِلْإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٣) ، والمراد من التمييز بين الخبيث والطيب وجوه :

(١) سورة آل عمران ١٧٩.

(٢) سورة الأحزاب ١٩.

(٣) سورة آل عمران ١٦٨.

الأول : التمييز بين الخبيث والطيب عند الله عز وجل باقامة الحجة على الناس ، فهو سبحانه ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾^(١).

الثاني : التمييز عند المؤمنين ، إذ يعرفون سنخية الإنسان وصدقه أو كذبه ويقينه وشكه عن طريق قوله وعمله ، وعن الإمام علي عليه السلام (قال قلت لأربعاً أنزل الله تعالى تصديقي بها في كتابه قلت: المرء

مخبوء تحت لسانه فإذا تكلم ظهر، فأنزل الله تعالى ﴿وَلَنَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾^(٢)، قلت: فمن جهل شيئاً عاداه، فأنزل الله ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يُحِيطُوا بِعَلَمِهِ﴾^(٣).

وقلت: قدر أو قيمة كل امرئ ما يحسن، فأنزل الله في قصة طالوت ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾^(٤)، وقلت: القتل يقل القتل، فأنزل الله (ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب)^(٥).

الثالث : عدم الإختلاط والتداخل بين المؤمنين والمنافقين بما يربك الحال ، إذ أن الذين في قلوبهم مرض ييثون سمومهم خاصة عند ساعة الشدة .

فمن منافع هذا التمييز والفصل وقاية المؤمنين من مكر المنافقين عند التوجه إلى معركة أحد ، ففي وسط الطريق إلى المعركة أظهر رأس النفاق عبد الله بن أبي بن أبي سلول الإحتجاج على خطة الخروج إلى جبل أحد

(١) سورة غافر ١٩.

(٢) سورة محمد ٣٠.

(٣) سورة يونس ٣٩.

(٤) سورة البقرة ٢٤٧.

(٥) البحار ١/١٦٦.

لملاقاة جيش الذين كفروا وعددهم ثلاثة آلاف رجل عدا النساء قدموا من مكة يريدون قتل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وقتل طائفة من أصحابه وأسر طائفة أخرى ، ولو تم لهم هذا لم يبق ما يفصلهم عن المدينة ، ولا ستباحوها ونهبت الأموال وخربت البيوت لكل من :
الأول : الأنصار .

الثاني : عموم الأوس والخزرج ، قال تعالى ﴿قَالَتْ إِنْ الْمُلُوكُ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾^(١).

والنسبة بينهم وبين الأنصار عموم وخصوص مطلق فقد وقعت معركة أحد في السنة الثالثة من الهجرة .

الثالث : قبائل اليهود الذين كانوا في المدينة ، وهم كل من :
أولاً : بنو قريظة .

ثانياً : بنو النضير .

ثالثاً : بنو قينقاع .

الرابع : نهب أموال وبيوت المنافقين أنفسهم .

ومن اليهود من عقد عهداً مع النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالإضافة إلى مسألة وهي أن الغزاة لا يميزون بين أهل البلدة كما تدفعهم الرغبة في الثأر والطمع وتوارث النهب والسلب ، لبيان أن خروج النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه إلى معركة أحد حاجة ، ولم يتم إلا بالوحي ، قال تعالى ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَرَمِ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾^(٢).

(١) سورة النمل ٣٤.

(٢) سورة النجم ٣-٤.

ويكون هذا التمييز من جهات متعددة منها بين الأشخاص ، فيبتلي الله عز وجل الناس والأفراد حتى يعرف صدق إيمان المسلم ، وجاء قوله تعالى ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١) ، لبيان قانون فيما يخص بعض الأفراد والجماعات ولا يختص الأمر بالأعراب وحدهم .

وعن أبي هريرة الأسلمي قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال : يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان في قلبه لا تتبعوا عورات المسلمين ، فإنه من اتبع عورات المسلمين فضحه الله في قعر بيته (٢) . وعن جبير بن نفير قال : صلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوماً بالناس صلاة الصبح فلما فرغ أقبل بوجهه على الناس رافعاً صوته حتى كاد يسمع من في الخدور وهو يقول : يا معشر الذين أسلموا بألسنتهم ، ولم يدخل الإيمان في قلوبهم لا تؤذوا المسلمين ولا تعيروهم ولا تتبعوا عوراتهم ، فإنه من يتبع عثرة أخيه المسلم يتبع الله عثرته . ومن يتبع الله عثرته يفضحه وهو في قعر بيته .

فقال قائل يا رسول الله : وهل على المسلمين من ستر؟ فقال صلى الله عليه وسلم : ستور الله على المؤمن أكثر من أن تحصى ، إن المؤمن ليعمل الذنوب فتهتك عنه ستوره سترأ سترأ حتى لا يبقى عليه منها شيء ، فيقول الله للملائكة استروا على عبدي من الناس فإن الناس يعيرون ولا يغيرون ، فتحف به الملائكة بأجنحتها يسترونه من الناس .

فإن تاب قبل الله منه ورد عليه ستوره ومع كل ستر تسعة أستار ، فإن تاب في الذنوب قالت الملائكة : ربنا إنه قد غلبنا واعدنا فيقول الله استروا

(١) سورة الحجرات ١٤.

(٢) الدر المنثور ٢٥٨/٩.

عبيدي من الناس ، فإن الناس يعيرون ولا يغيرون فتحف به الملائكة بأجنحتها يسترونه من الناس فإن تاب قبل الله منه ورد عليه ستوره ومع كل ستر تسعة أستار .

فإن تتابع في الذنوب قالت الملائكة يا ربنا : إنه قد غلبنا وأعذرنا .
 فيقول الله استروا عبيدي من الناس فإن الناس يعيرون ولا يغيرون ،
 فتحف به الملائكة بأجنحتها يسترونه من الناس ، فإن تاب قبل الله منه ،
 وإن عاد قالت الملائكة : ربنا إنه قد غلبنا وأعذرنا ، فيقول الله للملائكة :
 تخلو عنه فلو عمل ذنباً في بيت مظلم في ليلة مظلمة في حجر أبدى الله عنه
 وعن عورته^(١) .

وجبير بن نفيير بن مالك الحضرمي جاهلي اسلامي ، لم ير النبي صلى
 الله عليه وآله وسلم أدرك أيام الجاهلية وأسلم أيام أبي بكر ولأبيه نفيير
 صحبة ورواية^(٢) .

وسمع عن بعض الصحابة مثل أبي الدرداء وعبادة بن الصامت ،
 وعائشة وعمر بن الخطاب والمقداد وأبي ذر ، وروى جبير بن نفيير عن
 عوف بن مالك مرفوعاً من أراد بر والديه فليعط الشعراء قال ابن حبان
 وهذا باطل^(٣) ، ولكن نعت الحديث بالبطلان بسبب دلالاته وقواعد علم
 الدراية لم يثبت .

وقد يدخل الإنسان الاسلام ، ولم يستقر الإيمان في قلبه ، ولكن هذا
 ليس من الخبيث الذي تذكره آية البحث ، فلم تقل الآية أعلاه (ولم يدخل
 الإيمان قلوبكم) إذ تفيد (لم) النفي المستمر ، أما (لما) التي وردت في الآية
 أعلاه بقوله تعالى ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾^(٤) ، فانها تفيد النفي الى

(١) الدر المنثور ٢٥٩/٩ .

(٢) أنظر الإستيعاب ٦٩/١ .

(٣) ابن حجر العسقلاني / لسان الميزان ١٣/١ .

(٤) سورة الحجرات ١٤ .

حين الكلام ، مع احتمال تحقق الأمر وزوال هذا النفي بعده ، فقد يؤمن الأعراب فيما بعد .

ولم يرد لفظ (يدخل الإيمان) في القرآن إلا في الآية أعلاه مع كثرة ورود لفظ الإيمان فيه .

ويمكن القول أن النسبة بين (لم) و (لما) هي العموم والخصوص المطلق ، إذ تفيد (لم) إطلاق النفي ، أما (لما) فتفيد النفي المؤقت ، ومن إعجاز نظم القرآن وتفسير بعضه لبعض ورود آيات في الثناء على الأعراب كما في قوله تعالى ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذِنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(١) ، لبيان قانون وهو دخول الإيمان في قلوب طائفة من الأعراب ، وهذا الدخول وإرتقاء الأعراب في منازل الإيمان من الشواهد على صدق نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

وقد ورد لفظ (الأعراب) عشر مرات في القرآن ستة منها في سورة التوبة ، واثنين في سورة الفتح ، وذكرت آية أخرى الأعراب ولكن لإرادة المنافقين وحالهم عند الشدة وقدم جيوش المشركين يوم الأحزاب ، وكيف أن المنافقين يتمنون خسارة المؤمنين .

وعن قتادة في قوله تعالى ﴿وَإِذَا يَأَتْ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوِائِهِمْ يَادُّونَ فِي الْأَعْرَابِ﴾^(٢) ، قال : هم المنافقون بناحية المدينة ، كانوا يتحدثون بنبي الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه ، ويقولون : أما هلكوا بعد ، ولم

(١) سورة التوبة ٩٠ .

(٢) سورة الاحزاب ٢٠ .

يعلموا بذهاب الأحزاب ، قد سرهم أن جاءهم الأحزاب أنهم بادون في الاعراب مخافة القتال^(١).

ويحتمل موضوع التمييز وجوهاً :

الأول : إرادة القضية الشخصية وأن المقصود الأفراد ، وتقدير الآية : حتى يميز الشخص الخبيث من الشخص الطيب .

الثاني : المقصود القول والنطق ، وتقدير الآية : حتى يميز القول الخبيث من القول الطيب .

وفي التنزيل ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾^(٢).

ومن القول الطيب وجوه :

أولاً : كلمة الإخلاص وقول لا إله إلا الله .

ثانياً : القرآن والنطق بآياته ، وأتخاذها حجة ودليلاً .

ثالثاً : الذكر والتسبيح .

رابعاً : الصدق .

خامساً : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

سادساً : الشكر لله على النعم .

سابعاً : أداء الصلاة والقرآن فيها .

ثامناً : ما فيه قصد القربة ورجاء الثواب من عند الله ، قال تعالى

﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾^(٣).

تاسعاً : استحضر وذكر النعم الإلهية .

(١) الدر المنثور ٨/١٣٩.

(٢) سورة الحج ٢٤.

(٣) سورة فاطر ١٠.

الثالث : عالم الأفعال ، والمراد من الطيب فعل الصالحات ، ومن الخبيث إرتكاب المعاصي والسيئات .

الرابع : إرادة الجماعات والطوائف والذين يجتمعون على أمر جامع يتصف بالحسن أو ضده .

إذ تدل آية البحث على أن النسبة بين الطيب والخبيث هو التضاد .
ومن فضل الله عز وجل على الناس عدم تركهم وشأنهم مما قد يلبس عليهم فهو سبحانه يجذبهم إلى الصلاح وفعل الخيرات في النهار والليل ، قال تعالى ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوِ يَظِيلُكُمْ فِيكُمْ كَثِيرٌ مِنْ أَمْرٍ لَعَنْتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ (١) .

وتحتمل آية البحث والسياق وجوهاً :

الأول : آية البحث دعوة للطيب وزجر عن الخبيث .

الثاني : آية البحث وعد وبشارة على الطيب والحسن ، ووعد وزجر عن الخبيث .

الثالث : آية السياق ذم للذي يفعل الخبيث وتحذير منه ، وهي تدل في مفهومها على الثناء على الذي يعمل الصالحات ، ويفعل ما هو طيب وحسن .

الرابع : كل من آية البحث والسياق تقريب إلى العمل الصالح ، ودعوة لتعاهده .

ومن الإعجاز في الفرائض العبادية تلاوة كل مسلم ومسلمة في كل ركعة من الصلاة قوله تعالى ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (٢) .

(١) سورة الحجرات ٧ .

(٢) سورة الفاتحة ٦ .

ترى ما هي النسبة بين الصراط المستقيم والطيب ، تحتل وجوهاً :
الأول : التساوي ، فذات الطيب هو الصراط المستقيم .

الثاني : نسبة العموم والخصوص المطلق ، وهو على شعبتين :
الأولى : الصراط المستقيم أعم من الطيب .

الثانية : الطيب أعم من الصراط المستقيم .

الثالث : نسبة العموم والخصوص من وجه ، وهناك مادة للإلتقاء
وأخرى للإفتراق بين الصراط والطيب .

والمختار هو الشعبة الأولى من الوجه الثاني أعلاه ، قال تعالى ﴿وَأَنزَلْنَا هَذَا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(١) ، لذا تفضل الله عز وجل وجعل كل مسلم ومسلمة يتوجهان بالدعاء وسؤال الهداية إلى الصراط عدة مرات كل يوم ليدخل الطيب من القول والفعل في الصراط ، وورد في موسى وهارون قوله تعالى ﴿وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(٢) أي إلى الإسلام وطاعة الله عز وجل والهداية سبل الحق ، والطرق التي تهدي إليه ، والأعمال التي تؤدي إلى عبور الصراط في الآخرة .

ومن الصراط في الآية أعلاه الإمامة وحسن الرياسة في بني إسرائيل والأخذ بأيديهم إلى سبل النجاة .

ولم تقل الآية لتمييز الخبيث إنما قالت ليميز أي يفصل ويعزل ويركن الخبيث جانباً عن الطيب .

والمراد من الخبيث في الآية على شعبتين :

الأولى : إرادة التمييز بين الناس فيكون الخبيث على وجوه منها :

(١) سورة الأنعام ١٥٣.

(٢) سورة الصافات ١١٨.

الأول : الفاسق .

الثاني : المنافق .

الثالث : الفاجر .

الرابع : المرائي .

الخامس : الكافر .

السادس : الذي ييثر الأخبار والأراجيف في المدينة .

السابع : أهل الشك والريب .

الثانية : إرادة الإفعال ، فيكون الخبيث على وجوه :

الأول : الظلم .

الثاني : الإصرار على الكفر .

الثالث : عبادة الأوثان .

الرابع : القول الخبيث ، والتحريض على قتال النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه .

الخامس : الحث على قعود الأنصار عن الدفاع مع أن المشركين على مشارف المدينة ، (عن ابن شهاب وغيره قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أحد في ألف رجل من أصحابه ، حتى إذا كانوا بالشرط بين أحد والمدينة انخزل عنهم عبد الله بن أبي بثلث الناس ، وقال : أطاعهم وعصاني والله ما ندري علام تقتل أنفسنا ههنا ، فرجع بمن اتبعه من أهل النفاق وأهل الريب .

واتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام من بني سلمة يقول : يا قوم أذكركم الله أن تحذلوا بنيكم وقومكم عندما حضرهم عدوهم .
قالوا : لو نعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم ، ولكن لا نرى أن يكون قتال .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿لو نعلم قتالاً لاتبعناكم﴾^(١)، قال : لو نعلم انا واجدون معكم مكان قتال لاتبعناكم .

وأخرج ابن جرير عن عكرمة قالوا { لو نعلم قتالاً لاتبعناكم } قال : نزلت في عبد الله بن أبي .

وأخرج ابن جرير عن السدي قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد في ألف رجل وقد وعدهم الفتح إن صبروا ، فلما خرجوا رجع عبد الله بن أبي في ثلاثمائة ، فتبعهم أبو جابر السلمي يدعوهم ، فلما غلبوه وقالوا له : ما نعلم قتالاً ولئن أطعنا لترجعن معنا . فذكر الله . فهو قولهم : ولئن أطعنا لترجعن^(٢) .

ومن التمييز فضح النفاق واضمار المنافق الكفر في ذات الوقت الذي يتظاهر فيه بالإيمان ، ويحضر الصلاة مع النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

ومن مصاديق فضح وعزل الخبيث عن الطيب الذين تذكره آية البحث المصاديق اليومية لقوله تعالى ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَأُّوْنَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(٣) .

ومن الخبيث الشح والبخل بالحقوق الشرعية والإمتناع عن اخراج الزكاة الواجبة ، وعن دفع الصدقات المستحبة .

فمن الإعجاز في الشريعة الإسلامية بخصوص الزكاة مسائل :

الأولى : تعلق الزكاة الواجبة بالمال الذي يبلغ النصاب .

الثانية : عدم حصر الزكاة بالواجبة منها كزكاة المال وزكاة الفطرة .

(١) سورة آل عمران ١٦٧ .

(٢) الدر المنثور ٢/٤٨٠ .

(٣) سورة النساء ١٤٢ .

والصدقة رحمة بصاحبها الذي يدفعها وبالمستحق الذي تصل إليه وغيره ، فهي خير محض ، وحرب على الإرهاب ، ونزع للكرامية ، فلذا لم تذكر آية الصدقات الزكاة بالذات إنما وردت بلفظ الصدقات ، وهو من إعجاز القرآن ، قال تعالى ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (١) .

الثالثة : وصول الزكاة إلى الفقراء والمحتاجين والإنتفاع منها باقامة الصلاة وأداء الفرائض العبادية الأخرى والتزود للمؤونة ، وهي متاع في النشاطين ، قال تعالى ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ﴾ (٢) .

الرابع : الكفر وهو أشد وجوه الخبث ، إذ تترشح عنه المعاصي والسيئات ، وهل من معاني قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ (٣) التماذي في المعاصي ، وفعل الخبائث بسبب الشرك .
الجواب نعم لأن الإيمان زاجر عنها .

الخامس : من الخبيث التجارة المحرمة والمكاسب الباطلة ، وفي قوله تعالى ﴿ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ ﴾ (٤) (قيل : نزلت في رجل سأل رسول الله عليه الصلاة والسلام : إن الخمر كانت تجارتي ، وإنني جمعت من بيعها مالاً ، فهل ينفعني من ذلك المال إن عملت فيه بطاعة الله تعالى ؟

(١) سورة التوبة ٦٠ .

(٢) سورة البقرة ١٩٧ .

(٣) سورة النساء ١١٦ .

(٤) سورة المائدة ١٠٠ .

فقال النبي عليه الصلاة والسلام : إن أنفقته في حج أو جهاد أو صدقة لم يعدل جناح بعوضة ، إن الله لا يقبل إلا الطيب^(١) .
وهناك مسألتان :

الأولى : ما هي النسبة بين الطيب والمؤمن ، المختار هي العموم والخصوص المطلق ، فالطيب أعم لذا تتضمن الآية المندوحة والسعة وعدم التشديد ، والطيب يقود إلى الإيمان ، وكذا العكس من غير أن يلزم الدور بينهما .

ليكون من منافع الآية أنها تأخذ بأيدي المسلمين إلى مراتب الإيمان والتحلي بالأخلاق الحميدة ، والتزهد عن الكذب ، والإفتراء ، وعن قبيح الأفعال ، قال تعالى ﴿ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَأُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾^(٢) .

فمن الخبيث ما تكون فيه لذة حسية مؤقتة ولكنه يخلف الأذى والندامة ، لذا جاء القرآن بالترغيب بالصالحات وفيها السكينة والغبطة والسعادة في النسأتين ، قال تعالى ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْشَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ۖ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾^(٣) .

(عن قيس بن أبي غرزة قال خرج علينا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ونحن نسمى السماسرة فقال يا معشر التجار إن الشيطان والإثم يحضران البيع فشوُّبوا بيعكم بالصدقة . قال وفي الباب عن البراء بن عازب ورفاعة)^(٤) .

(١) تفسير ابن السعود ٢/ ٢٩٨ .

(٢) سورة المائدة ١٠٠ .

(٣) سورة النحل ٩٧ .

(٤) سنن الترمذي ٥ / ٩٧ .

الثانية : ما هي النسبة بين الخبيث والكافر ، الجواب هو العموم والخصوص المطلق .

فالخبيث أعم إذ يدخل فيه الفاجر والفاسق والنمام والغادر والمنافق والمرائي ، لذا تتضمن آية البحث التحدي المتعدد ، وتبين قانوناً وهو كشف الله عز وجل لذمائم الأخلاق ، ولما ييطن الناس في سرائرهم ، وفيه دعوة من جهات :

الأولى : دعوة المؤمنين والمؤمنات للثبات في مقامات الإيمان ، وعدم الإلتفات لأسباب الشك والريب التي ييثرها المنافقون والمنافقات ، ولقد ذكر الله عز وجل المنافقات في القرآن خمس مرات وبين قبح فعلهن وسوء العاقبة الذي ينتظرهن والمنافقين ، قال تعالى ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بُعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾^(١).

الثانية : ارتقاء المسلمين في مراتب الهدى والإيمان ، قال تعالى ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾^(٢).

الثالثة : توبة المنافقين عن النفاق والرياء ، وبذلهم الوسع في محاربة النفس الشهوية .

الرابعة : بيان حسن عاقبة المؤمنين ، وهذا البيان وسيلة لجذب الناس لمنازل الإيمان ، وهو من اللطف الإلهي بالناس ، وهل منه الإنذار والوعيد للذين كفروا والمنافقين .

(١) سورة التوبة ٦٧.

(٢) سورة آل عمران ١٠٣.

الجواب نعم .

ويأتي الوعد والوعيد في القرآن بصيغ منها :

الأول : النص بالوعد الكريم للمؤمنين ، ودلالة مفهومه على الوعيد

للكافرين ، قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾^(١).

الثاني : مجئ الوعيد من عند الله للذين كفروا ، وهو يدل في مفهومه

على الوعد للمؤمنين ، قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُخْشَرُونَ﴾^(٢).

إذ تبدأ الآية أعلاه بدم الذين كفروا بنعتهم بصفة الكفر ثم تخبر عن قبح فعلهم في إنفاق أموالهم في محاربة النبوة والتنزيل ، والبذل للشعراء ورؤساء القبائل ليعينوهم في حربهم على الإسلام ، لتصبح هذه الأموال وأنفاقهم حسرة في نفوسهم .

فمن إعجاز الآية أنها لم تخبر عن ترتب الحسرة على هذا الإنفاق إنما أخبرت بأن ذات الإنفاق حسرة .

وهل يمنع هذا المعنى من ترتب الحسرة على الإنفاق ، الجواب لا ، إنما يكون هذا الترتب في طول مضمون الآية ومن مصاديقه ، وتقدير الآية : ثم تكون على الكافرين حسرة وتختلف حسرة ، وتحتل هذه الحسرة وجوهاً :

الأول : الحسرة في الدنيا ، قال تعالى ﴿وَأَنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾^(٣).

(١) سورة الحج ١٤.

(٢) سورة الأنفال ٣٧.

(٣) سورة الحاقة ٥٠.

الثاني : الحسرة في الآخرة ، قال تعالى ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(١).

الثالث : الفرد الجامع للحسرة في النشاطين .

والصحيح هو الثالث أعلاه ، بدليل تقديم الحسرة على هزيمة الدين كفروا ومجئ قوله تعالى ﴿ثُمَّ يَغْلِبُونَ﴾ بأداة العطف التي تفيد التراخي ، مما يدل على طول مدة إعداد المشركين للقتال ، ومنه تهيوهم لمعركة أحد إذ استغرق سنة كاملة من حين وصول المشركين في آخر رمضان منهزمين من معركة بدر ، إذ وقعت المعركة في السابع عشر من شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة .

وتدل الآية في ظاهرها على التعدد بين الطيب والخبيث وأن الله يفصل الشخص الخبيث عن المؤمن ، كما تدل على فصل الكلام الخبيث عن الطيب بحيث يبين الله للمؤمنين ما يجب عليهم قوله وفعله ، وما يلزم تركه من القول والفعل ، قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * دَعَوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٢).

ومن خصائص آية البحث أنها تجعل نفس المسلم تعاف الخبيث ، ليكون الإبتعاد عنه تركة لأجيال المسلمين ، وهل هذه التركة أمر وجودي أم عدمي .

(١) سورة مريم ٣٩.

(٢) سورة يونس ٩-١٠.

الجواب هو الأول ، لأن التنزه عن الخيث صبر وسعي وجهاد رجاء الأجر والثواب ، وفي التنزيل ﴿قُلْ مَا عَدُّ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾^(١).

ومن مصاديق آية البحث قول النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم (أَدْبَنِي رَبِّي فَأَحْسَن تَأْدِيبِي)^(٢) إذ انها تأديب وارشاد وهداية للمسلمين والمسلمات وأخذ بأيديهم إلى الرياض الطيبة ، والألوان الزاهية للقول الحسن ، والصدى البهيج للفعل الحسن ، قال تعالى ﴿وَأَن هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾^(٣).

قانون غايات التمييز

لقد أخبرت آية البحث عن قانون من الإرادة التكوينية تتجدد مصاديقه كل يوم وهو تمييز وفصل ومعرفة المؤمنين عن غيرهم ، فمن خصائص الحياة الدنيا الإختلاط والتداخل بين الناس مع الإختلاف في المشارب والمذاهب والتعدد في الرأي في المسألة الواحدة ، فكيف وقد جاء النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم برسالة من السماء تبطل عادات الجاهلية ، وعبادة الأصنام ، وتمنع من العصبية القبلية والثأر وما يتفرع عنه من القتال. وقد قابل رؤساء الكفر دعوة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم للتوحيد وأداء الفرائض العبادية بالجحود والصدود وإشهار السيوف ، مع أنه لم يحاربهم ، ولم ينافسهم في منازلهم وشأنهم بين العرب ، وحتى ولاية المسجد الحرام فهو أولى بها وراثته عن آبائه ولمقام النبوة ، قال تعالى

(١) سورة النساء ٧٧.

(٢) الكشف والبيان للثعلبي ٢٣٣/١٣.

(٣) سورة الأنعام ١٥٣.

﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَائُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١)، ومع هذا فإن النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم كان ينادي بكلمة التوحيد في متدياتهم وفي موسم الحج .

(عن ابن عباس قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أي آية أنزلت من السماء أشد عليك ؟

فقال كنت بمنى أيام موسم واجتمع مشركوا العرب وافناء الناس في الموسم ، فنزل عليّ جبريل فقال ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس ﴾^(٢) .

قال : فقامت عند العقبة ، فناديت : يا أيها الناس من ينصرنى على أن أبلغ رسالة ربي ولكم الجنة ، أيها الناس قولوا لا إله إلا الله ، وأنا رسول الله إليكم ، وتتجحوا ولكم الجنة . قال : فما بقي رجل ولا امرأة ولا صبي إلا يرمون عليّ بالتراب والحجارة ، ويبصقون في وجهي ويقولون : كذاب صابئ .

فعرض عليّ عارض فقال : يا محمد ، إن كنت رسول الله فقد آن لك أن تدعو عليهم كما دعا نوح على قومه بالهلاك .

فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون ، وانصرنى عليهم أن يحييوني إلى طاعتك ، فجاء العباس عمه فأنقذه منهم وطردهم عنه ، قال : الأعمش فبذلك تفتخر بنو العباس ، ويقولون : فيهم نزلت ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾^(٣) ، وتقدم أن الآية نزلت في غدير خم .

(١) سورة الأنفال ٣٤ .

(٢) سورة المائدة ٦٧ .

(٣) سورة القصص ٥٦ .

لقد كان المشركون يهددون المسلمين ، ويتوعدون النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بالقتل ، ويبعثون بعض الرجال لإغتياله ، كما تقدمت بعض أخبار الإغتيال هذا^(١) .

وكان المنافقون يمدون الذين كفروا بأخبار النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه ، ويدلونهم على الثغرات والعورات في المدينة وأحوال المهاجرين والأنصار .

وهو من الخبيث الذي تذكره آية البحث بقسميه في الفاعل الخبيث ، والفعل المذموم والردئ ، فجاءت آية البحث ببيان فضل الله عز وجل بعزل الذين نافقوا عن جماعة المؤمنين ، وهل هذا العزل والتمييز مكاني ، الجواب ، إنه أعم فيشمل التعيين ومعرفة عامة المسلمين والناس للمنافقين والفاسقين الذي يرتكبون المعاصي.

وفي دعاء موسى عليه السلام ورد في التنزيل ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾^(٢) وكان موسى عليه السلام سأل نجاتهما من صحبة الفاسقين ، والتباعد والفصل بينهما وبين الذين يقيمون على المعصية .

وإذ سأل موسى عليه السلام هذا السؤال فإن الله عز وجل قد رزق هذه النعمة النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم ابتداءً من فضل الله ، وأنه وأصحابه يعلمون حاجة الإسلام إلى التفريق بين المؤمنين والذين نافقوا فتفضل بأسباب ومصاديق الإبتلاء اليومي .

(١) أنظر الجزء الثمانين بعد المائة ص ٢٣٣.

(٢) سورة المائدة ٢٥.

بحث بلاغي

من علوم البديع صيغة اللف والنشر ويسمى أيضاً الطي والنشر وهو ذكر فردين أو أكثر ثم يأتي لفظ متعدد بما يجعل الإنسان يرد كل واحد الى الفرد المتقدم المناسب له .

ويقسم اللف والنشر في علم البديع إلى قسمين :

الأول : اللف والنشر المرتب بأن يعود الأول من اللفظ الذي يؤتى به فيما بعد إلى المذكور الأول في بداية الكلام ، والثاني الى الآخر كما في قوله تعالى ﴿ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾^(١) .

فقد ذكرت الآية أعلاه الليل والنهار ثم جاءت لام التعليل في (لتسكنوا) لبيان أن السكن يتعلق بالليل .

أما ابتغاء فضل الله فهو في النهار .

ومن الإعجاز في الآية أعلاه أنها أعم من اللف والنشر وفق الإصطلاح البلاغي فقد يعمل الإنسان في الليل ويسكن في النهار ، وفي شطر منه ، وقد يجمع جزء من الليل مع عمله في النهار .

ومنه قوله تعالى ﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ﴾^(٢) ،

فذكرت الآية أربع صفات للفريقين ، وهي على قسمين متضادين كالعدم والوجود .

الثاني : اللف والنشر غير المرتب ويسمى أيضاً المشوش ، وهو ذكر شيئين أو أكثر ، ثم ذكر ما يتصل ويتعلق بهما ولكن ليس على وجه الترتيب ، واستدل في علم البلاغة بقوله تعالى ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا

(١) سورة القصص ٧٣ .

(٢) سورة هود ٢٤ .

الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ * وَأَمَّا
الَّذِينَ ابْضُتَتْ وُجُوهُهُمْ فَيَسَّرَ اللَّهُ لَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١﴾ (٢).

ويمكن احتساب هذه الآية ملحقة بقاعدة اللف والنشر ، إذ أنها تعين كل فريق وعاقبته بما يحتاج إلى توظيف العقل لفك وبيان المجمل ، ولابد من نكتة في المقام منها أن الآية أختتمت بذكر النعيم لبعث السكينة في قلوب المؤمنين والطيب الذي تذكره الآية هو من الذين تبيض وجوههم في الآخرة .

أما الخبيث فهو من الذين تسود وجوههم يومئذ ويمكن اضافة قسم آخر للقسمين أعلاه .

الثالث : اللف والنشر الإجمالي ، وهذا القسم وتسميته منا ، ومن الشواهد عليه الآية أعلاه في صفات المؤمنين بقوله تعالى ﴿الَّذِينَ يَنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ (٣) ، ففي السراء يكون الإنفاق واجباً ، وفي الضراء مستحباً .

وكذا بخصوص آية البحث فإنها تخبر عن التمييز بين الخبيث والطيب من غير أن يتعقبه ذكر الخصال التي ترجع إلى الطيب ، والصفات التي تعود إلى الخبيث .

(١) سورة آل عمران ١٠٦-١٠٧.

(٢) أنظر الجزء التاسع والستين من هذا السفر الذي يختص بتفسير هذه الآية والآية التي قبلها .

(٣) سورة آل عمران ١٣٤.

ولكن آيات القرآن تبين معنى كل واحد منهما كما في قوله تعالى ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(١).

فتبين التضاد والفرق بين الإيمان والنفاق ، وبين الحق والباطل ، والصحيح والفساد ، والطاعة والمعصية ، والحلال والحرام .
وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، فقال {يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم} ^(٢) ، وقال ﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ ^(٣) ، ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يا رب يا رب ، ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغذي بالحرام ، فأنى يستجاب لذلك ^(٤).

قوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾

تبين الآية قانوناً وهو عدم الملازمة بين الإيمان والإطلاع على الغيب فعلوم الغيب والإحاطة بها أمور خاص بالله عز وجل .
وفي تفسير الآية ﴿قال السدي : وما كان الله ليطلع محمداً صلى الله عليه وآله وسلم على الغيب ولكن الله اجتباها {فآمنوا بالله ورسوله وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم}﴾ ^(٥) .

(١) سورة المائدة ١٠٠.

(٢) سورة المؤمنون ٥١.

(٣) سورة البقرة ١٧٢.

(٤) الدر المنثور ١/٣٣٧.

(٥) الكشف والبيان للثعلبي ٢/٢٩٨.

وبيّن القرآن قانوناً وهو أن الله عز وجل يطلع رسله على بعض علوم الغيب ، وقال تعالى ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾^(١) وفيه دعوة للتصديق بما جاء به النبي صلى الله عليه وآله وسلم والعمل بما يأمر به ، لتكون الأوامر والنواهي التي وردت بالسنة كمصدر ثانٍ للتشريع من علوم الغيب التي أطلع الله عز وجل رسوله عليها .

وتقدير آية البحث على وجوه منها :

الأول : وما كان الله ليطلعكم كيف يميز بين الخبيث عن الطيب .

الثاني : وما كان الله ليطلعكم متى يميز الخبيث عن الطيب .

الثالث : وما كان ليطلعكم على فضله في إمهال الناس .

الرابع : وما كان الله ليطلعكم على سرائر الناس وما يخفون في

نفوسهم .

الخامس : وما كان الله ليطلعكم على نوايا الناس ، فقد استأثر الله عز وجل لنفسه العلم بما في قلوب الناس ، قال تعالى ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾^(٢) .

السادس : وما كان الله ليطلعكم على الغيب بما في العزل والفصل بين المؤمنين والمنافقين من الرحمة وأسباب النعم .

السابع : وما كان الله عز وجل ليطلعكم على الغيب في توبة طائفة من المنافقين والكفار سواء الذين يتوبون من قبل العزل والفصل بينهم وبين المؤمنين ، أو الذين يتوبون فيما بعد ، قال تعالى ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعْدَهُ أَمْ الْكِتَابِ﴾^(٣) .

(١) سورة الحشر ٧ .

(٢) سورة ق ١٦ .

(٣) سورة الرعد ٣٩ .

الثامن : وما كان الله ليطلعكم على الغيب في أسباب ونتائج تمييز وفصل الخبيث عن الطيب .

التاسع : وما كان الله ليطلعكم على الغيب فتفصلوا وتميزوا الخبيث عن الطيب ، ولكن الله عز وجل هو القادر على هذا التمييز .

العاشر : من خصائص التمييز الإلهي بين المنافق والمؤمن أنه وفق قواعد اللطف الإلهي ، وسعة رحمة الله عز وجل بالناس جميعاً ، وإمهاله لهم .

الحادي عشر : وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكنه سبحانه يجعلكم تستضيئون به ببعثة الأنبياء ونزول الكتب السماوية .

ومن معاني الآية الكريمة دعوة المسلمين والمسلمات إلى التسليم بعلوم الغيب التي استأثر الله عز وجل بها لنفسه ، قال تعالى ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾^(١) .

وقال تعالى ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾^(٢) .

وتتضمن آية البحث ثناء الله عز وجل على نفسه ودعوة المسلمين لتمجيده وتسييحه والإقرار بالعجز والتخلف عن إدراك كنهه .

والآية مناسبة لتدبر المسلمين في بديع صنع الله ، وضروب الإمتحان والإبتلاء للناس .

(١) سورة الجن ٢٦-٢٧ .

(٢) سورة النمل ٦٥ .

قوله تعالى ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾

جاء هذا الشطر من الآية بصيغة الإستدراك أي واذ لم يطلع الله عز وجل المسلمين على علوم الغيب فانه سبحانه يختار الأنبياء والرسل ، وينزل عليهم الكتب السماوية ، وتتضمن أفراداً من علوم الغيب ، وفيه دعوة للمسلمين لإستقراء علوم الغيب الواردة في القرآن سواء بالنص أو المنطوق أو المفهوم .

وهل تتضمن السنة النبوية علوماً وأخباراً من الغيب ، الجواب نعم ، لأن السنة النبوية شعبة من الوحي ، وفي التنزيل ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنِّي أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾^(١) .

وتقدير آية البحث على وجوه :

الأول : يا أيها الذين آمنوا إن الله يعزل عنكم المنافقين .

الثاني : يا أيها الذين آمنوا أن الله ينزهكم عن النفاق .

الثالث : يا أيها الذين آمنوا تعاهدوا عمل الصالحات والمساورة في الخيرات ، فانها شاهد على السلامة من آفة الخبث .

الرابع : يا أيها الناس إن الله يفصل ويعزل الخبيث عن الطيب .

وتبين آية البحث أن المدار في الطيب هو الإيمان والصلاح ، وفيه مسائل :

الأولى : ذات الإيمان طيب محض .

الثانية : الملازمة بين الإيمان والطيب .

الثالثة : الكفر قبيح ومذموم ، قال تعالى ﴿وَمَنْ يُبَدِّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾^(١).

الرابعة : عدم إجتماع الضدين الطيب والخبيث .
وتبين آية البحث قانوناً بان إجتباء واختيار الله عز وجل للرسول سبب للفصل والتمييز بين المسلم والكافر ، وبين المؤمن والمنافق لأن المؤمن ينقاد للأوامر والأحكام التي جاء بها الأنبياء .

وفيه نكتة وهي أن تمييز وفصل الكافر والمنافق عن المؤمنين قانون في كل ملة من الملل السماوية .

قوله تعالى ﴿فَاٰمَنُوا بِاللّٰهِ وَرُسُلِهِ﴾

من خصائص آية البحث أنها تمنع من الإفتتان والفتنة لإخبارها بأن الله عز وجل يحصن المسلمين ويقيهم أسباب الزلل والهلكة لأن صحبة الخبيث تضر بالإنسان وتجعله يقتبس منه ، فجاءت آية البحث لعصمة المسلمين من هذه الصحبة ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(٢) فلا يبقى المؤمنون إلى حال الإختلاط مع الخبيثين .
فان قلت قد يؤدي هذا الإختلاط إلى اقتباس الخبيث المنافق من المؤمنين ، وتوبته واصلاح حاله .

والجواب هذا صحيح ، ولكن الله عز وجل يريد للمسلمين الأمن من الخبيث ، وهذا الأمن وعزل الخبيث دعوة له للتوبة أيضاً ، وازدراء المسلمين للنفاق ، وبيان للنفرة من الخصال المذمومة ، وتتوالى آيات القرآن

(١) سورة البقرة ١٠٨.

(٢) سورة آل عمران ١١٠.

التي تدم النفاق والخبث ، قال تعالى ﴿ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ﴾^(١).

والإيمان بالله ورسوله شاهد على بلوغ مرتبة الإيمان ، وهو سبب في عزل المنافقين وكشفهم لأنهم يخفون الشك والريب في الرسالات أو نبوة بعض الأنبياء .

ومن معاني خلافة الإنسان في الأرض وقوله تعالى ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾^(٢) تفضل الله بالأمر للمسلمين والمسلمات جميعاً بالإيمان بربوبيته المطلقة والتصديق بالرسول وما جاءوا به من السنن والأحكام لبيان مسألة وهي أن التصديق بنبوة محمد يجب ألا تكون سبباً للإعراض أو عدم الإيمان ببعض الرسل .

وتفضل الله وأكرم المسلمين بالأمر والوجوب بقوله تعالى ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا تَفْرَقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَتَحْزَنُ لَهُ مُمْسِلُونَ ﴾^(٣) .

ليكون من مصاديق الإسلام الذي أختتمت به الآية أعلاه التسليم بأن الله عز وجل عنده علم الغيب واستأثر به لنفسه ، وتفضل وأخبر الأنبياء وأنزل في الكتب السماوية شذرات منه ينتفع منها المسلمون والناس جميعاً إلى يوم القيامة .

(١) سورة المائدة ١٠٠.

(٢) سورة البقرة ٣٠.

(٣) سورة البقرة ١٣٦.

وهل تدل آية البحث على الإيمان بخصوص الرسل وعددهم ثلاثمائة وثلاثة عشر أم لا بد من الإيمان والتصديق بجميع الأنبياء وعددهم مائة وأربعة وعشرون ألف نبي .

الجواب هو الثاني فقد يرد لفظ الرسل ويراد منه جميع الأنبياء ، وإن كانت النسبة بين النبي والرسول هي العموم والخصوص المطلق ، فكل رسول هو نبي وليس العكس ، وهل يلزم الإيمان بالرسل والتصديق بمعجزات الأنبياء .

الجواب نعم للامزمة المعجزة للنبوة ، ولو ورد عدد من معجزات الأنبياء في القرآن ، وفي موسى عليه السلام قال تعالى ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فَرَقٍ كَالطُّودِ الْعَظِيمِ * وَأَرْزَلْنَا ثَمَّ الْآخِرِينَ * وَأَنْجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾^(١).

وهل لآدم الذي هو أبو البشر معجزات ، الجواب نعم من جهات :
الأولى : خلق الله لآدم ونفخه فيه من روحه ، قال تعالى ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُّوحِهِ﴾^(٢).

الثانية : تفضل الله بتكليم آدم في الجنة من غير واسطة ملك ، (عن أبي ذر قال : قلت يا رسول الله أرأيت آدم أنبيأ كان؟ قال : نعم . كان نبياً رسولاً كلمه الله قبلاً ، قال له { يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة })^(٣)^(٤).

(١) سورة الشعراء ٦٣-٦٧.

(٢) سورة السجدة ٩.

(٣) سورة الأعراف ١٩.

(٤) الدر المنثور ١/٧٧.

الثالثة : إقامة آدم عليه السلام في الجنة برهة من الزمن .

الرابعة : حديث آدم مع الملائكة ، وانفرد آدم وحواء من بين الناس بصحبة الملائكة .

الخامسة : هبوط آدم من السماء إلى الأرض معجزة له ، إذ أنه خلق وعاش برهة في الجنة ثم سكن الأرض ومات ودفن فيها .

السادسة : نزول الأمر لآدم بالصلاة والصوم وحج بيت الله (عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : إن آدم لما أكل من الشجرة أوحى الله إليه : اهبط من جوارى . وعزتي لا يجاورني من عصاني .

فهبط إلى الأرض مسوداً ، فبكت الأرض وضجت . فأوحى الله : يا آدم صم لي اليوم يوم ثلاثة عشر . فصامه فأصبح ثلثه أبيض ، ثم أوحى الله إليه : صم لي هذا اليوم يوم أربعة عشر . فصامه فأصبح ثلثاه أبيض ،

ثم أوحى الله إليه صم لي هذا اليوم يوم خمسة عشر . فصامه فأصبح كله أبيض . فسميت أيام البيض .

وأخرج ابن عساكر عن الحسن قال : لما أهبط الله آدم من الجنة إلى الأرض قال له : يا آدم أربع احفظهن : واحدة لي عندك ، وأخرى لك عندي .

وأخرى بيني وبينك ، وأخرى بينك وبين الناس .

فأما التي لي عندك فتعبدني لا تشرك بي شيئاً ، وأما التي لك عندي فأوفيك عملك لا أظلمك شيئاً ، وأما التي بيني وبينك فتدعوني فاستجب لك ، وأما التي بينك وبين الناس فترضى للناس أن تأتي إليهم بما ترضى أن يؤتوا إليك بمثله ^(١) .

السابعة : نزول آدم بوصايا ووعد كريم من عند الله (عن سلمان قال : لما خلق الله آدم قال : يا آدم واحدة لي ، واحدة لك ، واحدة بيني وبينك .

فأما التي لي فتعبدني لا تشرك بي شيئاً ، وأما التي لك فما عملت من شيء جزيتك به وأن أغفر فأنا غفور رحيم ، وأما التي بيني وبينك فمناك المسألة والدعاء وعلي الإجابة والعطاء^(١) .

وتقدير الآية على وجوه :

الأول : يا أيها الذين آمنوا بالله رباً وخالقاً .

الثاني : يا أيها الذين آمنوا بالله إلهاً لا شريك له .

الثالث : يا أيها الناس آمنوا بالله إذ يتوجه الأمر بالإيمان بالله إلى الناس جميعاً .

وهل تدل آية البحث على هذا المعنى ويكون تقديرها : يا أيها الناس آمنوا بالله ورسله أم أن القدر المتيقن هو الخطاب والأمر للمؤمنين ويكون شموله لعامة الناس بالإلحاق ووحدة الحكم .

الجواب هو الأول ، لأصالة عموم الخطاب القرآني ، وفي التنزيل ﴿قُلْ

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾^(٢) .

الرابع : فآمنوا بالله ورسله أولي العزم .

الخامس : فآمنوا بالله ورسله الذين عددهم ثلاثمائة وثلاثة عشر .

(١) الدر المنثور ١/ ٩٥ .

(٢) سورة الأعراف ١٥٨ .

السادس : فأمنوا بالله والأنبياء جميعاً ، فقد يأتي لفظ الرسل في القرآن والمراد منه جميع الأنبياء .

ومن معاني الآية أن الإيمان سبب لكشف المنافقين إذ يشكر الله عز وجل للمؤمنين حسن سمتهم فيفضل عليهم بعزل المنافقين عنهم ، وحتى لو بقوا في صفوفهم فانهم لا يضررونهم ، ويكون هذا البقاء متزلزلاً .

قانون دلالة كل آية على نعمة

لقد جعل الله عز وجل الحياة الدنيا (دار النعم) وليس من حصر للنعم التي يفضل بها الله عز وجل على أي فرد من الناس ، قال تعالى ﴿وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ ^(١) .

ومن مصاديق الآية أعلاه وأن تعدوا نعمة الله على الفرد الواحد منكم لا تحصوها ، ومن صفات المنافق والخيث التخلف عن الشكر لله سبحانه . ولا ينحصر العجز عن إحصاء النعم بالتي تكون على الناس جميعاً ، إنما تشمل النعم التي يفضل بها الله عز وجل على الجماعة والأشخاص من الناس بما يستلزم شكر الإنسان لله عز وجل على النعم من جهات منها:

الأولى : النعم الخاصة .

الثانية : النعم التي على الوالدين .

الثالثة : فضل الله على العيال .

الرابعة : النعم الحاضرة عند الأجيال المتعاقبة كلها .

الخامس : النعم التي تخص الجيل والطبقة الحاضرة .

ويمكن تقسيم النعم تقسيمات كثيرة بحسب :

الأول : بعثة الأنبياء وهي التي ذكرتها آية البحث ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ

يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾^(١).

الثاني : الأفراد .

الثالث : آتات الزمان .

الرابع : المكان والموضع .

الخامس : الصحة والعافية للذات والغير .

السادس : الرزق وأسباب المعيشة .

السابع : استدامة الحياة .

الثامن : الإمهال .

التاسع : نعمة الهداية .

العاشر : نزول الكتب السماوية .

الحادي عشر : نعمة البشارة بالثواب وهي التي اختتمت بها آية البحث

بقوله تعالى ﴿وَإِنْ تَوَمَّنُوا وَتَقَوُّوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾^(٢).

الثاني عشر : نعمة الوحي والتنزيل وتلاوة آيات الكتاب السماوي ،

قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾^(٣).

الثالث عشر : نعمة التوقي من الجهل والغفلة عن النعم ، إذ يتفضل

الله عز وجل بتذكير العبد بالنعمة ، ويطرد عنه الغفلة لي شكره على النعم

(١) سورة آل عمران ١٧٩.

(٢) سورة آل عمران ١٧٩.

(٣) سورة النساء ١٣٦.

فتستديم عليه ، وتزداد ، قال تعالى ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾^(١) ، ويمكن انشاء قانون وهو : في كل آية قرآنية نعمة متعددة سواء في منطوقها أو أحكامها أو دلالاتها ، ترى ما هي النعم الإلهية في آية البحث ، الجواب من وجوه :

الأول : إخبار الآية عن وجود أمة مؤمنة.

الثاني : تحقق الفصل والعزل بين المؤمنين والمنافقين ، فمهما اجتهد المنافقون في اخفاء أنفسهم ، وما يضمرون من الخبث والكفر فان الله عز وجل يظهر أمرهم .

الثالث : نعمة كشف سرائر المنافقين وسوء مقاصدهم وهي نعمة من جهات :

الأولى : إنها نعمة على المسلمين .

الثانية : إنها نعمة على أهل الكتاب .

الثالثة : إنها نعمة على المنافقين أنفسهم لما في هذا الكشف من بعثهم على التوبة والإنابة .

الرابعة : إنها نعمة على المشركين كيلا يظنوا وجود وهن وضعف عند المسلمين ، وفي التنزيل ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾^(٢) .

الرابع : من نعم الله عز وجل في آية البحث أنه سبحانه هو الذي يتولى الفصل والتمييز بين المؤمنين والمنافقين كما بين في تفسير قوله تعالى ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ .

(١) سورة ابراهيم ٧.

(٢) سورة الانفال ٣٨.

والشكر لغة معرفة الإحسان والعرفان ومقابلته بالملائم حسب الحال والشأن والحال.

أما في الإصطلاح الشرعي فهو إظهار المنعم عليه أثر النعمة بالإقرار بالقلب والإجهار باللسان والعمل بالجوارح .
والشكور من الناس هو الذي يبذل وسعه في أداء الشكر والثناء والدعاء للمنعم .

وقد أثنى الله عز وجل على نوح بقوله تعالى ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾^(١)، وعن معاذ بن أنس الجهني عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : إنما سمي الله نوحاً {عبدًا شكوراً} لأنه كان إذا أمسى وأصبح قال : سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد في السموات والأرض وعشياً وحين تظهرون^(٢).
وأخرج ابن عساكر عن أبي جحيفة^(٣) كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقوم حتى تفطر قدماه فقيل له : أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، قال : أفلا أكون عبدًا شكوراً^(٤).

(١) سورة الاسراء ٣ .

(٢) الدر المنثور ٢٣١/٦ .

(٣) أبو جحيفة وهب بن عبد الله السوائي من صغار الصحابة ، قبض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو لم يبلغ الحلم وسمع من النبي صلى الله عليه وآله وسلم وروى عنه ، وقيل هو في سن عبد الله بن عباس ، نزل أبو جحيفة الكوفة وابتنى بها داراً وكان على شرطة الإمام علي عليه السلام وعلى بيت المال وكان يسميه وهب الخير ، وإذا خطب الإمام علي عليه السلام يقوم أبو جحيفة تحت منبره ، ومما رواه قال (أكلت ثريدة بر بلحم وأتيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأنا أتجشأ فقال : تكف أو احبس عليك جشاءك أبا جحيفة فإن أكثر الناس شبعاً في الدنيا أطولهم جوعاً يوم القيامة ، قال : فما أكل أبو جحيفة وملاً بطنه حتى فارق الدنيا كان إذا تعشى لا يتغدى وإذا تغدى لا يتعشى / الإستيعاب في معرفة الأصحاب ١٦/٢) واختلف في سنة وفاته قيل مات سنة ٧٢ وقال الذهبي مات سنة ٧٤ للهجرة.

والشاعر لله عز وجل هو الذي يجتهد في طاعة الله ، ويلهج لسانه بذكره ، ويواظب على أداء الفرائض العبادية .

تري كيف يشكر الإنسان النعم في القلب ، الجواب من جهات :
الأولى : استحضار النعم في الوجود الذهني .

الثانية : إدراك قانون وهو عجز الإنسان عن بلوغ النعمة ، وعن تهيئة البلغة لها لولا فضل الله قال تعالى ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾^(٢).

الثالثة : التدبر في النعم .

الرابعة : المقارنة مع ضد النعمة أو سلبها .

الخامسة : ذكر النعمة عند رؤية أو سماع حرمان بعض الناس منها .

السادسة : التسليم والإعتراف بالنعمة .

السابعة : إرادة عدم الإعراض أو الصدود عن النعمة .

الثامنة : الحرص على ترك نسيان النعمة .

التاسعة : تعاهد النعم والإحتراز من تفرقها ومغادرتها .

وهل يشمل كفر المشركين في قوله تعالى ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ

كَفَرُوا﴾^(٣) جحودهم وكفرهم بالنعم التي يتفضل بها الله عز وجل عليهم ،

الجواب نعم .

ليكون من معاني آية البحث ﴿حَتَّى يَمِيزَ الْخَيْثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾^(٤) أن

العبد الطيب هو الذي يشكر الله ، وأما الخيث فهو الذي يجحد بنعم الله عز وجل .

(١) الدر المنثور ٢١١/٩ .

(٢) سورة الانسان ٣٠ .

(٣) سورة آل عمران ١٧٨ .

(٤) سورة آل عمران ١٧٩ .

قوله تعالى ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾

ورد هذا الشطر من الآية بصيغة الجملة الشرطية ، ولا يعني أن المخاطبين في الآية وهم المسلمون والمسلمات لم يؤمنوا ، ولكن الآية تبين أموراً :

الأول : وجوب تعاهد الإيمان ، قال تعالى ﴿التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين﴾^(١).

الثاني : لزوم التحلي بالتقوى والخشية من الله ، وأداء الفرائض العبادية بمقدماتها وشرائطها ، ومنها الوقت وأوان الفرض العبادي .

الثالث : جاءت الآية بعطف التقوى على الإيمان ويدل العطف على المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه .

وتحتمل النسبة بينهما وجوهاً :

الأول : العموم والخصوص من وجه ، فهناك مادة للإلتقاء وأخرى للإفتراق بين الإيمان والتقوى .

الثاني : نسبة العموم والخصوص المطلق ، وهو على شعبتين :

الأولى : الإيمان أعم من التقوى .

الثانية : التقوى أعم من الإيمان

الثالث : نسبة التساوي بين الإيمان والتقوى .

الرابع : نسبة التباين وأن الإيمان غير التقوى .

والمختار هو الشعبة الأولى من الوجه الثاني أعلاه ، فكأن العطف

بينهما من عطف الخاص على العام ، قال تعالى ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾^(٢) .

(١) سورة التوبة ١١٢.

(٢) سورة آل عمران ١٠٢.

وفي الآية أعلاه ورد عن ابن مسعود (قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم {اتقوا الله حق تقاته} أن يطاع فلا يعصى ، ويذكر فلا ينسى) ^(١) ونزل التخفيف بقوله تعالى ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ ^(٢) .

وإذ أخبرت آية البحث الآية عن عدم ترك المؤمنين على حالهم حتى يميز الله عز وجل بين المؤمنين والمنافقين بعزل المنافقين وأتباعهم فان خاتمة الآية تضمنت إلى جانب الأمر بالإيمان الأمر بالتقوى والخشية والخوف من الله ، ولزوم الحرص على طاعته .

(وأخرج ابن سعد وأحمد وأبو داود عن الحكم بن حزن الكوفي قال : وفدنا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فلبثنا أياماً شهدنا فيها الجمعة مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فقام متوكئاً على قوس ، فحمد الله ، وأثنى عليه كلمات طيبات خفيفات مباركات ، ثم قال : أيها الناس إنكم لن تطيقوا كل ما أمرتم به فسدوا وابتشروا) ^(٣) .

(عن ابن عمر قال :

سمعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم يحدث حديثاً لو لم أسمعه إلا مرة أو مرتين - حتى عد سبع مرات - لم أحدث به ولكني سمعته أكثر من ذلك سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول :

كان ذو الكفل من بني إسرائيل لا يتورع من ذنب عمله فأتته امرأة فأعطاه ستين ديناراً على أن يطأها فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته ارتعدت وبكت فقال : ما يبكيك أأكرهتك .

قالت : لا ولكنه عمل ما عملته قط وما حملني عليه إلا الحاجة .

(١) الدر المنثور ٢/٣٩٩ .

(٢) سورة التغابن ١٦ .

(٣) الدر المنثور ١٠/٢٧ .

فقال : تفعلين أنت هذا وما فعلته ، اذهبي فهي لك وقال والله لا أعصي الله بعدها أبدا فمات من ليلته فأصبح مكتوبا على بابه إن الله قد غفر لذي الكفل ﴿ قال : حديث حسن وقيل إن اليسع لما كبر قال : لو استخلفت رجلا على الناس حتى أنظر كيف يعمل فقال : من يتكفل لي بثلاث : بصيام النهار وقيام الليل وألا يغضب وهو يقضي ؟ فقال رجل من ذرية العيص : أنا فردته ثم قال مثلها من الغد .

فقال الرجل : أنا ، فاستخلفه فوفى فأثنى الله عليه فسمي ذا الكفل لأنه تكفل بأمر قاله أبو موسى و مجاهد و قتادة .

وقال عمرو بن عبد الرحمن بن الحارث وقال أبو موسى عن النبي صلى الله عليه و سلم : إن ذا الكفل لم يكن نبيا ولكنه كان عبدا صالحا فتكفل بعمل رجل صالح عند موته وكان يصلي لله كل يوم مائة صلاة فأحسن الله كل يوم مائة صلاة فأحسن الله الثناء عليه ^(١).

ويحتمل أداء الصلاة بلحاظ آية البحث وجوها :

الأول : أداء الصلاة من الإيمان ، قال تعالى ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ ^(٢).

الثاني : أداء الصلاة من التقوى .

الثالث : أداء الصلاة فرد جامع من الإيمان والتقوى .

والمختار هو الثالث لبيان قانون وهو أن التعدد والعطف بين الإيمان والتقوى لا يعني التباين في المصداق الخارجي لهما ، فقد يجتمعان في مصداق واحد ، وقد يأتي مصداق لكل منهما في سعة وفضل من عند الله عز وجل .

(١) تفسير القرطبي ٢٨٥/١١.

(٢) سورة النساء ١٠٣.

(وأخرج ابن أبي الدنيا عن عمر بن عبد العزيز قال : ليس تقوى الله بصيام النهار ولا بقيام الليل ، والتخليط فيما بين ذلك ، ولكن تقوى الله ، ترك ما حرم الله ، وأداء ما افترض الله ، فمن رزق بعد ذلك خيراً فهو خير إلى خير)^(١).

ولكن كلاً من صيام النهار ، وقيام الليل من مصاديق التقوى ، والشواهد العملية عليها ، والجمع بينهما جهاد في سبيل التقوى والخشية من الله وقصد القربة ، وفيهما الثواب والأجر (عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : لو أذن الله للسموات والأرض أن يتكلما بشراً بمن صام رمضان : الجنة)^(٢).

نعم ورد قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم (من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه)^(٣).

أسماء الملائكة في القرآن

ومن أركان الإيمان الإقرار القطعي بوجود الملائكة وأنهم خلق مسكنهم السماء ، ومن وجوه الإيمان بهم التصديق بما ورد من ذكرهم في القرآن وأخبار عدد مخصوص منهم كما في ذكر جبرائيل وأنه الذي ينزل بالوحي وغيره من الملائكة ، وليس من حصر لأجناس المخلوقات التي خلقها الله عز وجل ، ولا يعلم أفراد كل جنس إلا الله عز وجل ، وكل هذه الأجناس منقطعة إلى التسييح والذكر .

وخلق ووجود الملائكة قبل آدم بكثير ، وقد ورد (عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : كان موضع البيت في زمن آدم عليه السلام شبراً أو أكثر علماً ، فكانت الملائكة تحج إليه قبل آدم ، ثم حج فاستقبلته الملائكة قالوا : يا آدم من أين جئت؟

(١) الدر المنثور ٢١/١ .

(٢) الكشف والبيان للثعلبي ٣٣٧/١ .

(٣) تفسير ابن كثير ٥٠٢/١ (٣) .

قال : حججت البيت . فقالوا : قد حجته الملائكة قبلك بألفي عام^(١) .
ومع كثرة وعظمة الملائكة وشأنهم بالإقامة في السماوات وحمل عرش
الله عز وجل .

والله قادر أن يجعل عرشه قائماً من غير حملة ، ولكن لبيان عظيم
قدرة الله وأن الملائكة عباد كرام بررة ، لا يصح للناس عبادتهم فيكون من
باب الأولوية التنزه عن عبادة الملوك والأصنام .

ولما عكفت قريش على عبادة الأصنام ، وجمعت بين العناية بالبيت
الحرام والإقرار بأنه بيت الله وبين جعل الأصنام فيه ، وتخصيص كل قبيلة
صنماً لها ، والتزلف إلى هذه الأصنام وتركت الصلاة والعبادات الأخرى
التي فرضها الله على آدم والأنبياء من بعده بعث الله عز وجل النبي محمداً
بالشريعة المتكاملة ، قال تعالى ﴿أَلِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ
دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾^(٢) ويدل القرآن على مسألة
خلق الملائكة قبل آدم وعظيم شأنهم عند الله ، قال تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ
لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(٣) .

كما أخبر القرآن عن مسألتين بخصوص عاقبة الأجناس وهما :
الأولى : موت الناس وبعثهم من القبور ووقوفهم بين الله للحساب ،
ونيل الجزاء الذي يتصف بالتضاد بين طرفيه ، قال تعالى ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ
وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾^(٤) .

(١) الدر المنثور ١/٢٥٣ .

(٢) سورة الزمر ٣ .

(٣) سورة البقرة ٣٠ .

(٤) سورة الشورى ٧ .

ولم يرد لفظ ﴿فَرِيقٌ فِي﴾ في القرآن إلا في الآية أعلاه وورد فيها مرتين .

(عن عبد الله بن عمرو بن العاص وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يفضل عبد الله على أبيه أخبرنا الحسين بن محمد بن فنجويه،

حدثنا أبو بكر بن مالك القطيعي،

حدثنا عبد الله بن أحمد ابن حنبل،

حدثني أبي،

حدثنا هشام بن القاسم،

حدثنا ليث،

حدثني أبو قبيل حي بن هانئ المعافري عن شفي الأصبحي عن عبد

الله بن عمرو،

قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذات يوم،

قابضاً على كفيه ومعه كتابان،

فقال : أتدرون ما هذان الكتابان؟

قلنا : لا يا رسول الله.

فقال للذي في يده اليمنى : هذا كتاب من رب العالمين بأسماء أهل

الجنة وأسماء آباءهم وعشائرتهم وعدتهم قبل أن يستقروا نطفاً في

الأصلاب،

وقبل أن يستقروا نطفاً في الأرحام إذ هم في الطينة منجلدون،

فليس بزايد فيهم،

ولا ناقص منهم إجمال من الله عليهم إلى يوم القيامة،

ثم قال للذي في يساره : هذا كتاب من رب العالمين،

بأسماء أهل النار وأسماء آباءهم وعشائرتهم وعدتهم،

قبل أن يستقروا نطفاً في الأصلاب وقبل أن يستقروا في الأرحام إذ هم

في الطينة منجلدون،

فليس بزايد فيهم ولا ناقص منهم،
إجمال من الله عليهم إلى يوم القيامة. فقال عبد الله بن عمرو : فقيم العمل.

إذ قال : إعملوا وسددوا وقاربوا،
فإن صاحب الجنة يختم له بعمل أهل الجنة وأن عمل أي عمل،
وإن صاحب النار يختم له بعمل أهل النار وإن عمل أي عمل.

ثم قال ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾^(١)، عدل من الله تعالى^(٢).
الثانية : تولي الملائكة الإشراف على دار الجزاء سواء بخصوص الجنة والعناية بأصحابها أو بخصوص النار والعذاب الذي يلقاه أهلها ، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾^(٣).

(عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : أذن لي أن أحدث عن ملك قد مرقت رجلاه الأرض السابعة ، والعرش على منكبيه وهو يقول : سبحانك أين كنت وأين تكون.
وأخرج أبو داود وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات بسند صحيح عن جابر ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش ، ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة سنة)^(٤).

(١) سورة الشورى ٧.

(٢) الكشف والبيان للثعلبي ٤٠/١٢.

(٣) سورة التحريم ٦.

(٤) الدر المنثور ٤٩١/٨.

والملائكة عباد للرحمن لا يوصفون بالذكر أو الأنوثة وقد ذم الله عز وجل العرب لإعتقادهم بأن الملائكة أناث ، فقال تعالى ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَتَكَبُّ شَهَادَتُهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ ^(١) .
 وهل تدل الآية أعلاه على عدم ثبوت مسألة الضد والتي هي وإن كانت مسألة أصولية تتضمن معنى أن الأمر بالشئ يقتضي النهي عن ضده سواء الضد العام أو الضد الخاص ، عديمياً كان أو وجودياً ، فهل يدل نفي الأنوثة عن الملائكة على أنهم ذكور .

الجواب لا ، إنما وردت الآية في ذم وتقبيح الذين كفروا من جهات :
الأولى : اتخاذ الذين كفروا أصناماً يعبدونها ويتقربون بها إلى الله .

الثانية : تصوير الكفار الملائكة بهية الأناث .

الثالثة : جعل الكفار الملائكة بنات الله .

الرابعة : عبادة المشركين للملائكة .

الخامسة : اتخاذ المشركين تصويرهم للأصنام وعبادتهم للملائكة سبباً وعلة لمحاربة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه ، ومع عجز الخلائق عن إحصاء الملائكة ، فقد ذكر القرآن بعض وظائف الملائكة وأسماء عدد منهم وهم :

الأول : جبرئيل ، وهو من سادات الملائكة ، ويتولى الوحي وتبليغ الأنبياء والرسل ، قال تعالى ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ^(٢) كما ذكر

(١) سورة الزخرف ١٩.

(٢) سورة البقرة ٩٧.

جبرئيل في القرآن بصفته وعمله لبيان عظيم منزلته عند الله ، قال تعالى ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾^(١) .

الثاني : ميكائيل وهو الملك الموكل بانزال المطر ونمو النباتات ، وهو من الملائكة المقربين ، قال تعالى ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾^(٢) ولم يذكر في آية أخرى .

نعم ورد ذكر جبرئيل وميكائيل في أحاديث نبوية عديدة منها معركة بدر (عن ابن مسعود قال كنا إذا صلينا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نقول السلام على الله السلام على جبريل السلام على ميكائيل فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا تقولوا السلام على الله فإن الله هو السلام .

ولكن قولوا التحيات لله والصلوات والطيبات السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله)^(٣) .

ومن خصائص ذكر جبرئيل وميكائيل أنه توثيق للسنة النبوية وشهادة على صدق نبوة محمد (عن أنس بن مالك ، قال : لما كان حين نبئ النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وكان ينام حول الكعبة ، وكانت قريش تنام حولها ، فأتاه ملكان جبريل ، وميكائيل .

فقال : بأيهم أمرنا ؟

فقال : أمرنا بسيدهم ، ثم ذهب ، ثم جاءوا من القابلة وهم ثلاثة ، فأنفوه وهو نائم ، فقلوبه لظهره وشقوا بطنه .

(١) سورة البقرة ٩٨ .

(٢) سورة التكوين ٢٠ .

(٣) السنن الكبرى للنسائي ٢٥١/١ .

ثم جاءوا بماء من زمزم فغسلوا ما كان في بطنه من شك أو شرك أو جاهلية أو ضلالة ، ثم جاءوا بطست من ذهب ملئ إيماناً وحكمة ، فملئ بطنه وجوفه إيماناً وحكمة ، ثم عرج به إلى السماء الدنيا فاستفتح جبريل عليه السلام .

فقالوا : من هذا ؟ قال : جبريل .

فقالوا : من معك ؟ قال : محمد صلى الله عليه وآله وسلم .
قالوا : أو قد بعث ؟ قال : نعم ، قالوا : مرحباً فدعوا له في دعائهم .
فلما دخل فإذا هو برجل جسيم وسيم ، فقال : من هذا يا جبريل ؟
فقال : هذا أبوك آدم ، ثم أتوا به السماء الثانية ، فاستفتح جبريل ، فقبل مثل ذلك .

وقالوا في السموات كلها كما قال وقيل له في السماء الدنيا ، فلما دخل إذا هو برجلين ، فقال : من هؤلاء يا جبريل ؟ ، فقال : يحيى وعيسى ابنا الخالة ، ثم أتى به السماء الثالثة ، فلما دخل إذا هو برجل ، فقال : من هذا يا جبريل ؟ ، فقال : هذا أخوك يوسف فضل بالحسن على الناس ، كما فضل القمر ليلة البدر على الكواكب .
ثم أتى به السماء الرابعة ، فإذا هو برجل ، فقال : من هذا يا جبريل ؟ ، فقال : هذا إدريس ، ثم قرأ : (ورفعناه مكاناً علياً)^(١) .
ثم أتى به السماء الخامسة ، فإذا هو برجل .

فقال : من هذا يا جبريل ؟ فقال : هذا هارون ، ثم أتى به السماء السادسة ، فإذا هو برجل .

فقال : من هذا يا جبريل ؟ فقال : هذا موسى ثم أتى به السماء السابعة فإذا هو برجل ، فقال : من هذا يا جبريل ؟
قال : هذا أبوك إبراهيم .

ثم انطلق به إلى الجنة فإذا هو بنهر أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل ، يجنبته قباب الدر .

فقال : ما هذا يا جبريل ؟ ، فقال : هذا الكوثر الذي أعطاك ربك ، وهذه مساكنك ، قال : وأخذ جبريل بيده من تربته ، فإذا هو مسك أذفر ، ثم خرج إلى سدره المنتهى ، وهي سدرة نبق أعظمها أمثال الجرار ، وأصغرها أمثال البيض ، فدنا ربك فكان قاب قوسين أو أدنى ، فجعل يتغشى السدره من دنورها أمثال الدر والياقوت والزبرجد واللؤلؤ ألوان ، فأوحى إلى عبده وفهمه وعلمه وفرض عليه خمسين صلاة .
فمر على موسى .

فقال : ما فرض على أمتك ؟ فقال : خمسون صلاة ، قال : ارجع إلى ربك فسله التخفيف لأمتك ، فإن أمتك أضعف الأمم قوة وأقلها عمرا ، وذكر ما لقي من بني إسرائيل ، فرجع فوضع عنه عشرا ، ثم مر على موسى ، فقال : ارجع إلى ربك فسله التخفيف ، كذلك حتى جعلها خمسا ، فقال : ارجع إلى ربك فسله التخفيف .

فقال : لست براجع غير عاصيك ، وقذف في قلبه أن لا يرجع ، فقال الله تبارك وتعالى : لا يبدل كلامي ، ولا يرد قضائي^(١) .

الثالث : مالك خازن النار : وهو الملك الذي يتولى الإشراف عليها ، قال تعالى ﴿وَنَادُوا يَا مَلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَا كُنْتُمْ﴾^(٢) وعن (عن عمر قال : لما أسري برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رأى مالكا خازن النار ، فإذا رجل عابس يعرف الغضب في وجهه)^(٣) .

(١) الطبري / تهذيب الآثار ٦/٢٦٣ .

(٢) سورة الزخرف ٧٧ .

(٣) الدر المنثور ٦/٢٠٩ .

وعن (أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا كان أول ليلة من شهر رمضان نادى الجليل جلّت عظمته رضوان خازن الجنان فيقول : لبيك وسعديك فيقول : جدّد جنّتي وزينها من أمة أحمد ثم لا تغلقها عليهم حتى ينقضي شهرهم، ثم ينادي مالكا خازن النار : أن يا مالك،

فيقول : لبيك ربي وسعديك فيقول : أغلق أبواب الجحيم عن الصّائمين من أمة أحمد ثم لا تفتحها عليهم حتى ينقضي شهرهم ثم ينادي جبرئيل فيقول : لبيك ربي وسعديك فيقول : انزل إلى الأرض وغل مرده الشياطين لا يفسدوا عليهم صيامهم وأفطارهم، والله في كل يوم من شهر رمضان عند طلوع الشمس وعند وقت الإفطار عتقاء يعتقهم من النار عبيداً وأماءً، وله في كل سماء مناد فيهم،

ملك عرفه تحت عرش رب العالمين وفرائضه في تخوم الأرض السابعة السفلى،

جناح له بالشرق مكلل بالمرجان والدرّ والجوهر، وجناح له بالمغرب مكلل بالمرجان والدرّ والجوهر ينادي : هل تائب يُتاب عليه؟

هل من داع يستجاب له؟

هل من مظلوم ينصره الله؟

هل من مستغفر يغفر له؟

هل من سائل يعطى سؤله؟

قال : وينادي الربّ تعالى ذكره الشهر كلّهُ : عبادي وإمائي أبشروا واصبروا (وداوموا) أو شك أن يرفع عنكم في المؤونات، ويفضوا إلى رحمتي وكرامتي. فإذا كان ليلة القدر،

نزل جبرئيل في كعبة من الملائكة يصلون (ويسلمون) على كل عبد قائم أو قاعد يذكر الله عز وجل^(١).

الرابع : ملك الموت ، وهو عزرائيل ، وقد ورد ذكره بقوله تعالى ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾^(٢) ، وكان ملك الموت يزور الأنبياء ويتحدث معهم في غير أوان آجالهم .

وورد في التنزيل حكاية عن إبراهيم عليه السلام ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أُولَٰئِكَ تُؤْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيُطَمِّنَ قَلْبِي﴾^(٣) (وقال ابن عباس وسعيد بن جبير والسدي : لما اتخذ الله إبراهيم خليلاً ، سأل ملك الموت أن يأذن له فيبشِّر إبراهيم بذلك ، فأذن له فأتى إبراهيم ولم يكن في الدار ، فدخل داره وكان إبراهيم أغير الناس ، إذا خرج أغلق بابه ،

فلما دخل وجد في داره رجلاً فثار إليه ليأخذه فقال له : مَنْ أَذْنُ لَكَ أَنْ تدخل داري؟

فقال : مَنْ أَنْتَ؟

قال : مَلَكُ الْمَوْتِ جئتُ أبشِّرك بأن الله عز وجل اتخذك خليلاً ،

فحمد الله تعالى وقال له : ما علامة ذلك؟

قال : أن يجيب الله دعائك ويحيي الموتى بسؤالك ،

ثم أنطلق مَلَكُ الْمَوْتِ.

فقال إبراهيم : { رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أُولَٰئِكَ تُؤْمِنُ } ؟

(١) الكشف والبيان للثعلبي ٣٣٧/١.

(٢) سورة السجدة ١١.

(٣) سورة البقرة ٢٦٠.

﴿قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ لَّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾^(١) بعلمي أنك تجيبني إذا دعوتك وتعطيني إذا سألتك. واتخذتني خليلاً^(٢).

الخامس والسادس : هاروت وماروت ، قال تعالى ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرُّوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾^(٣).

ويطلع الملائكة على أعمال بني آدم مما يصعد منها إلى السماء في زمان إدريس النبي ، وفيها صالحات وحسنات وذنوب وأفعال خبيثة كما ذكرت آية البحث ﴿يُمِيزُ الْخَيْثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾^(٤).

فاعاد الملائكة الإستفهام الإنكاري الذي ورد في بداية خلق آدم ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾^(٥) ولكن بصيغة أخرى (قالوا : هؤلاء الذين جعلتهم في الأرض واخترتهم فهم يعصونك. فقال الله عز وجل لهم : لو

(١) سورة البقرة ٢٦٠.

(٢) الكشف والبيان للثعلبي ٨٨/٢.

(٣) سورة البقرة ١٠٢.

(٤) سورة آل عمران ١٧٩.

(٥) سورة البقرة ٣٠.

أنزلتكم إلى الأرض وركبت فيكم ما ركبت فيهم لارتكبتم ما ارتكبوه. فقالوا : سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نعصيك^(١).

ليكون من مصاديق خلافة الإنسان في الأرض دفاع الله عز وجل عن جنس البشر بلحاظ النبوة والتنزيل ووجود أمة مؤمنة في كل زمان ، وقال تعالى للملائكة ، اختاروا ملكين من خياركم ثم أهبطوا إلى الأرض ، فوقع الاختيار على هاروت وماروت ، إذ كان يتصفان بكثرة العبادة .

وقال الكلبي : قال الله تعالى للملائكة اختاروا ثلاثة فأختاروا كلاً من :

الأول : عزا وهو هاروت .

الثاني : عزايا وهو ماروت .

الثالث : عزازيل .

والملائكة خلق يتصفون بأنهم عقل محض بلا شهوة ، ولما هبط هؤلاء النفر من الملائكة إلى الأرض ركب الله فيهم الشهوة التي عند بني آدم ، وأمرهم بأمر :

الأول : الحكم بين الناس بالحق .

الثاني : التنزه عن الشرك .

الثالث : الإمتناع عن القتل بغير حق .

الرابع : العصمة من الزنا وشرب الخمر ونحوه من الآثام .

أما عزازيل فحينما دبّت الشهوة في قلبه وشعر باحتمال غلبتها في ساعات على العقل سأل الله أن يقيه وأن يرفعه إلى السماء للإنقطاع إلى الذكر والعبادة فأقاله الله عز وجل ورفعه (فسجد أربعين سنة، ثم رفع رأسه ، ولم يزل بعد ذلك مطأطأاً رأسه ، حياءاً من الله عز وجل^(٢)).

أما هاروت وماروت فبقيا في الأرض وملاقاة حال الإفتتان فيها .

(١) سورة الكشف والبيان للثعلبي ١/١٩٨.

(٢) الكشف والبيان للثعلبي ١/١٩٨.

وكانا يسخطان على الناس لما يفعلونه من السيئات ، وعند المساء يذكران اسم الله الأعظم فيعرجان إلى السماء .

لقد شاع بعد أيام سلميانه عليه السلام تعلم السحر ، وافتتن الناس به ، وظنوا أن الجن والشياطين تعلم الغيب ، وأدعوا أن علم سليمان كان يتم بتعزيدهم .

فقام الملكان هاروت وماروت بتعليم الناس السحر لغايات حميدة منها :

الأولى : الفصل والتمييز بين المعجزة والسحر ، ليكون تعليم هاروت وماروت الناس له تأكيداً لصدق نبوة موسى عليه السلام ، ثم داود وسليمان ، وهو مقدمة للتصديق بمعجزة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وإبطال قول من يرميه بالسحر .

وهل هذا التمييز من عمومات قوله تعالى ﴿يُمِيزُ الْخَيْثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾^(١) الجواب نعم ، فإن المعجزة والتصديق بها من الطيب ، أما السحر وعمله وعمله في إيذاء الناس فمن الخبيث ، لبيان قانون وهو استمرار هذا التمييز في كل الأزمنة على نحو حسي جلي ، ثم جاء القرآن لجعل هذا التمييز معجزة عقلية متجددة إلى يوم القيامة بورود آية قرآنية بخصوصه ، وذكر الشواهد التاريخية التي تدل عليه في قصص الأنبياء والأمم السابقة .

وذكر قصة هاروت وماروت معجزة لأنها تتعلق بحياة نفر من الملائكة في الأرض .

الثانية : منع إستحواذ الكهنة على علوم السحر ، وسعيهم لجمع الأموال به ، ويؤدي هذا الجمع إلى تسخير السحر في الباطل ، لذا ورد قوله تعالى ﴿وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ قُنْتَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ

إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَعْلَمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١﴾ .

الثالثة : الإمتحان والابتلاء لهاروت وماروت والناس ، وهل يستطيعان منع الشهوة التي ركبها الله عز وجل بهما جمع كباح النفس الشهوية والغضبية أم لا ، وقد أفتتنا بالزهرة ، الجواب نعم يستطيعان .

الرابعة : ترغيب الناس باتباع الأنبياء ببيان قانون وهو تنزههم عن السحر .

الخامسة : بيان خسارة الآخرة بتعلم السحر وتسخيره للإضرار بالناس .

ومر شهر وهما على هذه الحال ، وذات يوم حضرت عندهما الزهرة وكانت من أجمل النساء .

لقد أخذت الزهرة بقلبي الملكين ، وراوداها عن نفسها ، ومن خصائص المرأة أنها تحس بمراودة الرجل لها عندما يبدأ تلك المراودة فبادرت إلى الإنصراف عنهما ، وكانت ممن يعبد الأصنام .

وعادت في اليوم الثاني ، فجددا المراودة ، فلم تطاوعهما ، ولكنها لم ترفض الأمر من رأس ، إنما اشترطت أموراً :

الأول : أن يعبد الملكان ما تعبد .

الثاني : الصلاة لصنم أشارت إليه .

الثالث : قتل إنسان من غير حق .

الرابع : شرب الخمر .

فقال هاروت وماروت : الصلاة لغير الله حرام واثم عظيم وقتل النفس أثم عظيم ، وقد ذم الملائكة الناس ، وعابوا عليهم

الفساد في الأرض وقتل النفس كما ورد في التنزيل ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾^(١).

وظن الملك أن الخمر أهون الشر ، مع رجاء رحمة الله ومغفرته فشربا الخمر حتى ثملا ، فرآهما انسان معها فحرضتهما عليه كيلا يفضحهما ويسبب بقتلهما فقتلاه ، ولما اقتربا منها أبت عليهما إلا أن يخبراها بالسر الذي يصعدان به إلى السماء فقالا : اسم الله الأكبر .

قالت : فلا تصلان إلي حتى تعلمانيه .

(فقال أحدهما لصاحبه : علمها . قال : فأني أخاف الله .

قال الآخر : فأين رحمة الله فعلماها ذلك . فتكلمت به وصعدت إلى السماء فمسخها الله كوكباً ، ونال الملكين العذاب في الدنيا . فعلى قول هؤلاء هي الزهرة بعينها وقيدوها . فقالوا : هي هذه الكوكبة الحمراء واسمها بالفارسية ناهيد ،

وبالنبطية ييذخت ، واستدل عليه بما رواه جابر عن الطفيل عن علي عليه السلام قال : كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا رأى سهيلاً قال : لعن الله سهيلاً إنه كان عشاراً باليمن ولعن الله الزهرة فإنها فتنت ملكين .

وقال مجاهد : كنت مع ابن عمر ذات ليلة فقال لي : أرمق بالكوكبة يعني الزهرة فاذا طلعت فأيقظني . فلما طلعت ايقظته فجعل ينظر إليها ويسبها سباً شديداً . فقلت : رحمك الله سبيت نجماً سامعاً مطيعاً ماله ليسب ؟

فقال : إن هذه كانت بغياً . فلقى ملكان منها مالياً .

وقال ابن عمر إذا رأى الزهرة قال : لا مرحباً بها ولا أهلاً وروى أبو عثمان (المرندي) عن ابن عباس : إنّ المرأة التي فتنت بها الملكان مسخت فهي هذه الكوكبة الحمراء يعني الزهرة قال : وكان يسميها ييدخت^(١).

وأول قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأن الله عز وجل مسخها شهاباً ، ولعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم للزهرة لموافقتها بالاسم (قال علي بن أبي طالب عليه السلام ، وكانت من أهل فارس ، وكانت ملكة في بلدها)^(٢).

قانون التعاضد في الفرائض

يدل قوله تعالى ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(٣) على قانون وهو أن كل جنس من الخلق له وظائف مخصوصة تتقوم بالخضوع والخشوع لله عز وجل كل بحسبه ، وجاءت الآية أعلاه في خطاب من الله عز وجل للملائكة ليشهدوا خلق الإنسان ويكونوا عوناً له في عبادته لله عز وجل ، وهذه الإعانة على أقسام :

الأول : القضية الشخصية بتقريب الفرد إلى طاعة الله ، وارجاء كتابة السيئة لعله يستغفر ويتوب .

الثاني : نصرة الأنبياء والرسل ، وليس من حصر لمصاديق هذه النصرة منها نزول الملائكة يوم بدر وأحد ، قال تعالى ﴿وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾^(٤) .

(١) الكشف والبيان للثعلبي ١٩٩/١.

(٢) الكشف والبيان للثعلبي ١٩٩/١.

(٣) سورة البقرة ٣٠.

(٤) سورة التحريم ٤.

الثالث : نزول الملائكة بالوحي ليكون منهاج رشاد وسبيل هداية للناس جميعاً .

لقد أحب الله عز وجل الناس وجعلهم خلفاء في الأرض ، فأمر الملائكة أن يكونوا مدداً لهم بما تستديم معه عبادة الله في الأرض ، لذا حينما استغاث النبي محمد وأصحابه بالله عز وجل يوم بدر استجاب لهم الله فأنزل ألفاً من الملائكة منهم جبرئيل وميكائيل وإسرافيل وهم من سادة الملائكة .

وعن الإمام علي عليه السلام (قال بينما انا اميح من قليب بدر إذ جاءت ريح شديدة لم أر مثلها قط ثم ذهب ثم جاءت ريح شديدة لم أر مثلها قط إلا التي كانت قبلها ثم جاءت ريح شديدة قال فكانت الريح الأولى جبرئيل عليه السلام نزل في ألف من الملائكة مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكانت الريح الثانية ميكائيل نزل في ألف من الملائكة عن يمين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكان أبو بكر عن يمينه وكانت الريح الثالثة إسرافيل نزل في ألف من الملائكة عن ميسرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأنا في الميسرة)^(١).

وحينما احتجت الملائكة على جعل الإنسان ﴿فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(٢) أجابهم الله عز وجل ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٣) ومن علمه تعالى أن الملائكة سوف يرون ما يفعله المؤمنون من الصالحات ، وأن الله عز وجل يميز بين الطيب والخبيث .

(١) الخصائص الكبرى ٣٤١/١ .

(٢) سورة البقرة ٣٠ .

(٣) سورة البقرة ٣٠ .

وهل في هذا التمييز رد على الملائكة ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ

الدَّمَاءَ﴾^(١).

الجواب نعم ، فهناك المؤمنون الذين يعملون الصالحات ، ولا يصدر منهم إلا ما هو طيب ، وبما يبعث الرضا في نفوس الملائكة ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(٢).

وقد وردت أحاديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم تبين قانوناً وهو أن الله عز وجل يباهي الملائكة بعبادة المؤمنين .

ففي فريضة الصيام ورد (عن عبادة بن الصامت : أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال يوماً وحضر رمضان : أتاكم شهر بركة يغشاكم الله فيه ، فتتزل الرحمة وتخط الخطايا ويستجيب فيه الدعاء ، ينظر الله إلى تنافسكم ويباهي بكم ملائكته ، فأروا الله من أنفسكم خيراً ، فإن الشقي من حرم فيه رحمة الله عز وجل)^(٣).

وبخصوص فريضة الحج ، ورد (عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : من خرج في هذا الوجه لحج أو عمرة فمات فيه لم يعرض ولم يحاسب ، وقيل له ادخل الجنة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إن الله يباهي بالطائفين)^(٤).

(عن أنس : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : إن الله تطول على أهل عرفات يباهي بهم الملائكة ، فيقول : يا ملائكتي انظروا إلى عبادي شعثاً غبراً أقبلوا يضربون إلي من كل فج عميق ، فاشهدكم أنني قد أجبت دعاءهم ، وشفعت رغبتهم ، ووهبت مسيئتهم

(١) سورة البقرة ٣٠.

(٢) سورة آل عمران ١١٠.

(٣) الدر المنثور ١/٣٧٧.

(٤) الدر المنثور ١/٣٧٧.

لمحسنهم ، وأعطيت لمحسنهم جميع ما سألوني غير التبعات التي بينهم ، فإذا أفاض القوم إلى جمع ووقفوا وعادوا في الرغبة والطلب إلى الله .
 فيقول : يا ملائكتي عبادي وقفوا فعادوا في الرغبة والطلب ، فأشهدكم أنني قد أجبت دعاءهم ، وشفعت رغبتهم ، ووهبت مسيئتهم لمحسنهم ، وأعطيت محسنهم جميع ما سألوني ، وكفلت عنهم التبعات التي بينهم .
 وأخرج ابن المبارك عن أنس بن مالك قال : وقف النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعرفات وقد كادت الشمس أن تؤوب فقال : يا بلال أنصت لي الناس .

فقام بلال فقال : انصتوا لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .
 فنصت الناس فقال : يا معاشر الناس أتاني جبريل آنفاً فأقرأني من ربي السلام وقال : إن الله عز وجل غفر لأهل عرفات ، وأهل المشعر ، وضمن عنهم التبعات .

فقام عمر بن الخطاب فقال : يا رسول الله هذا لنا خاصة؟ قال : هذا لكم ولمن أتى من بعدكم إلى يوم القيامة . فقال عمر بن الخطاب : كثر خير الله وطاب^(١) .

وفي الذكر وجوبه وموضوعية وعظيم نفعه ورد (عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : "إن لله ملائكة فضلاً عن كتاب الناس يطوفون في الطريق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تنادوا هلم إلى حاجتكم، فتحف بأجنحتها إلى السماء الدنيا، فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم: ما يقول عبادي؟

يقولون: يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك قال: وهل رأوني؟

يقولون: لا والله يا ربنا ما رأوك، فيقول: كيف لو أنهم رأوني؟

فيقولون: لو أنهم رأوك كانوا أشد عبادة وأشد تحميذا وتمجيذا، وأكثر تسييحا.

فيقول: ما يسألوني؟ فيقولون: يسألونك الجنة .

فيقول: وهل رأوها؟ فيقولون: لا والله يا ربنا ما رأوها .

فيقول: كيف لو رأوها؟ فيقولون: لو رأوها كانوا أشد حرصا عليها، وأشد لها طلبا، وأعظم فيها رغبة .

فيقول: مم يتعوذون؟ فيقولون: من النار، فيقول: هل رأوها؟

فيقولون: لا والله يا ربنا ما رأوها، فيقول: كيف لو رأوها؟

فيقولون: لو رأوها كانوا أشد منها فرارا وأشد لها مخافة، فيقول: فأشهدكم أنني قد غفرت لهم، فيقول ملك من الملائكة: إن فيهم فلانا ليس منهم، إنما جاء لحاجة. قال: هم القوم لا يشقى بهم جليسهم"،

فهذا من بركتهم على نفوسهم وعلى جليسهم، فلهم نصيب من قوله: (وجعلني مباركا أينما كنت) ^(١) وإن الله، عز وجل، ليباهي بالذاكرين الملائكة.

كما روى مسلم (علينا بك. قال: "الله ما أجلسكم إلا ذلك؟" قالوا: الله ما أجلسنا إلا ذلك؟ قال: "أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم، ولكن أتاني جبريل فأخبرني أن الله يباهي بكم الملائكة) ^(٢).

ومن خصائص الفرائض العبادية أن بعضها يعضد بعضاً كما في آيات القرآن ، وأن أداء كل فرض من العبادة يؤدي إلى أداء مثله في أوانه وعند وجوبه ، كما في أداء صلاة الصبح عند طلوع الفجر وأنه ترغيب بأداء صلاة الظهر عند الزوال .

(١) سورة مريم ٣١.

(٢) تفسير ابن كثير ٤٣٣/٦.

ويبعث أداء صلاة الظهر الشوق في قلب المسلم لأداء صلاة العصر ، وهكذا كما أن أداء الصلاة ترغيب لإتيان الزكاة والفرائض الأخرى ، وكذا في إتيان كل فريضة عبادية .

ومن إعجاز القرآن في المقام إقتران الأمر بالزكاة بالأمر بالصلاة ، قال تعالى ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تَقَدَّمُوا لَأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنْ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾^(١) وقال تعالى ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾^(٢) .

ويتسالم المسلمون على دخول النساء في الخطاب التكليفي على نحو القطع وإن ورد بصيغة جمع المذكر السالم وواو الجماعة . وهل تبعث الصلاة اليومية على أداء الصيام وبالعكس ، الجواب نعم ، ومن الإعجاز في أوقات الصلاة حلول صلاة المغرب عند سقوط القرص وما بعده ، وهو أوان رؤية الهلال ، قال تعالى ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾^(٣) ويدرك كل مسلم أن الصيام متمم للصلاة ، ويذكر كل فرض منهما بالآخر .

ومن خصائص الصلاة وجوب تلاوة القرآن ، ومنه آيات الصيام لتكون الصلاة تذكيراً يومياً على مدار السنة بالصيام الذي هو شهر مخصوص منها ، ومن الإعجاز في المقام ورود اسم رمضان في القرآن بصفة الشهر وهو الوحيد من بين أشهر السنة الذي ذكر بالاسم في القرآن للتذكير بفريضة الصيام .

(١) سورة البقرة ١١٠ .

(٢) سورة الحج ٤١ .

(٣) سورة البقرة ١٨٥ .

ومن شرائط الصيام الإمساك عند طلوع الفجر ، وهو ذات الوقت الذي يحل فيه أوان صلاة الصبح .

ويتلو المسلم والمسلمة آيات القرآن التي تدل على وجوب حج بيت الله الحرام وأحكامه ، ليكون من معاني قوله تعالى ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ ﴾^(١) التذكير بالحج وأوانه .

ويدعو قوله تعالى ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾^(٢) المسلم إلى التدبر في حاله هل عنده استطاعة وهل تستمر لحين أشهر الحج وأوان الوجوب فيتوجه له خطاب التكليف بالحج ، أم ليس عنده استطاعة أم أنه قد حج البيت الحرام حجة الإسلام ، وترغبه نفسه بالحج المندوب خاصة لمن مضت خمس سنوات على حجه البيت .

وتأتي آيات القرآن لتكون من التعاضد في هذا القانون من جهات :

الأولى : تعضيد آيات القرآن المخصوصة بكل فريضة لتلك الفريضة من جهة وجوبها ولزوم أدائها .

الثانية : بيان الآية القرآنية لثواب أداء الفريضة ومجيؤها بالثناء على الذين يؤدونها ، والوعد الكريم بالثواب على أدائها .

الثالثة : مجئ القرآن بمنافع أداء الفرائض كما في قوله تعالى ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾^(٣) .

(١) سورة البقرة ١٩٧ .

(٢) سورة آل عمران ٩٧ .

(٣) سورة العنكبوت ٤٥ .

كما وردت الأحاديث النبوية ببيان النفع والأجر العظيم على أداء كل فريضة من الفرائض (عن أنس بن مالك : أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : مثل الصلوات الخمس كمثل نهر جار عذب غمر على باب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات فماذا ييقين من درنه؟ قال : ودرنه إثمه .

وأخرج ابن أبي شيبة عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إن مثل الصلوات الخمس كمثل نهر جار على باب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات^(١).

وعن (واثلة بن الاسقع حدثه قال جاء رجل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال يا رسول الله أصبت حدا فأقمه علي فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأقيمت الصلاة فلما سلم قال يا رسول الله إني أصبت حدا فأقمه علي .

فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هل توضأت حين أقبلت قال : نعم ، قال فصليت معنا ، قال : نعم ، قال فاذهب فإن الله قد عفا عنك^(٢).

الرابعة : ترغيب آيات القرآن بأداء الفرائض والزجر والتخويف عن تركها .

الخامسة : ذكر القرآن للفرائض العبادية في قصص الأنبياء والأمم السالفة ، كما في الصلاة والزكاة والصيام والحج ، وفي إسماعيل ورد قوله تعالى ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ

(١) الدر المنثور ٣٥٦/٥ .

(٢) السنن الكبرى للنسائي ٣١٤/٤ .

صَادِقُ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا * وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿١﴾ .

وقال تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ (٢) .

ومن منافع التعضيد بين الفرائض العبادية أمور :

الأول : بعث الشوق في النفوس لأداء الفرائض .

الثاني : التخفيف عن المسلمين والمسلمات في أداء الفرائض

، قال تعالى ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ (٣) .

الثالث : الإحتراز من أسباب الشك والرياء .

الرابع : التفقه في الدين ، قال تعالى ﴿فَلَوْلَا نَفْعُ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ

طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ (٤) .

الخامس : استحضار المسلم للفرائض في الوجود الذهني قبل

وبعد أدائها .

السادس : تنمية ملكة قصد القربة في النفوس ، قال تعالى ﴿وَمَا

أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ (١) .

(١) سورة مريم ٥٤-٥٥ .

(٢) سورة البقرة ٨٣ .

(٣) سورة النساء ٢٨ .

(٤) سورة التوبة ١٢٢ .

قانون ملازمة التقوى للوجود الإنساني

لقد أكرم الله سبحانه الإنسان بأن نصبه ﴿فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(١) وابتدأ هذا التنصيب باخبار الله للملائكة المقربين عن خلافته ، فمع أنهم خلق طائعون ومنقادون لأمر سبحانه فانه تفضل وأخبرهم عن أموين في موضوع وآن واحد ، كل واحد منهما أصل وهما :

الأول : خلق الإنسان .

الثاني : خلافة الإنسان في الأرض .

ولم تعلم الملائكة بأن الله سيتخذ له خليفة في الأرض ، فكان الأمر مفاجئاً لهم ، ولم يحتجوا أو يعترضوا على هذا الأمر وهم يعلمون أن السموات والأرض وما فيهن ملك لله عز وجل إنما احتجوا على وجود المفسد من بني آدم في الأرض ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾^(٢) . وكان هؤلاء المفسدين ليسوا من خلفاء الأرض ، فكان استفهام الملائكة نوع دعاء لإصلاح عموم أهل الأرض ، فأجابهم الله عز وجل ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٣) .

ومن علم الله عز وجل فرض الصلاة وجعلها مصاحبة وملازمة لوجود الإنسان في الأرض إذ تأتي الصلاة على الفساد ، وتمنع من سفك الدماء بغير حق .

وقد تجلت هذه الحقيقة في قصة ولدي آدم إذ امتنع هابيل قد قتل أخيه أو التسابق معه في القتل ، ولما تقبل الله ما قدمه هابيل من قربان يتصف

(١) سورة البينة ٤.

(٢) سورة البقرة ٣٠.

(٣) سورة البقرة ٣٠.

(٤) سورة البقرة ٣٠.

بالحسن الذاتي ، ورد قربان قابيل الذي اختاره من ردى ماله ، قال قابيل ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾^(١) .

ولكن هابيل لم يبادر إلى قتله ولم يهدده مع أنه كان الأشد والأقوى إنما أجابه بأمور :

الأول : الموعدة والإرشاد ، كما ورد في التنزيل ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾^(٢) وليس فيه تعريض أو تعيير لقابيل ولكنها دعوة للتقوى والخشية من الله عز وجل .

وقتل هابيل ثم مات قابيل بعده ، ولكن هذه الدعوة باقية إلى يوم القيامة يتلوها المسلمون والمسلمات كل يوم ويقتبسون منها المواعظ وتتضمن الزجر عن الخصومة والمشاحنة والقتل ، وتدعوهم إلى الصلاح والمواظبة على سنن الإيمان ، وهو من المدد والعون في قوله تعالى في آية البحث ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾^(٣) .

الثاني : بيان قانون وهو ملازمة التقوى للإنسان في عمارة الأرض وأن أمة من أهلها لن يتخلوا عن التقوى في أشد الأحوال ، فهي عندهم من ضروريات الحياة ، وهي استثناء من أحكام الضرورة ، فكما أن الضرورة مستثناة لإباحة المحظورات معها ، فإن الثبات على التقوى لا يباح تركه عندما يهيم الأخ بالتعدي والقتل .

(١) سورة المائدة ٢٧ .

(٢) سورة المائدة ٢٧ .

(٣) سورة آل عمران ١٧٩ .

الثالث : مع أن هابيل هو الأقوى والأشد فانه أعلن امتناعه عن جرح

أو قتل أخيه ، كما ورد في التنزيل ﴿لَنْ بَسَطَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطِ يَدَيَّ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾^(١).

وهل يدل قوله تعالى ﴿إِنَّمَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾^(٢) على أن هابيل كان يصلي وأن الصلاة كانت موجودة في أيام آدم ، الجواب نعم إذ تتقوم التقوى بالصلاة ، فلا تقوى من غير صلاة .

وعن الحسن بن علي عليه السلام (جاء نفر من اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه

وآله فقال: يا محمد أنت الذي تزعم أنك رسول الله وأنت الذي يوحي إليك كما أوحى إلى

موسى بن عمران ؟ فسكت النبي صلى الله عليه وآله ساعة ثم قال: نعم أنا سيد ولد آدم

ولا فخر، وأنا خاتم النبيين وإمام المتقين ورسول رب العالمين، قالوا: إلى من ؟ إلى

العرب أم إلى العجم أم إلينا ؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية " قل " يا محمد " يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا " قال اليهودي الذي كان أعلمهم: يا محمد إني أسألك عن عشر كلمات أعطى الله موسى بن عمران في البقعة المباركة حيث ناجاه لا يعلمها إلا نبي مرسل أو ملك مقرب، قال النبي صلى الله عليه وآله: سلني .

قال: أخبرني يا محمد عن الكلمات التي اختارهن الله لابراهيم عليه السلام حيث بنى البيت، قال النبي صلى الله عليه وآله: نعم " سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر " .

(١) سورة المائدة ٢٨.

(٢) سورة المائدة ٢٧.

قال اليهودي: فبأي شئ بني هذه الكعبة مربعة ؟ قال النبي صلى الله عليه وآله: بالكلمات الاربع، قال: لاي شئ سميت الكعبة ؟ قال النبي: لانها وسط الدنيا .

قال اليهودي : أخبرني عن تفسير " سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر .

قال النبي صلى الله عليه وآله: علم الله عز وجل أن بني آدم يكذبون على الله فقال: " سبحان الله " تبريا مما يقولون، وأما قوله: " الحمد لله " فإنه علم أن العباد لا يؤدون شكر نعمته فحمد نفسه قبل أي يحمده، وهو أول الكلام، لولا ذلك لما أنعم الله على أحد بنعمته، فقوله: " لا إله إلا الله " يعني وحدانيته، لا يقبل الله الاعمال إلا بها وهي كلمة التقوى يثقل الله بها الموازين يوم القيامة، وأما قوله: "

الله أكبر " فهي كلمة أعلى الكلمات وأحبها إلى الله عز وجل، يعني أنه ليس شئ أكبر مني، لا تفتح الصلاة إلا بها لكرامتها على الله وهو الاسم الاعز الاكرم، قال اليهودي: صدقت يا محمد فما جزاء قائلها ؟ قال:

إذا قال العبد: " سبحان الله " سبح معه ما دون العرش فيعطى قائلها عشر أمثالها، وإذا قال: " الحمد لله " أنعم الله عليه بنعيم الدنيا موصولا بنعيم الآخرة، وهي الكلمة التي يقولها أهل الجنة إذا دخلوها، وينقطع الكلام الذي يقولون في الدنيا ما خلا " الحمد لله " وذلك قوله عز وجل ﴿دَعَا هُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١)، وأما قوله : لا إله إلا الله ، فالجنة جزاؤه وذلك قوله عز وجل ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾^(٢)، يقول : هل جزاء من قال : لا إله إلا الله إلا الجنة.

(١) سورة يونس ١٠.

(٢) سورة الرحمن ٦٠.

فقال اليهودي: صدقت يا محمد، قد أخبرت واحدة فتأذن لي أن أسألك الثانية. فقال النبي صلى الله عليه وآله: سلني عما شئت، وجبرئيل عن يمين النبي صلى الله عليه وآله، وميكائيل عن يساره يلقنانه. فقال اليهودي: لاي شئ سميت محمدا وأبا القاسم وبشيرا ونذيرا و داعيا.

فقال النبي صلى الله عليه وآله: أما محمد فإني محمود في الارض، وأما أحمد فإني محمود في السماء، وأما أبو القاسم فإن الله عز وجل يقسم يوم القيامة قسمة النار، فمن كفر بي من الاولين والآخرين ففي النار، ويقسم قسمة الجنة، فمن آمن بي وأقر بنبوتي ففي الجنة، وأما الداعي فإني أدعو الناس إلى دين ربي، وأما النذير فإني انذر بالنار من عصائي، وأما البشير فإني ابشر بالجنة من أطاعني. قال: صدقت يا محمد .

فأخبرني عن الله لاي شئ وقت هذه الخمس الصلوات في خمس مواقيت على امتك في ساعات الليل والنهار؟ قال النبي صل الله عليه وآله: إن الشمس عند الزوال لها حلقة تدخل فيها، فإذا دخلت فيها زالت الشمس فيسبح كل شئ دون العرش لوجه ربي، وهي الساعة التي يصلي علي فيها ربي .

ففرض الله عز وجل علي وعلى امتي فيها الصلاة ، وقال : أقم الصلوة لدلوك الشمس إلى غسق الليل^(١) وهي الساعة التي يؤتى فيها بجهنم يوم القيامة، فما من مؤمن يوفق تلك الساعة أن يكون

ساجدا أو راکعا أو قائما إلا حرم الله عز وجل جسده على النار، وأما صلاة العصر فهي الساعة التي أكل فيها آدم من الشجرة فأخرجه الله تعالى من الجنة فأمر الله ذريته بهذه الصلاة إلى يوم القيامة، واختارها لامتي،

فهي من أحب الصلوات إلى الله عز وجل، وأوصاني أن أحفظها من بين الصلوات .

وأما صلاة المغرب فهي الساعة التي تاب الله فيها على آدم عليه السلام، وكان بين ما أكل من الشجرة وبين ما تاب الله تعالى فيها عليه ثلاث مائة سنة من أيام الدنيا، وفي أيام الآخرة يوم كألف سنة من وقت صلاة العصر إلى العشاء، فصلى آدم ثلاث ركعات: ركعة لخطيئته، وركعة لخطيئة حواء، وركعة لتوبته، فافترض الله عز وجل هذه الثلاث الركعات على امتي، وهي الساعة التي يستجاب فيها الدعاء، فوعدني ربي أن يستجيب لمن دعاه فيها .

وهذه الصلوات التي أمرني بها ربي عز وجل فقال ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾^(١)، وأما صلاة العشاء الآخرة فإن للقبر ظلمة، وليوم القيامة ظلمة، أمرني الله وامتني بهذه الصلاة في ذلك الوقت لتتور لهم القبور وليعطوا النور على الصراط، وما من قدم مشت إلى صلاة العتمة إلا حرم الله تعالى جسدها على النار، وهي الصلاة التي اختارها الله للمرسلين قبلي .

وأما صلاة الفجر فإن الشمس إذا طلعت تطلع على قرني الشيطان فأمرني الله عز وجل أن أصلي صلاة الفجر قبل طلوع الشمس وقبل أن يسجد لها الكافر فتسجد امتي لله، وسرعتها أحب إلى الله، وهي الصلاة التي تشهدا ملائكة الليل وملائكة النهار^(٢).

وفي رد وتقوى هاييل وجوه :

الأول : اقتران التقوى بوجود الإنسان في الأرض ومصاحبته له .

(١) سورة الروم ١٧.

(٢) البحار ٢٩٦/٩.

الثاني : تجلي مصداق لإحتجاج الله على الملائكة ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا

تَعْلَمُونَ﴾^(١) بوجود أمة مؤمنة تحشى الله ولا تقابل السيئة بمثلها ، وتمتنع عن سفك الدماء الذي تذكره الملائكة حتى في حال التعدي عليها .

الثالث : تعاهد المؤمنين للحفاظ على الوجود الإنساني في الأرض خوفاً من الله وإقراراً بيوم الحساب إذ ذكر هايل قانوناً وهو (الخوف من رب العالمين) بمعنى أن هذا القانون حاضر في الوجود الذهني وعند القول والفعل ، وحينما تعدى الظالم وقتل المتقي نزل حكم القصاص ، وصار زاجراً عن القتل مطلقاً فيقاد القاتل وان كان قاتلاً لفاسق لإطلاق الحكم في القتل العمدي .

وهو من منافع التقوى والمتقين بأن يصيروا واقية وسبيل أمان وسلامة للناس جميعاً ، قال تعالى ﴿وَكَمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾^(٢) ففي القصاص حياة والحياة طريق التوبة والإنابة والهداية .

الرابع : إخبار هايل عن قانون وهو أن القاتل يتحمل أوزار المقتول لأنه يسلب عنه الحياة وعذوبتها ويحول دون توبته في قادم الأيام ، وتكون عاقبة القاتل لغيره ظلماً للخلود في النار .

ولما أخبر الله عز وجل عن جعل الإنسان خليفة في الأرض فانه سبحانه أصلحه للتقوى والخشية منه ، فليس من زمان إلا وفيه أمة يخشون الله ، وتظهر هذه التقوى في أقوالهم وأفعالهم ، وفي متدياتهم ، ويكون التمييز بين الطيب والخبيث الذي تذكره هذه الآية تثبيتاً لسنن التقوى في الأرض ،

(١) سورة البقرة ٣٠.

(٢) سورة البقرة ١٧٩.

لذا لم تحتتم آية البحث بالإيمان وحده إنما ذكرت الإيمان والتقوى بقوله تعالى ﴿وَإِنْ تَوَمَّنُوا وَيَتَّوَمَّنُوا لَيُؤْخَذْكُمْ أَجُورُكُمْ﴾^(١).

ومن خصائص العطف المغايرة ، وهو من عطف الخاص على العام والفرع على الأصل ، وسيأتي بيان وتفصيل في باب التفسير .

قانون ثمرة التقوى

من الإعجاز في خلق الإنسان ومصاديق قوله تعالى ﴿وَفَخَّ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ﴾^(٢) معرفة كل إنسان بالفطرة معنى التقوى وادراكه للحاجة إليها وهذه المعرفة تحالج النفس الإنسانية .
وتأتي آيات القرآن للبحث على التقوى ، ومنها آية البحث إذ تجمع بين الإيمان والتقوى .

لقد أمر الله عز وجل الناس بالتقوى لما فيها من النفع الخاص والعام ، إذ تترشح منافع تقييد العبد بسنن التقوى عليه ، وعلى ذويه وجيرانه وغيرهم ، وكذا فإن تحلي الأمة والطائفة بالتقوى سبيل لنجاة الفرد منهم ، وهي سعة في الرزق ، وتقوى الله من مصاديق قوله تعالى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(٣).

وليس من حصر لثمار ومنافع التقوى في الدنيا والآخرة ومنها :
الأول : الفوز بالقرب من الله ، ونيل مرتبة محبته تعالى ، فمن خصائص خلافة الإنسان في الأرض حب الله عز وجل للذين يخلصون في

(١) سورة محمد ٣٦ .

(٢) سورة السجدة ٩ .

(٣) سورة آل عمران ١١٠ .

عبادته ، وفي التنزيل ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾^(١).

الثاني : مجئ العون والمدد من عند الله عز وجل للذي يتقي الله ويخشاه بالسر والعلانية ، وتعدد صيغ وكيفيات إعانة الله عز وجل للعبد الذي يتصف بالتقوى ، لتشمل أمور الدين والدنيا ، قال تعالى ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾^(٢).

الثالث : التقوى هداية وسبيل للرشاد والسداد وضياء في البصر ، وقدر في البصيرة ، وتجعل المؤمن قادراً على التمييز بين الحق والباطل ، وبين النافع والضار .

الرابع : التقوى صاحب كريم ، ومتاع لطيف ، ومؤنس لبيب ، وطارد للغفلة والنسيان ، قال تعالى ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِي يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ﴾^(٣).

ويمكن القول أن القرآن مدرسة التقوى إذ جاء بالتقوى وحث عليها ، وندب إليها وأخبر عن أمر الله عز وجل بالتقيد بسننها ولزوم عدم تركها ، وقد وردت مادة ﴿وقى﴾ في أكثر من مائتين وخمسين موضعاً منه ، وفيه شاهد على موضوعيتها في إصلاح المسلمين لمنازل النعيم في الآخرة .

وهل يصح القول بأن كل آية من القرآن تدعو إلى التقوى ، الجواب نعم ، وهو من إعجاز القرآن ، ليكون تقدير قوله تعالى ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾^(١) على وجوه :

(١) سورة آل عمران ٧٦.

(٢) سورة البقرة ١٩٤.

(٣) سورة البقرة ١٩٧.

الأول : مجموع آيات وسور القرآن يهدي للتي هي أقوم .

الثاني : كل سورة من القرآن تهدي للتي هي أقوم .

الثالث : كل آيتين أو ثلاثة من القرآن تهدي للتي هي أقوم .

الرابع : كل آية من القرآن تهدي للتي هي أقوم .

والتقوى هي الأقوم والأصوب والأحسن والصراط المستقيم ، والمنهاج الأعدل والأكمل ، ومن خصائص التقوى أن كل فرد منها يهدي الى أفراد أخرى من التقوى .

وذكرت آية البحث التمييز بين الخبيث والطيب بأمر ومشية من عند الله ، والطيب هو الذي يتحلى بالتقوى ، إذ أنها خير محض ، وفيها نجاة من الخبائث والعادات المذمومة .

عن ابن عباس قال : يقول للكفار { ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه } من الكفر { حتى يميز الخبيث من الطيب } فيميز أهل السعادة من أهل الشقاوة .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في الآية قال : يقول للكفار لم يكن ليدع المؤمنين على ما أنتم عليه من الضلالة حتى يميز الخبيث من الطيب ، فميز بينهم في الجهاد والهجرة .
وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في الآية قال : ميز بينهم يوم أحد . المنافق من المؤمن^(١) .

الخامس : لقد جعل الله عز وجل الإنسان كائناً محتاجاً ، وتتجدد حاجة الإنسان لرحمة الله كل دقيقة ، ومنها الشهيق والزفير فلا يتم أي منهما إلا بمشيئة من عند الله .

(١) سورة الإسراء ٩ .

(٢) الدر المنثور ٢/٣ .

ومن حاجات الإنسان التوبة وقبولها من عند الله ، والتقوى أضمن وأقصر طريق للعفو والمغفرة من عند الله ، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنِ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾^(١).

السادس : من خصائص الحياة الدنيا أنها دار الآمال والسعي والكسب ، وأمال كل إنسان أكبر من سعيه وما يقدر عليه ، فتأتي التقوى بلغة لتحقيق الغايات الحميدة ، والآمال البعيدة فهي توفيق وتيسير للأعمال ، قال تعالى ﴿فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾^(٢).

وتبين هذه الآيات التضاد بين الطيب والخبيث الذي تذكره آية البحث. السابع : تحلى المتقين بالأخلاق الحميدة والآداب الرفيعة ، وهم دعاة لسنن التوحيد ، وسيرتهم اصلاح للخبيث وحث للناس للتنزه عنه ، ومن صفات المتقين كتمان الغيظ ، وإظهار الصفح والعفو عن الغير ، قال تعالى ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٣).

إذ تضمنت الآيتان أعلاه صفات يتحلى بها المتقون وتكون نوع طريق لدخولهم الجنة وهي :

(١) سورة الأنفال ٢٩.

(٢) سورة الليل ٥-١٠.

(٣) سورة آل عمران ١٣٣-١٣٤.

الأولى : الإنفاق في حال السعة والغنى ، وإخراج الحقوق الشرعية ، إذ يدل حال السراء الذي تذكره الآية أعلاه على بلوغ المال عند كل واحد منهم حدّ النصاب الذي تتعلق به الزكاة ، قال تعالى ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾^(١).

الثانية : الإنفاق في حال الشدة والعسر والضيق بما يتيسر لأن الإنفاق سبب للرزق ، قال تعالى ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾^(٢).

وقد يظن المسلم أن وجوب الإنفاق فقط في حال الغنى ، وأن لا يجب ولا يستحب في حال العسر والضيق .

فجاءت الآية أعلاه لتبين أن المتقين ينفقون ويبدلون المال والصدقة حتى في حال العسر^(٣) ، وتحتمل الآية وجوهاً :

الأول : يجب الإنفاق في السراء والضراء.

الثاني : يجب الإنفاق في السراء ، ويستحب في حال الضراء.

الثالث : يستحب الإنفاق في حال السراء والضراء.

والصحيح هو الثاني أعلاه ، وهل الإنفاق في السراء والضراء من الطيب الذي تذكره آية البحث أم الذي ينفق في السراء والضراء هو غير الطيب الذي تذكره آية البحث.

الجواب هو الثاني لدلالة تعلق موضوع الآية بالمؤمنين .

(١) سورة التوبة ٦٠.

(٢) سورة الطلاق ٢-٣.

(٣) أنظر الجزء الخامس والتسعين من هذا السفر والذي جاء خاصاً بتفسير هذه الآية.

الثالثة : من صفات المتقين الصبر وحبس الغضب ومنع الحنق من الظهور على الجوارح ، قال تعالى ﴿الَّذِينَ يَنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾^(١) (وأصل الكظم حبس الشيء عن امتلائه، يقال : كظمت القربة إذا ملأتها، وما يقال لمجاري الماء : كظائم، لامتلائها بالماء وأخذ بها كظامة، ومنه قيل : أخذت بكظمه، يعني بمجاري نفسه، ومنه كظم الإبل وهو حبسها جررها في أجوافها ولا تجتر، وإنما يفعل ذلك من الفزع والجهل.

قال أعشى باهلة يصف رجلاً نحراً للإبل وهي تفزع منه :
قد تكظم البزل منه حين تبصره حتى تقطع في أجوافها الجرر^(٢).
ولم يرد لفظ (الكاظمين) في القرآن إلا في الآية أعلاه ووصف المتقين ، مع ورودها بالفاظ أخرى مشتقة من ذات الجذر (ك ظ م) قال تعالى في الثناء على يعقوب وبيان صبره مع شوقه ولهفته على ولده يوسف ﴿وَأَبْيَضُ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾^(٣).

وأخرج الحاكم عن أبي بن كعب : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من سره أن يشرف له البنيان ، وترفع له الدرجات فليعف عمن ظلمه ، ويعط من حرمة ، ويصل من قطعه.
وأخرج البيهقي عن علي بن الحسين ، أن جارية جعلت تسكب عليه الماء يتهياً للصلاة ، فسقط الإبريق من يدها على وجهه فشجه ، فرفع رأسه

(١) سورة آل عمران ١٣٤.

(٢) الكشف والبيان ٢٢٠/٣.

(٣) سورة يوسف ٨٤.

إليها فقالت : إن الله يقول ﴿وَالْكَاطِبِينَ الْغِيْظُ﴾^(١) ، قال : قد كظمت غيظي قالت ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾^(٢) .

قال : قد عفا الله عنك قالت ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٣) قال : اذهبي فأنت حرة^(٤) .

ويؤسس كظم الغيظ لنشر الأخلاق الحميدة بين الناس ، وفيه استئصال للثأر والعصبية ، ومن مصاديق الخلافة العامة لجنس الإنسان في الأرض ثناء الناس على الحليم والذي يكظم غيظه ، ويحبس غضبه ، ويمتنع عن البطش والانتقام مع قدرته عليه .

وان قلت كظم الغيظ عام قد يصدر من المؤمن ومن الكافر فهل يكون طريقاً الى الجنة مطلقاً ، الجواب لا ، إنما ذكرت الآية التالية في صفات المتقين ذكرهم الله عز وجل ولجوئهم الى الإستغفار بقوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾^(٥) لإرادتهم قصد القربة ورجاء الثواب في كظم الغيظ .

ومن معاني قوله تعالى ﴿لَيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾^(٦) ، وقوع معارك الإسلام الأولى ففي معركة بدر حينما أرسل أبو سفيان ضمضم بن عمرو الى أهل مكة يندبهم لحماية قافلته خرج في ثلاثة أيام .

(١) سورة آل عمران ١٣٤ .

(٢) سورة آل عمران ١٣٤ .

(٣) سورة آل عمران ١٣٤ .

(٤) الدر المنثور ٢/٤٣١ .

(٥) سورة آل عمران ١٣٥ .

(٦) سورة الأنفال ٣٧ .

وعندما وصلتهم وهم في الطريق رسالة من أبي سفيان يخبرهم فيها بنجاة القافلة ويطلب منهم الرجوع لإنتفاء سبب المسير أبوا الإستجابة لطلبه وأصر كبارهم على الوصول الى ماء بدر والإقامة فيه ثلاثا كي يسمع العرب بخروجهم وتخشاهم ، وتتجنب السطو على قوافلهم ، ولكن عندما رأوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه عزموا على قتاله والسعي لقتله في الميدان .

ليكون من معاني قوله تعالى ﴿يَوْمَ التَّقَىٰ الْجَمْعَانِ﴾^(١)، جمع طيب وجمع خبيث ، فيكون من معاني التمييز بينهما نصر المؤمنين وجمعهم الطيب ، قال تعالى ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِدَرٍّ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(٢).
الرابعة : يتخذ المؤمنون عفوهم عن أساء لهم طريقاً الى الخلود في النعيم لقوله تعالى في صفات المتقين ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾^(٣)، وفي العفو هذا أطراف :

الأول : الذي يعفو .

الثاني : موضوع العفو والمسألة التي يتم العفو فيها .

الثالث : كيفية العفو وهل هو على نحو الموجبة الكلية أو الجزئية ، قال تعالى ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾^(٤).

الرابع : العفو عنه ، وذكرت الآية المعفو عنه بصفة الناس وألف لام الجنس لبيان مسائل :

الأولى : إرادة العفو عن المسلم وغير المسلم .

(١) سورة آل عمران ١٦٦.

(٢) سورة آل عمران ١٢٣.

(٣) سورة آل عمران ١٣٤.

(٤) سورة البقرة ٢٣٧.

الثانية : قصد القرية والأجر من العفو .

الثالثة : عفو المسلم عن غيره من مصاديق خطاب الله عز وجل

للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(١).

وعن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : أول من يدعى إلى الجنة الحمادون الذين يحمدون الله على السراء والضراء^(٢).

ترى ما هي النسبة بين الحمادون والمنفقون في السراء والضراء الذين تذكرهم الآية أعلاه .

الجواب هو العموم والخصوص من وجه ، فهناك مادة للإلتقاء وأخرى للإفتراق بينهما ، وكل منهما يؤدي الى الإقامة في الجنة بفضل من عند الله ، لبيان قانون وهو تعدد الطرق والوسائل الحميدة للأجر والثواب ، ويمكن استبيان مصاديق هذا القانون من آيات القرآن التي تتضمن الإخبار عن أسباب وسبل الدخول الى الجنة .

وعن عتبة بن عامر عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : يجمع الناس في صعيد واحد ، ينفذهم البصر ، ويسمعهم الداعي .

فينادي مناد : سيعلم أهل الجمع لمن الكرم اليوم ثلاث مرات ثم يقول : أين الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع : ثم يقول :

(١) سورة الأنبياء ١٠٧.

(٢) الدر المنثور ١٧١/٥.

أين الذين كانت (لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله) (١) ، ثم يقول : أين الحمادون الذين كانوا يحمدون ربهم (٢).

إذ وردت في الحديث أعلاه ثلاث خصال تؤدي الى تخفيف الحساب والى دخول الجنة ، وأيهما أكثر وأسهل الطرق الطيبة التي تؤدي الى الجنة أم الطرق الخبيثة التي تسوق صاحبها إلى النار .

الجواب هو الأول وكل آية قرآنية صراط مستقيم يقود إلى الجنة ، وكل طاعة لله عز وجل خطوة مباركة في مسيرة بلوغ غاية السعادة.

قانون عرض المسألة الواحدة على كل آيات القرآن

لقد أنعم الله عز وجل على الناس بنزول القرآن الذي يتصف بخصوصية وهي أن ذخائر علومه لا تنفذ إلى يوم القيامة ومسائل التفسير متجددة ليس لها انقطاع .

وقد أنعم الله عز وجل علينا بصدور أجزاء عديدة كل جزء بتفسير آية واحدة من القرآن كما صدرت لنا عدة أجزاء يقع كل جزء في الصلة بين الآيات ، وجاء جزءان في تفسير آية واحدة (٣) ، وجاءت ثلاثة أجزاء في تفسير آية واحدة (٤) ، وخمسة أجزاء في تفسير آية واحدة (٥) ، ثم أنعم الله عز وجل علينا بآيات الصلة بين الآيات وهو :

الأول : الجزء الخامس العشرون بعد المائة ويختص بالصلة بين الآية (١٥٢) والآية التي قبلها .

(١) سورة النور ٣٧.

(٢) الدر المنثور ٣٠٤/٧.

(٣) أنظر الجزء ١١١-١١٢ ويختصان بتفسير الآية ١٤٠ من سورة آل عمران.

(٤) أنظر الجزء ١٠٠-١٠١-٩١٠٢ وتقع في تفسير الآية ١٣٥.

(٥) أنظر الجزء ١٠٥-١٠٦-١٠٧-١٠٨-١٠٩.

الثاني : الجزء السادس والعشرون بعد المائة ويختص باصلة بين شطر من الآية ١٥٣ وشرط من الآية ١٥١ .

الثالث : الجزء السابع والعشرون بعد المائة ، وهو الجزء الثاني من تفسير الآية ١٥٣ .

الرابع : الجزء الثامن والعشرون بعد المائة ، وهو القسم الثالث من تفسير الآية ١٥٣ .

الخامس : الجزء التاسع والعشرون بعد المائة ، ويقع في الصلة بين شطر من الآية ١٥٣ وشرط من الآية ١٥٤ .

السادس : الجزء الثلاثون بعد المائة ، وهو القسم الثاني من تفسير الآية ١٥٤ .

السابع : الجزء الواحد والثلاثون بعد المائة ، من تفسير الآية ١٥٤ .

الثامن : الجزء الخامس والثلاثون بعد المائة ، وهو القسم الأول من تفسير نداء الإيمان .

التاسع : الجزء السادس والثلاثون بعد المائة ، وهو القسم الثاني من تفسير نداء الإيمان .

العاشر : الجزء السابع والثلاثون بعد المائة ، وهو القسم الثالث من تفسير نداء الإيمان .

الحادي عشر : الجزء الثامن والثلاثون بعد المائة ، وهو القسم الرابع من تفسير نداء الإيمان .

الثاني عشر : الجزء التاسع والثلاثون بعد المائة ، وهو القسم الخامس من تفسير نداء الإيمان .

الثالث عشر : الجزء الأربعون بعد المائة ، وهو القسم السادس من تفسير نداء الإيمان .

الرابع عشر: الجزء الواحد والخمسون بعد المائة ، ويتضمن بيان الصلة بين شطر من الآية ١٦١ و شطر من الآية ١٦٤ وسورة آل عمران وفيه استظهار لشذرات من كنوز القرآن ومناسبة لعرض المسألة الواحدة على آيات القرآن واستقراء الحكم الخاص فيها.

وهل قوله تعالى ﴿وَزَكَّنَّا لَكُمُ الْكِتَابَ ثِيَابًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾^(١) من الدلائل على هذا القانون ، الجواب نعم ، فما يأتي مجملًا في آية يأتي مبيناً وعلى نحو التفصيل في آيات أخرى ، وقد يلزم الجمع بين أكثر من آية لإستظهار الحكم في مسألة مخصوصة كما في حرمة الخمر .

وذكر أنه لما نزل قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾^(٢).

وعن قتادة في الآية قال : كان القوم يشربونها حتى إذا حضرت الصلاة أمسكوا عنها قال : وذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال حين أنزلت هذه الآية : قد تقرب الله في تحريم الخمر ، ثم حرمها بعد ذلك في سورة المائدة بعد غزوة الأحزاب ، وعلم أنها تسفه الأحلام ، وتجهد الأموال ، وتشغل عن ذكر الله وعن الصلاة^(٣).

ونزل قوله تعالى ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَإِثْمَ وَالْبَغْيِ بَغْيِ الْحَقِّ﴾^(٤).

وذكرت الآية أعلاه حرمة الإثم ، وقد سمى القرآن الخمر إثمًا لقوله تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ﴾^(١).

(١) سورة النحل ٨٩.

(٢) سورة الأعراف ٣٣.

(٣) الدر المنثور ٤٥٦/٣.

(٤) سورة الأعراف ٣٣.

والخمر حرام ولو كان قليلاً إذا كان كثيره مسكراً لقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم : ما أسكر كثيره فقليله حرام .

كما يدل على حرمة الخمر ما ورد في سورة المائدة وهي آخر سور القرآن نزولاً بقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجُسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(١) ، ويدل الإجتنب على النهي والحرمة.

وبالإمكان تتبع فصل الخبيث عن الطيب في آيات القرآن ، وهي صفحة إعجازية مشرقة ، فمثلاً قوله تعالى ﴿النَّعَاسُ أَمْنَةٌ مِنْهُ وَيُنْزَلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءٌ لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رَجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾^(٢) ، إذ تقسم هذه الآية المسلمين يوم معركة أحد الى قسمين :

الأول : الذين نزل عليه النعاس أمانة ورحمة وهم الطيبون الذين صدقوا في إيمانهم ، وأظهروا الثبات في الميدان .

الثاني : الذين همتهم أنفسهم ، وداخلهم الريب والشك ، وندموا على حضورهم الميدان ، وهم المنافقون مثل معتب بن قشير فلم ينزل عليهم النعاس إنما كانوا في حال فزع وخوف وقلق ، ومنهم المنافقون الذين انسحبوا من وسط الطريق إلى المعركة .

ويأتي مزيد بيان في الجزء التالي ان شاء الله^(٤).

وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : وإذا نهيتكم عن شئ فأجتنبوه ، وتام الحديث (وأخرج ابن حبان عن أبي هريرة : أن رسول

(١) سورة البقرة ٢١٩.

(٢) سورة المائدة ٩٠.

(٣) سورة الأنفال ١١.

(٤) انظر الجزء السابع والثمانين بعد المائة من هذا السفر باب : كتيبة حمراء الأسد.

الله صلى الله عليه وآله وسلم خطب فقال : أيها الناس إن الله تعالى قد افترض عليكم الحج ، فقام رجل فقال : لكل عام يا رسول الله . فسكت عنه حتى أعادها ثلاث مرات قال : لو قلت نعم لوجبت ولو وجبت ما قمتم بها ، ذروني ما تركتكم فإنما هلك الذين قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه . وإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم ، وذكر أن هذه الآية في المائدة نزلت في ذلك { يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم }^(١).

إمساكية شهر رمضان - ١٤٤٠هـ ((مدينة بغداد صانها الله من الفساد))

شهر رمضان	اليوم	التاريخ	أذان الفجر	الشروق	الظهر	المغرب
-----------	-------	---------	------------	--------	-------	--------

١	الثلاثاء	٥/٧	٣:٣٦	٥:٠٩	١١:٥٨	٧:٠٥
٢	الأربعاء	٥/٨	٣:٣٥	٥:٠٨	١١:٥٨	٧:٠٦
٣	الخميس	٥/٩	٣:٣٤	٥:٠٧	١١:٥٨	٧:٠٧
٤	الجمعة	٥/١٠	٣:٣٣	٥:٠٦	١١:٥٨	٧:٠٨
٥	السبت	٥/١١	٣:٣٢	٥:٠٥	١١:٥٨	٧:٠٨
٦	الأحد	٥/١٢	٣:٣١	٥:٠٥	١١:٥٨	٧:٠٩
٧	الاثنين	٥/١٣	٣:٣٠	٥:٠٤	١١:٥٨	٧:١٠
٨	الثلاثاء	٥/١٤	٣:٢٩	٥:٠٣	١١:٥٨	٧:١١
٩	الأربعاء	٥/١٥	٣:٢٨	٥:٠٢	١١:٥٨	٧:١١
١٠	الخميس	٥/١٦	٣:٢٦	٥:٠١	١١:٥٨	٧:١٢
١١	الجمعة	٥/١٧	٣:٢٥	٥:٠١	١١:٥٨	٧:١٣
١٢	السبت	٥/١٨	٣:٢٤	٥:٠٠	١١:٥٨	٧:١٣
١٣	الأحد	٥/١٩	٣:٢٣	٥:٠٠	١١:٥٨	٧:١٤
١٤	الاثنين	٥/٢٠	٣:٢٢	٤:٥٩	١١:٥٨	٧:١٥
١٥	الثلاثاء	٥/٢١	٣:٢١	٤:٥٩	١١:٥٨	٧:١٦

١- يكون يوم الثلاثاء ٢٠١٩/٥/٧ أول أيام شهر رمضان، ويبقى الهلال بعد الغروب ساعة و(٢٨) دقيقة، وقد يرى مطوقاً.

٢- ستعلن أكثر الدول العربية يوم الإثنين أول شهر رمضان، وقد يرى في عدد منها بالعين المجردة، فيستحب إستحباً مؤكداً صيامه، قال تعالى ﴿وَكُلُوا وَابْتَغُوا الْفَيْضَ﴾.

٣- لا أصل للإحتياط بالإمساك قبل الأذان بسبع أو عشر دقائق، وقد يلحق بالتشديد على النفس، ويمتنع السحور بطلوع الفجر الصادق وعليه الكتاب والسنة، فيجوز شرب الماء قبله ولو بدقيقة، قال تعالى ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَسْبِقَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾، يستحب الإستهلال، ولا تثبت رؤية الهلال إلا بشاهدين عدلين.

شهر رمضان	اليوم	التاريخ	أذان الفجر	الشروق	الظهر	المغرب
-----------	-------	---------	------------	--------	-------	--------

١٦	الأربعاء	٥/٢٢	٣:٢١	٤:٥٨	١١:٥٨	٧:١٦
١٧	الخميس	٥/٢٣	٣:٢٠	٤:٥٨	١١:٥٨	٧:١٧
١٨	الجمعة	٥/٢٤	٣:١٩	٤:٥٧	١١:٥٨	٧:١٨
١٩	السبت	٥/٢٥	٣:١٨	٤:٥٧	١١:٥٩	٧:١٨
٢٠	الأحد	٥/٢٦	٣:١٨	٤:٥٦	١١:٥٩	٧:١٩
٢١	الاثنين	٥/٢٧	٣:١٧	٤:٥٦	١١:٥٩	٧:٢٠
٢٢	الثلاثاء	٥/٢٨	٣:١٦	٤:٥٦	١١:٥٩	٧:٢٠
٢٣	الأربعاء	٥/٢٩	٣:١٦	٤:٥٥	١١:٥٩	٧:٢١
٢٤	الخميس	٥/٣٠	٣:١٥	٤:٥٥	١١:٥٩	٧:٢١
٢٥	الجمعة	٥/٣١	٣:١٥	٤:٥٥	١١:٥٩	٧:٢٢
٢٦	السبت	٦/١	٣:١٣	٤:٥٤	١٢:٠٠	٧:٢٣
٢٧	الأحد	٦/٢	٣:١٣	٤:٥٤	١٢:٠١	٧:٢٤
٢٨	الاثنين	٦/٣	٣:١٢	٤:٥٤	١٢:٠١	٧:٢٥
٢٩	الثلاثاء	٦/٤	٣:١٢	٤:٥٤	١٢:٠١	٧:٢٥

١- يكون يوم الأربعاء ٥/٦/٢٠١٩ أول أيام عيد الفطر المبارك ، ويبقى الهلال بعد الغروب ساعة ودقيقتين ، وإرتفاعه عن الأفق (١١) درجة و(٣٩) دقيقة ونسبة القسم المنار منه ١،٨١ .

صدرت مائة وواحد وثمانون جزءاً من تفسيرنا للقرآن في تفسير سورة البقرة وشطر من آل عمران وهي معروضة على موقعنا WWW.MARJIAA.COM ، وكلها تأويل وإستنباط لم يشهد له التأريخ مثيلاً، ونطبع أجزاءه المتعاقبة والحمد لله على نفقتنا الخاصة بصعوبة ، مع أنه من أفضل موارد الخمس والحقوق الشرعية ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ﴾
فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾

إمساكية شهر رمضان - ١٤٤٠هـ (مدينة النجف الأشرف وضواحيها)

شهر رمضان	اليوم	التاريخ	أذان الفجر	الشروق	الظهر	المغرب
١	الثلاثاء	٥/٧	٣:٤٠	٥:١٢	١١:٥٩	٧:٠٣
٢	الأربعاء	٥/٨	٣:٣٩	٥:١١	١١:٥٩	٧:٠٤
٣/	الخميس	٥/٩	٣:٣٨	٥:١٠	١١:٥٩	٧:٠٥
٤	الجمعة	٥/١٠	٣:٣٧	٥:٠٩	١١:٥٩	٧:٠٦
٥	السبت	٥/١١	٣:٣٦	٥:٠٨	١١:٥٩	٧:٠٦
٦	الأحد	٥/١٢	٣:٣٥	٥:٠٨	١١:٥٩	٧:٠٧
٧	الاثنين	٥/١٣	٣:٣٤	٥:٠٧	١١:٥٩	٧:٠٨
٨	الثلاثاء	٥/١٤	٣:٣٣	٥:٠٦	١١:٥٩	٧:٠٩
٩	الأربعاء	٥/١٥	٣:٣٢	٥:٠٥	١١:٥٩	٧:٠٩
١٠	الخميس	٥/١٦	٣:٣١	٥:٠٥	١١:٥٩	٧:١٠
١١	الجمعة	٥/١٧	٣:٣٠	٥:٠٤	١١:٥٩	٧:١١
١٢	السبت	٥/١٨	٣:٢٩	٥:٠٤	١١:٥٩	٧:١١
١٣	الأحد	٥/١٩	٣:٢٨	٥:٠٣	١١:٥٩	٧:١٢
١٤	الاثنين	٥/٢٠	٣:٢٧	٥:٠٢	١١:٥٩	٧:١٣
١٥	الثلاثاء	٥/٢١	٣:٢٦	٥:٠٢	١١:٥٩	٧:١٤

٤- يكون يوم الثلاثاء ٢٠١٩/٥/٧ أول أيام شهر رمضان، ويبقى الهلال بعد الغروب ساعة و(٢٨) دقيقة، وقد يرى مطوقاً.

٥- ستعلن أكثر الدول العربية يوم الإثنين أول شهر رمضان، وقد يرى في عدد منها بالعين المجردة، فيستحب إستحباً مؤكداً صيامه، قال تعالى ﴿وَلِكُلِّوْا الْعِدَّةَ﴾.

٦- لا أصل للإحتياط بالإمساك قبل الأذان بسبع أو عشر دقائق، وقد يلحق بالتشديد على النفس، ويمتنع السحور بطلوع الفجر الصادق وعليه الكتاب والسنة، فيجوز شرب الماء قبله ولو بدقيقة، قال تعالى ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾، يستحب الإستهلال، ولا تثبت رؤية الهلال إلا بشاهدين عدلين.

شهر رمضان	اليوم	التاريخ	أذان الفجر	الشروق	الظهر	المغرب
١٦	الأربعاء	٥/٢٢	٣:٢٦	٥:٠١	١١:٥٩	٧:١٤
١٧	الخميس	٥/٢٣	٣:٢٥	٥:٠١	١١:٥٩	٧:١٥
١٨	الجمعة	٥/٢٤	٣:٢٤	٥:٠٠	١١:٥٩	٧:١٦
١٩	السبت	٥/٢٥	٣:٢٣	٥:٠٠	١٢:٠٠	٧:١٧
٢٠	الأحد	٥/٢٦	٣:٢٣	٤:٥٩	١٢:٠٠	٧:١٨
٢١	الاثنين	٥/٢٧	٣:٢٢	٤:٥٩	١٢:٠٠	٧:١٨
٢٢	الثلاثاء	٥/٢٨	٣:٢١	٤:٥٩	١٢:٠٠	٧:١٩
٢٣	الأربعاء	٥/٢٩	٣:٢١	٤:٥٨	١٢:٠٠	٧:١٩
٢٤	الخميس	٥/٣٠	٣:٢٠	٤:٥٨	١٢:٠٠	٧:١٩
٢٥	الجمعة	٥/٣١	٣:٢٠	٤:٥٨	١٢:٠٠	٧:٢٠
٢٦	السبت	٦/١	٣:١٩	٤:٥٧	١٢:٠٠	٧:٢١
٢٧	الأحد	٦/٢	٣:١٩	٤:٥٧	١٢:٠١	٧:٢١
٢٨	الاثنين	٦/٣	٣:١٨	٤:٥٧	١٢:٠١	٧:٢٢
٢٩	الثلاثاء	٦/٤	٣:١٨	٤:٥٧	١٢:٠١	٧:٢٢

٢- يكون يوم الأربعاء ٥/٦/٢٠١٩ أول أيام عيد الفطر المبارك ، ويبقى الهلال بعد الغروب ساعة ودقيقتين، وإرتفاعه عن الأفق (١١) درجة و(٣٩) دقيقة ونسبة القسم المنار منه ١،٨١ .

٣- صدرت مائة وواحد وثمانون جزءاً من تفسيرنا للقرآن في تفسير سورة البقرة وشر من آل عمران وهي معروضة على موقعنا WWW.MARJIAA.COM، وكلها تأويل وإستنباط لم يشهد له التاريخ مثيلاً، ونطبع أجزاء المتعاقبة والحمد لله على نفقتنا الخاصة بصعوبة ، مع أنه من أفضل موارد الخمس والحقوق الشرعية ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ .

الفهرس

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٣	المقدمة	١٩٨	الصلة بين أول وآخر الآية
١٠	الآية ١٧٩/الإعراب واللغة	٢٠٥	من غايات الآية
١٧	جذر الكلمة القرآنية	٢٠٩	أسباب النزول
٢١	في سياق الآيات	٢١٠	التفسير ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾
٨١	الصلة بين خاتمة الآيتين	٢٣١	قانون غايات التمييز
١١٧	صلة الآية بالآيات الثلاثة التي بعدها	٢٣٤	بحث بلاغي
١٦٢	إعجاز الآية الذاتي	٢٣٦	قوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾
١٦٤	اعجاز الآية الغيري	٢٣٩	قوله تعالى ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُجِيبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾
١٦٨	الآية سلاح	٢٤٠	قوله تعالى ﴿فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾
١٧١	مفهوم الآية	٢٤٥	قانون دلالة كل آية على نعمة
١٧٦	افاضات الآية	٢٥٠	قوله ﴿وَإِنْ تَوَمَّنَا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾
١٧٨	الآية لطف	٢٥٣	أسماء الملائكة في القرآن
١٨٢	الآية بشارة	٢٦٨	قانون التعاضد في الفرائض
١٨٤	الآية إنذار	٢٧٧	قانون ملازمة التقوى للوجود الإنساني
١٨٥	الآية موعظة	٢٨٤	قانون ثمرة التقوى
١٨٨	الآية رحمة	٢٩٣	قانون عرض المسألة الواحدة على كل آيات القرآن
١٩١	الحاجة لآية البحث	٢٩٧	إمساكية شهر رمضان ١٤٤٠
١٩٤	النعم التي تذكرها آية البحث	٣٠٣	ردود كريمة
١٩٥	مفهوم الموافقة	٣٢٣	الفهرس
١٩٦	مفهوم المخالفة		

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد**١٦٨٧ لسنة ٢٠١٩**